الدكتور شاكر خصباك

ابن بطوطة ورحلته

الدكتور شاكر خصباك

ابن بطوطة ورحلته

ساعدت جامعة بغداد في نشره

مطبعة الآداب — النجف الأشرف
١٩٧١

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر ابن بطوطة سيّد الرحالة العرب والمسلمين ، وقد قُدّر ما قطعه في رحلاته بما يربو على خمس وسبعين ألف ميل ، ومن المؤكد أنه يبزّ جميع الرحالة القدماء - الافرنج والعرب - في اتساع رحلاته ، ولم يكن يدانيه سوى « ماركو بولو » البندقي ، ورحالة هذا شأنه جدير بأن يلقى كل تقدير واعزاز ، وحريّ أن تنال « رحلتـــه » المسماة « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » كل عناية واهتمام .

والواقع أنه لم يكن رائداً في أدب الرحلات ، فالأدب الجغرافي العربي حافل بكتب الرحلات . وكان الرحالة العرب والمسلمون صنفين : صنف يطوف البلدان لهدف علمي ، وذلك ليسجل المعلومات الجغرافية والاجتماعية عنهـا تسجيلاً أميناً ، وينتمي إلى هذا الصنف الجغرافيون الرحالة ، وصنف يسوح في الأمصار لغرض تجاري أو سياسي أو ديني ، ثم يدوّن مشاهداته وملاحظاته في كتاب ، وهذا الضرب من كتب الرحلات يغلب عليه الطابع الوصفي البحت .

ويعتبر اليعقوبي وابن حوقل والمقدسي والمسعودي والادريسي أشهر رحالة الصنف الأول ، فقد عملوا على تسجيل معلومات جغرافية دقيقة وأمينة عن أقطار العالم العربي والاسلامي لا تستند إلى السماع والنقل من الكتب فحسب ، بل تعتمد على المشاهدة الشخصية أيضاً .

فلقد طاف اليعقوبي بالجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ومصر

والمغرب العربي والاندلس . وزار أرمينية وبلاد فارس والهند ، ثم كتب مؤلفه المشهور (كتاب البلدان) الذي يعتبر رائداً في الجغرافية العربية الوصفية .

وساح ابن حوقل في ديار عديدة من ديار الاسلام كالهند وأرمينية وبلاد ما وراء النهر وبلاد فارس ، بالاضافة إلى الأندلس وبعض أقطار شمال افريقيا . وقد أمضى ما يقرب من ثلث قرن في تلك الجولات . ثم أخرج كتابه المعروف (صورة الأرض) الذي تناول فيه باسهاب وصف مدن أقطار العراق والهند وفارس وبلاد ما وراء النهر ، كما تحدث عن أهم معالمها الجغرافية . وقد زوّد كتابه بخرائط جيدة .

وطوّف المقدسي في أغلب ديار الاسلام ـ عدا الأندلس والهند ـ وفي نيته تأليف كتاب جغرافي عن العالم الاسلامي ، فزار العراق ومصر وبلاد فارس بأقسامها المختلفة وأقطار المغرب العربي ، ثم عكف على تأليف كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الذي جاء مثالاً للمؤلفات الجغرافية الناضجة بتفصيلاته الطبيعية والاقتصادية والبشريه ، لاسيما ما يتعلق بالعراق وبلاد الشام

أما المسعودي فقد تنقل في أنحاء العالم القديم على نطاق واسع . فزار بلاد فارس والهند وسرنديب ومدغشقر واذربيجان وجرجان وبلاد الأناضول ، وتجول في البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي وبحر الصين . كذلك طاف بأغلب البلاد العربيـة ، كبلاد الشام وفلسطين وعمان وجزيرة العرب ، ثم استقر أخيراً في مصر . وقد دوّن معلوماته الجغرافية في موسوعته الضخمة (مروج الذهب) ـ لاسيما الجزء الأول منها ـ كما سجل شذرات منها في كتابيه (التنبيه والاشراف) و (أخبار الزمان) . وقد اتصفت موضوعاته بالحيادية والموضوعية تجـاه الأقطار

الاسلامية وغير الاسلامية ، واكتسبت أهمية كبيرة بالرغم مما يشوب البعض منها من مبالغات وأوهام .

ويمثل الادريسي خاتمة الجغرافيين العرب الرحالة ذوي الأصالة العلمية والتفهم الصحيح للعلم الجغرافي ، وهو أكثر الجغرافيين العرب والمسلمين معرفة بالأقطار الاوربية والافريقية . وقد زار أسبانيا (الأندلس) وجنوبي فرنسا وايطاليا واليونان وبلاد الأناضول وجزر البحر المتوسط ، كما تجول في أقطار المغرب العربي والسودان الشرقي . ولم يتح له السياحة في ديار الاسلام البعيدة كالهند وتركستان وكذلك الصين ، لذلك كانت معلوماته عن تلك الجهات غامضة ومشوّشة . وقد ألف بناء على طلب ملك صقلية روجر الأول كتابه المشهور (نزهة المشتاق في احتراق الآفاق) الذي اعتمد في تأليفه على مشاهداته الخاصة وعلى ما تيسر له جمعه من المعلومات عن طريق التجار والربابنة وكتب الجغرافية والرحلات . ويعتبر كتابه من أهم المراجع الجغرافية القديمة وقد ألحقه بخارطة للعالم ما تزال تعتبر من أفضل الخرائط القديمة في دقتها وشمولها .

أما الصنف الثاني من الرحالة غير الجغرافيين فقد تنوعت أهدافهم وتعددت أسماؤهم في الأدب الجغرافي العربي . ولعل من أقدمهم التاجر سليمان السيرافي وهو تاجر من بلدة سيراف القديمة على الخليج العربي وكان هذا التاجر يتجر بالبضائع الهندية والصينية ويتنقل فيما بين البحر العربي وبحر الصين . ولم تصلنا معلوماته ومشاهداته بصورة مباشرة ، بل نقلها إلينا شخص آخر كان معنياً بجمع المعلومات عن بلدان الشرق الأقصى وهو أبو زيد السيرافي . وقد عرفت الرحلة باسم « رحلة التاجر سليمان » ، وهي من أوائل الرحلات التي تحدثت عن الملاحة في البحر

العربي والمحيط الهندي ، وصورت عادات سكان الهند وجزر الهند الشرقية والصين . وقد كانت مرجعاً مهماً لكثير من الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين .

وتأتي « رحلة أحمد بن فضلان » في المقدمة أيضاً في أدب الرحلات العربي بالنظر لاهمية معلوماتها . وهي رحلة مبكرة ذات طابع رسمي . فقد أوفد الخليفة العباسي للمقتدر بالله أحمد بن فضلان إلى مملكة البلغار التي كانت تحتل حوض الفولغا الادنى . فدون مشاهداته أثناء رحلته في رسالة صغيرة حفلت بالمعلومات الجديدة القيمة عن تلك البقاع النائية . ومن أهم المعلومات التي اشتملت عليها الاشارة إلى ظاهرة قصر النهار والليل في تلك العروض العليا ، وكذلك وصف عادات الصقالبة والروس لاسيما ما يتعلق باحتفالات الوفاة .

أما أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي فقد كان شاعراً قبل أن يكون رحالة ، لكنه أوفد في مهام رسمية عديدة يسّرت له التجوال في بلاد فارس وتركستان والهند والصين . فسجل ملاحظاته ومشاهداته عن تلك الأقطار ، واهتم بشكل خاص في وصف المدن ومياهها ومعادنها ، كما تحدث أيضاً عن عادات السكان ، وترجع أهمية رحلات أبي دلف مسعر إلى معلوماتها المبكرة عن الصين والهند ، وقد اقتبس بعض الجغرافيين والرحالة العرب شيئاً من معلوماتها .

وتعتبر « رحلة ابن جبير » من أبرز كتب الرحلات في الأدب الجغرافي العربي نظراً لدقة ملاحظاتها وصدق لهجتها وقيمة معلوماتها . وقد طاف ابن جبير في أقطار شمالي أفريقيا ومصر ، كما زار بلاد الشام والعراق وبعض جزر البحر المتوسط وسردينية بالاضافة إلى بلاد الحجاز التي كانت هدفه الأساسي كيما يؤدي فريضة الحج . وقد سجّل مذكراته

اليومية (بالتاريخين الهجري والميلادي) خلال تلك الرحلة . فصوّر فيها المعالم الجغرافية للبلدان التي زارها وتحدث عن أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وعرف أبو حامد الغرناطي بكتابه المعنون (تحفة الأصحاب ونخبة الأحباب) الذي اقتبس منه عدد من الجغرافيين العرب والمسلمين . وكان أبو حامد قد زار أقطار شمالي افريقيا وبلاد الشام والعراق وبعض جزر البحر المتوسط (صقلية) . لكن أهم أقسام رحلته هو الجزء المتعلق ببلاد الخزر وبلغار الفولغا . فقد اشتمل على بعض المعلومات الطريفة . وقد حفل الكتاب بذكر العجائب والغرائب والخرافات ، وبأحكام واهية مما أضعف قيمته العلمية .

وهناك عدد آخر من الرحالة الذين سجّلوا مشاهداتهم وملاحظاتهم أمثال ابن سعيد والهروي والتجاني والعبدري وغيرهم .

أما ابن بطوطة فيمكن القول أنه يأتي في مقدمة أولئك الرحالة جميعاً كما أشرنا ، فقد أمضى ما يقرب من نصف عمره وهو يتجول بين البلدان ويختزن في ذاكرته المشاهد والصور والاخبار . فقد غادر موطنه طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وعاد إليه وقد شارف على الخمسين . وقد أشار في بداية رحلته أنه كان يهدف إلى حج بيت الله الحرام ، لكن من الواضح أن رغبة قويـة في السفر وحب الاستطلاع كانت تخفق بين جوانحه ، فظلّ يطوف بين البلدان طيلة ربع قرن . وقد زار خلال رحلاته معظم أجزاء العالم القديم المعروف ـ عدا القسم الاوربي ـ مما حقق له تفوّقاً على جميع رحالة القرون الوسطى . ولم تتم تلك الرحلات عرضاً ، بل عن عزم وتصميم كما أشار إلى ذلك في ثنايا رحلته ، فقد كان يرغب في مشاهدة أكبر عدد ممكن من الاقطار .

وهكذا ساح في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، فزار نجد والحجاز والبحرين وعمان وحضرموت واليمن ، وطوّف في أرجاء العراق ومصر وبلاد الشام وأقطار المغرب العربي ، ساحل أفريقيا الشرقي . وتجول في بلاد فارس والاناضول وأواسط آسيا وتركستان ، والحوض الادنى لنهر الفولغا ، وكاد يشدّ الرحال إلى شمالي سيبريا لولا قلّة الجدوى وعظم المؤونة ، ثم اتجه إلى أقطار الشرق الاقصى فأقام في بلاد الهند زمناً ، ثم تجوّل بين جزر الساحل الجنوبي الغربي للهند ، ومكث ما ينيف على عام ونصف في جزر الملديف . ثم تنقل بين جزر الهند الشرقية ، وزار سرنديب والملايو . ثم رحل إلى جنوبي الصين ، وربما تقدم في جولته حتى شمالي الصين . ولما عاد إلى موطنه بعد غيبة قاربت الثلاثين عاماً حنّ إلى السفر ثانية فقام برحلة قصيرة إلى الاندلس ، ولم يكد يستقر في فاس بعض الوقت حتى عبر الصحراء الكبرى متجهاً إلى السودان الغربي في مهمة رسمية ، ولبث يتجول في تلك الانحاء لمدة عامين .

واستقرّ به المقام أخيراً في فاس عاصمة الدولة المرينية في كنف السلطان أبي عنان المريني . وراح يقص على الناس أخبار رحلاته الطويلة وما صادف خلالها من عجائب وغرائب وما عرف من الاشخاص . ومنذ البداية أثارت تلك الاخبار والحكايات الجدل بين سامعيها بين مصدّق ومكذّب ، ورانت الشكوك حول ما يروي من حكايات . وترجع تلك الشكوك إلى عاملين : الاول ، شمول رحلات ابن بطوطة أقطاراً قصيّة لم يكن معاصروه يعرفون شيئاً عن عادات أهلها وأنظمة حكمهم . والثاني ، ما تضمنته حكاياته من مبالغات وأوهام وشطحات الخيال ، لاسيما ما يتعلق بأخبار رجال الدين .

وقد امتدت غمامة الشك إلى العصور التالية ، فلقيت « رحلته » من الجغرافيين والرحالة المسلمين اهمالاً تاماً ، ولم يشيروا اليها في كتاباتهم باعتبارها لا تمت إلى المؤلفات الجديّة . ولم يظهر منها طيلة القرون التالية سوى نسخة مختصرة كتبها في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) شخص يدعى البيلوني واطلق عليها اسم (المنتقى في رحلة ابن بطوطة الطنجي الاندلسي) .

ويمكن القول أن أول طبعة ظهرت في البلاد العربية « للرحلة » هي تلك التي نشرت في منتصف جمادى الثانية عام ١٢٨٨ هـ ، وقد نقلت عن الطبعة الفرنسيه ، وطبعت في مطبعة وادي النيل وأشرف على تصحيحها أبو السعود . ثم انصرم ما يزيد على نصف قرن قبل أن تظهر « للرحلة » طبعات اخرى في مصر أيضاً . ثم توالت طبعاتها منذ نهاية الربع الاول من القرن العشرين في القاهرة وبيروت وبغداد . وقد نشر فؤاد افرام البستاني عام ١٩٢٧ مختصراً لها بثلاثة أجزاء في سلسلته المعروفة ، كما أصدرت وزارة المعارف المصريـة في أوائل الثلاثينات مهذباً لها في جزئين باشراف أحمد العوامري بك ومحمد نعمة جاد المولى بك وقررته لطلبة المدارس الثانوية . لكن دارسي التراث العربي والاسلامي من البحاثة العرب ظلوا ينظرون إلى « الرحلة » على أنها نوع من الادب الشعبي الاسطوري نظراً لازدحامها بالحكايات ذات الطابع الخرافي ، ولازمهم الاعتقاد بأنها لا تضم من المعلومات القيمة إلا النزر اليسير مما لا يبرر الاهتمام بها . ومنذ منتصف هذا القرن تغيّرت نظرة البحاثة العرب إليها وعكفوا على دراستها بعنايـة واهتمام ، وتوالت الدراسات المنظمة والابحاث الجدية عن ابن بطوطة ورحلته .

أما المستشرقون فقد كانوا اكثر اهتماماً بابن بطوطة ورحلته من

البحاثة العرب القدامى والمعاصرين . وقد بدأ اهتمامهم في وقت مبكر نسبياً ، وإن كان يعتبر متأخراً بالقياس إلى اهتمامهم بالجغرافيين العرب الآخرين امثال الادريسي وابي الفدا والبيروني وكان الرحّالان سيتزون Seetzen وبوركهارت Burchardt قد عثرا على نسخ من مختصر البيلوني للرحلة فحملاها إلى مكتبتي غوتا وكمبرج ، وبذلك يسرا للمستشرقين الاوربيين الاطلاع عليها . ونشر المستشرق كوزغارتن Kozegarten عام ١٧٨١ دراسة للرحلة ثم ترجم منها الى الفرنسية ثلاث مقتطفات احداها عن الرحلة الافريقية والثانية عن الرحلة الفارسية والثالثة عن الرحلة الملديفية . وقام تلميذه أبتز Aqtez بترجمة الجزء المتعلق بجولات ابن بطوطة في ساحل مليبار . ثم ترجم المستشرق الانكليزي لي Lee عام ١٨٢٩ مختصر البيلوني بكليته الى اللغة الانكليزية . كذلك نشر المستشرقان الانكليزيان دي سلان ودي لوريه فصولاً من الرحلة ونشراها في المجلة الآسيوية عام ١٨٤٣ ـ ١٨٤٧ .

أما اول طبعة كاملة لرحلة ابن بطوطة فقد تولاها المستشرقان الفرنسيان دفريمري Defremiery وسانغنتي Sanguinetti (١٨٥٣ـ١٨٥٨) وقد ظهرت بأربعة اجزاء مشفوعة بترجمة فرنسية . وكان الفرنسيون قد استطاعوا الحصول على عدة نسخ مخطوطة « للرحلة » عند فتحهم للجزائر فنقلوها الى المكتبة الأهلية في باريس . وبعد دراسة تلك المخطوطات ومقارنتها استطاع المستشرقان المذكوران نشر تلك الطبعة الكاملة (١) . وقد اعتمدت الطبعات العربية التي نشرت للرحلة فيما

---

(١) يقول الاستاذ محمود الشرقاوي في كتابه (رحلة مع ابن بطوطة) (صفحة) « أن المخطوطات المتوفرة للرحلة هي التالية :

أولا : مخطوطة مكتبة باريس الأهلية تحت رقم ٢٢٨٧ ـ ٢٢٩١ وهي التي اعتمد عليها =

بعد في القاهرة وبيروت على تلك الطبعة ، وما تزال تعتبر المرجع النهائي لرحلة ابن بطوطة (١) ، وإثر صدور تلك الطبعـــة كتب المستشرق الفرنسي رنان Renan دراسة مطولة عن « الرحلة » . وقام المستشرق الالماني مجيك Mzik عام ١٨١١ بترجمة اجزاء من الرحلة الى اللغـة الالمانية وأرفقها بالتعليقات والملاحظات .

ويمكن القول أن من أهم التراجم والتعليقات هي تلك التي نشرها المستشرق الانكليزي هاملتون جب عام Gibb ١٩٢٩ عن « الرحلة » وقد اشتملت على مختارات لها وعلى مقدمة وملاحظات ذات أهمية كبيرة . وقـد قام جب أيضاً بنشر ترجمة كاملة للرحلة مؤخراً ظهر منها بعض الأجزاء . كذلك ترجمت « الرحلة » إلى لغات اوربية اخرى ، فقد ترجمهـــا إيفان هربرك Herberk إلى اللغة الجيكية (١٩٦١) ، كما ترجمها غابريلي إلى اللغة الايطالية (١٩٦١) . كما تُعدُّ عنها في الوقت الحاضر ترجمات إلى اللغات الروسية والبولونيه والبرتغالية (٢) .

إن اقبال المستشرقين على دراسة رحلة ابن بطوطة وتمحيصها قد

= ديفريمري وسانغونتي .

ثانياً : مخطوطة بلدية مانشستر تحت رقم ٣١٩ وهي عبارة عن مختصر البيلوني .

ثالثاً : مخطوطة مكتبة جامعة القرويين بفاس تحت رقم ١٢٨٥ .

رابعاً : مخطوطة في مكتبة مدريد بأسبانيا .

(١) اعتمدت هذه الدراسة على طبعة المكتبة التجارية الكبرى لمصطفى محمد . وقد قارنا أجزاء منها بالطبعة الفرنسية فظهر أنها نسخة طبق الأصل منها سوى أخطاء مطبعية .

(٢) ظهرت ترجمات في اللغات الشرقية أيضاً لرحلة ابن بطوطة . فقد نشرت مؤخراً ترجمة موجزة لها باللغة اليابانية . وكانت « الرحلة » قد ترجمت إلى اللغة التركية أيضاً في نهاية القرن الماضي بقلم محمد شريف ، ونشر الكاتب التركي محمد جودت دراسة من الجزء المتعلق بالأناضول لاسيما عن تقاليد « الأخي » .

أثار لدى طائفة منهم شكوكاً في أجزاء منها ، لاسيما ما يتعلق بزيارته لبلاد الصين ولمدينة القسطنطينية . وقد انقسموا إلى فريقين ، أحدهما ينكر انكاراً تاماً حدوث هاتين الزيارتين ، والثاني يؤيد وقوعهما بحماس إلا أن كلا الفريقين بذل جهوداً مشكورة في تحقيق أسماء المواضع الجغرافية التي وردت في « الرحلة ». وكان جب Gibb ويول Yule أكثرهما عناية بهذا الموضوع . وقد أرفق جب ملاحظاته بخرائط جيدة .

أما دراستنا هذه فقد هدفت إلى تقييم « الرحلة » وصاحبها تقييماً موضوعياً جديداً ، وذلك مساهمة منها في خدمة تراثنا الحضاري . وقد اهتممنا بشكل خاص بالجانب الجغرافي من « الرحلة » ـ بشقيها الطبيعي والبشري ـ بالرغم من أن « الرحلة » ذات أهمية أكبر لدارسي التاريخ والانثروبولوجيا . وقد ضمّت هذه الدراسة أيضاً ملخصاً أميناً ودقيقاً للجوانب الجغرافية في الرحلة ليمكن الاسترشاد به والانتفاع من معلوماته عند الضرورة .

ولابد لنا أخيراً أن نؤكد بأن « رحلة ابن بطوطة » غنية بالمعلومات الجغرافية والانثروبولوجية والتاريخية ، بقدر ما هي مزدحمة بالحكايات الخرافية والمبالغات الخيالية ، وانها تحتاج إلى فحص صبور لاستخلاص معلوماتها القيّمة من بين ركام حكاياتها المهملة .

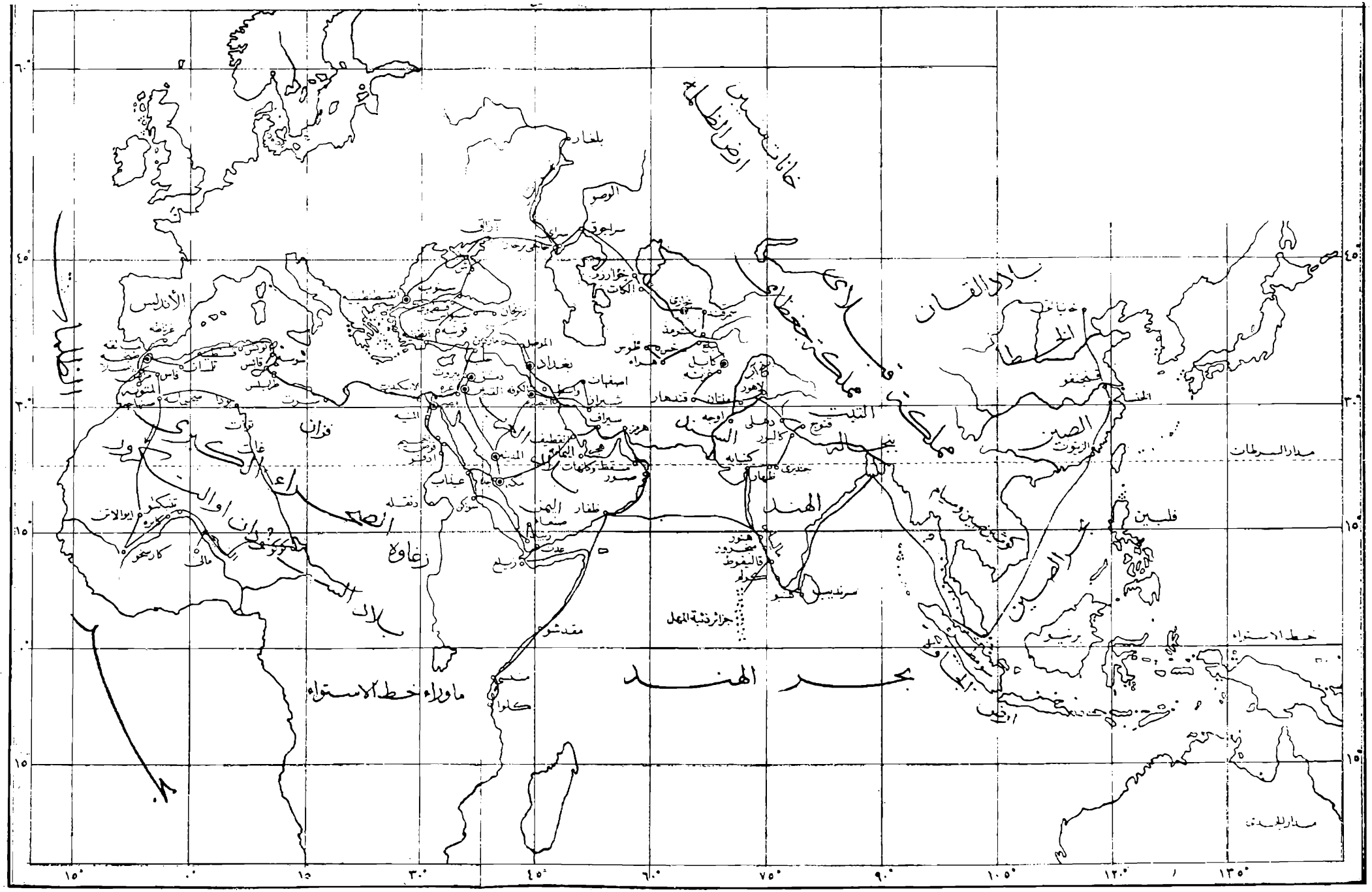

خارطة تمثل رحلات ابن بطوطة في العالم القديم (حققها الشيخ محمد فخر الدين)

الباب الاول

ابن بطوطة ومولاته

شخصية ابن بطوطة

ابن بطوطة (بتشديد الطاء أو تخفيفها) هو ابو عبد الله بن محمد ابن ابراهيم اللواتي الطنجي . ويبدو أن لقبه « اللواتي » مأخوذ من « لواته » وهي احدى قبائل البربر التي كانت تسكن منطقة « ايوا لاتن »(١) أما لقبه « الطنجي » فيرتبط بمولده بمدينة « طنجة » في السابع عشر من رجب عام ٧٠٣ هـ (شباط [فبراير] عام ١٣٠٤ م) . وقد عرف أيضاً في بلاد الشرق باسم « شمس الدين » .

ولقد شب في مدينة طنجة في محيط ديني حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره ، وتعلم شيئاً من علوم الدين والفقه ، لاسيما ما يتعلق بالفقه المالكي الذي يسود في بلدان شمالي أفريقيا . ولسنا نعرف شيئاً عن أسرته وحياته في تلك الفترة سوى لمحات خاطفة وردت في ثنايا « رحلته » تشير إلى اشتغال بعض افراد اسرته بالقضاء . ولم يخصص ابن بطوطة أحداً منهم سوى ابن عم له اسمه ابو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة التقى به أثناء رحلته الى الأندلس ، وكان يعمل قاضياً في بلدة « رندة » الاندلسية (٢) .

ومن المؤسف أنه تجنب الاشارة ـ ولو عرضاً ـ الى طفولته وصباه فلعل تلك الاشاراة كانت كفيلة بالكشف عن سر الرغبة الغريبة التي حملته على الاغتراب عن وطنه قرابة ربع قرن . وفي وسعنا أن ندرك على أية حال أنه لم يكن متعلقاً بأسرته ، فلقـــد سمع وهو في الغربة بنبأ وفاة أبيه من دون أن يعلق على النبأ بشيء (٣) . ولم يهزه كذلك

(١) «مهذب رحلة ابن بطوطة » لأحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٣ ص ١ (وتنتشر بطون قبيلة « لواتة » على طول ساحل افريقيا الشمالي وربما كان أصلها في ليبيا .

(٢) « الرحلة » ص ١٨٨ ج ١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٥ .

نبأ وفاة أمه لدى وصوله الى أرض الوطن ، ولم يزر قبرها في طنجة إلا بعد تقديم نفسه إلى السلطان أبي عنان بحضرته في فاس (١) أما تصديره « الرحلة » بقوله : (فحزمت أمري على هجر الأحبـاب من الاناث والذكور ، وفارقت وطني مفـارقة الطيور للوكور ، وكان والدي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصباً ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً) (٢) فاغلب الظن أنها اضافة من ابن جزي نفسه كاتب « الرحلة » كعهده في تزويق « الرحلة » بين الحين والآخر بالملح والاشعار والتعليقات العاطفية فلم يشر ابن بطوطة مطلقاً خـلال رحـلاته أنه فكر يوماً بأهله وذويه إلا في أعقاب عودته من رحلته الآسيوية والتقائه بأحد معارفه في دمشق أي بعد مضي حوالي عشرين عاماً على سفره . كذلك لا يمكن أن يهزّنا تفسيره لباعث عودته الى الوطن بعد رحلته الآسيوية الكبرى حينما يقول : (مع تذكار الأوطان والحنين الى الأهل والخلان والمحبة الى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان) (٣) إذ يتضح لنا في الوقف نفسه أن باعث عودته الحقيقي طمعه في كـرم السلطـان أبي عنان كما سيفصله فيما بعد .

ويبدو لنا أن تجنب ابن بطولة الحديث عن أسرته يدل على أنها لم تكن ذات مكانة اجتماعية أو دينيـة مرموقة وإلا لأفاض في الحديث عنها شأنه عند التعرض لشخص ذي مكانة دينية أو اجتماعية . بل ان ابن جزي نفسه لم يكن لديه من الأخبار ما ينورنا بها عن أسرة ابن بطوطة سوى ما رواه عن شخص اسمه أبو عبد الله الغرناطي حول مولد

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٨

ابن بطوطة بطنجة (١) . وأما ابن خلدون الذي كان معاصراً لابن بطوطة فقد كانت اشارته اليه تنم عن تجاهل لمكانته ، حيث قال عنه : (ورد على المغرب لعهد السلطان ابي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ثم انقلب إلى المغرب . . الخ) (٢) .

فابن بطوطة اذن كان شخصاً من سائر الناس ، ولم يكن له تطلعات علمية أو مطامح سياسية ، بل يكاد يكون نكرة فى بلده المغرب قبل أن يعود من رحلته الكبرى نحو الشرق . والظاهر أنه لم يكن ولوعاً بالتجارة فلم يشر في أي جزء من « رحلته » إلى اشتغاله بالتجارة بالرغم من أنه كان يلتقي اثناء تجواله بأصناف من التجار في مختلف البلاد الاسلامية وكان يدبر أموره بما كان ينال من خلع وعطايا السلاطين والامراء ، ولم نعرف عنه أنه مارس عملاً معيناً خلال السنين الطوال التي أمضاها في الغربة ، سوى بضع سنوات تولى فيها القضاء فى بلاط السلطان محمد شاه ملك الهند وفي بعض جزر ذيبة المهل .

إذن ماهي دوافع ابن بطوطة وراء تجواله الطويل بين البلدان ؟ !

لقد ذكر ابن بطوطة أنه غادر مسقط رأسه طنجة في يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام خمس وعشرين وسبعمائة ، معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول (ص) (الباعث على النفس شديد العزائم وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم) (٣) . وكان سنه يومئذ ثنتين وعشرين سنة . ومما لا شك فيه أن رغبة ابن بطوطة

---

(١) المصدر السابق ص ٥ .

(٢) مقدمة العلامة ابن خلدون ، ص ١٨١ ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى .

(٣) « الرحلة » ص ٥ ج ١ .

في أداء فريضة الحج وهو في ذلك السن المبكر تعتبر أمراً غير اعتيادي يثير الانتباه ، فلم يكن من المألوف في عصر يتعذر فيه السفر أن يفكر الرجال في عنفوان شبابهم بأداء فريضة الحج . ويمكن أن نفسر مبعث تلك الرغبة بنزعة دينية قوية أو برغبة متأججة في المغامرة وحب السفر ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا قلنا أنه كان أسير هاتين العاطفتين معاً .

فمنذ بداية رحلة الحج واجه ابن بطوطة وجماعته مصاعب جمة في اختراق الطريق البري بين المغرب وتونس . فلقد كانت القبائل البدوية تسيطر على هذا الطريق سيطرة تامة ، فكان السفر خارج مدن المغرب العربي مغامرة محفوفة بالمخاطر تعرض المسافر للنهب والسلب والقتل وكان المفروض ان تتجه قافلة الحجاج المغاربة الى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب جنوبي مصر ، لكنها اضطرت الى العودة الى القاهرة بسبب حالة الحرب التي قامت بين سلطان قبائل البجة والاتراك مما ألغى امكانية السفر عن طريق ذلك الميناء . وكان بوسع ابن بطوطه بعد أن استبعد هذا الظرف ان يهجر فكرة الحج وأن يمكث في القاهرة ، لكنه تشبث برغبته ورافق الركب الى الحجاز عن طريق بلاد الشام بالرغم مما يكتنف ذلك الطريق من مشقة ونصب . وإذا كان الباعث على رحلته أداء فريضة الحج فحسب فقد كان ينبغي عليه أن يقفل راجعاً الى بلده بعد أن أشبع نزعته الدينية في حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول (ص) لكنه بدلاً من ذلك انتهز الفرصة التي سنحت له فرافق ركب الحج العراقي ليتسنى له زيارة العراق . ويدل هذا العمل على المغامرة وحب الاستطلاع المتمكنين من نفسه ، لا سيما وقد شهد ما تعرضت له قافلة الحج من مخاطر اثناء سفرها بين بلدان المغرب العربي وفي بلاد الشام وبما أن عاطفته الدينية كانت مشبوبة أبداً ، وكان دائم الرغبة في

إشباعها ، لذلك نراه يعود إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مرة ثانية ولم يكن قد مضى على حجته الأولى عام واحد . ثم كرر العودة مرة ثالثة بعد انصرام عام آخر تجول اثناءه بين موانىء جنوب الجزيرة العربية وسواحل افريقيا الشرقية وبلدان الخليج العربي . وأقام هذا الحين بضعة أعوام فى مكة يدرس العلوم الدينية . ثم أدى فريضة الحج للمرة الرابعة بعد عودته الى الوطن من رحلته الآسيوية الكبرى .

إن نزعة ابن بطوطة الدينية تعتبر من أهم العوامل التي ساهمت فى تكييف « الرحلة » ، وهي كفيلة بتفسير كثير من الاستطرادات غير الاعتيادية فيها . فقد حفلت « الرحلة » بأنباء الشيوخ والأولياء ورجال الدين وحكاياتهم ، حتى لكأن أخبارهم كانت هدفه الأول . وكان يروي كراماتهم بايمان حار واعتقاد جازم بالرغم من أن غالبيتها تبدو اسطورية تماماً وقد وقر فى ذهنه - لفرط ما لقي من رجال الدين والشيوخ والدراويش ولكثرة ما زار من مساجد وجوامع وزوايا - أنه نفسة شخصية دينية خطيرة وأنه ذو حظوة دينية خاصة .

ولعله كان يريد عن قصد - برواية أمثال تلك الحكايات - أن يوحي لسامعيه أنه شخصية دينية مهمة .

فكان يروي لنا كيف يستقبله الشيوخ والأولياء والقضاة فى شتى الأقطار الاسلامية باهتمام وحفاوة بالغة ومن الغريب أن يلقى مثل تلك الحفاوة قبل أن يتم حجته الأولى وقبل أن يتمرس في علوم الدين فقد روى لنا مثلاً قصة لقائه بأحد رجال الدين الكبار المسمى الشيخ أبي عبد الله المرشدي أثناء مروره بمصر فى بداية رحلة الحج الأولى وكان ما يزال في الثانية والعشرين في عمره . فقد استقبله هذا الشيخ بحفاوة عظيمة ، ولما حانت صلاة العصر قدمه للصلاة إماماً ، ثم كان

يقدمه اماماً لكل ما حضر في صلاة طيلة مدة اقامته .

وكان أحد الامراء في زيارة لذلك الشيخ ، إلا انه كان يقدم ابن بطوطة عليه ، ولما أراد النوم قال له الشيخ : اصعد الى سطح الزاوية فنم هنالك . وكان الفصل قيظاً . فحاول ابن بطوطة أن يقدم الأمير لكنه أبى ذلك ورد عليه : (وما منا إلا له مقام معروف) (١) .

ولقد أوحت لابن بطوطة نزعته الدينية ان تطوافه الطويل بين البلدان نوع من الفرض الديني مكتوب عليه ، ألم يؤكد له ذلك شيخ من أولياء الله الصالحين ؟ ! وقد قص علينا قصة لقائه بالامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج وذلك أثناء اقامته بالاسكندرية فقد دخل عليه يوماً فقال له : أراك تحب السياحة والجولان في البلاد .

فأجابه ابن بطوطة : نعم اني أحب ذلك .

فقال له الشيخ : لابد لك ان شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكريا بالسند ، وأخي برهان الدين بالصين ، فاذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام .

وقد علق ابن بطوطة على هذه الحكاية قائلاً : فعجبت من قوله وألقي في روعي التوجه الى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه (٢) .

وفي موضع آخر روى كيف حلم ذات مرة حلماً غريباً هو يمضي ليلته في زاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي - أثناء رحلته الاولى - فلما قص على الشيخ حلمه قال له : سوف تحج وتزور قبر النبي(ص) وتجول في

---

(١) « الرحلة » ص ١٥ ج ٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١١

بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها مدة طويلة ، وستلقى دلشاد الهندي ويخلصك فى شدة تقع فيها (١) .

هكذا ساقت نزعة ابن بطوطة الدينية صاحبها الى الجري وراء رجال الدين فى كل بلد حل فيه والى جمع الحكايات الغريبة عنهم ، وقد استسلم لتصديق تلك الحكايات استسلاماً مطلقاً .

بل لقد اختلطت فى ذاكرته أحياناً الحقيقة بالخيال ، فحسب أنه نفسه كان شاهداً لبعض تلك الحكايات .

ولعل من أبرز الامثلة على هذا الوهم حكاية « الفرجية » التي رواها على النحو التالي :

ولما كان يوم دخولي الى الشيخ - وهو الشيخ جلال الدين التبريزي في الهند - رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتني وقلت في نفسي : ليت الشيخ أعطانيها . فلما دخلت عليه للوداع قام الى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية في رأسه ، ولبس مرقعة ، فأخبرني الفقراء ان الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية وإنما لبسها عند قدومي وأنه قال لهم ان هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها لأخينا برهان الدين الصاغرجي وهي له وبر سمه كانت . فلما أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم : لقد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم . وانصرفت عن الشيخ .

فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين وانتهيت الى الى مدينة الخنسا فافترق مني اصحابي لكثرة الزحام ، وكانت الفرجية علي فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره علي

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ .

فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ، ولم يفارقني حتى وصلت دار السلطان معه . فأردت الانفصال فمنعني وأدخلني على السلطان فسألني عن سلاطين الاسلام فأجبته . ونظر الى الفرجية فاستحسنها . فقال لي الوزير : جردها ، فلم يمكنني خلاف ذلك . فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهزة ونفقة . وتغير خاطري لذلك . ثم ذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك . ولما كان بالسنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها ، فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي فقال لي : لم تقلبها ، انت تعرفها . فقلت : نعم ، هي التي أخذها مني سلطان الخنا . فقال لي : هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي وكتب إليّ أن الفرجية تصلك على يد فلان . ثم أخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق الشيخ وأعلمته بأول الحكاية فقال لي : أخي جلال الدين اكبر من ذلك كله ، وهو يتصرف في الكون وقد انتقل الى رحمة الله تعالى) (١) . ومن الأمثلة الأخرى أيضاً حكاية الزاهد الصيني المعمر التي رواها على النحو التالي :

(ولما كنت بصين كلان سمعت ان بها شيخاً كبيراً وقد أناف على مائتي سنة وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر البناء مع قوته التامة ، وأنه ساكن بغار في خارجها يتعبد فيه . فتوجهت الى الغار فرأيته على بابه وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له

(١) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

وقد علق الاستاذ جب Gibb على هذه الحكاية في كتابه « رحلات ابن بطوطة » بقوله : ان المستشرق yule يعتقد بأن ابن بطوطة قد زار منطقة سيلهت silhet في الهند التي يوجد فيها في الوقت الحاضر قبر الشاه جلال الدين (او الشيخ جلال الدين) والذي مايزال موضعاً للتقديس ص ٣٦٦ .

فسلمت عليه فأمسك يدي وشمها وقال للترجمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر . ثم قال لقـــد رأيت عجباً . أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة [وهي احدى جزر الهند الشرقية] والرجل الذي كان بين الاصنام وأعطاك عشرة دنانير ذهباً ؟ فقلت نعم . فقال : أنا هو . فقبلت يده . وفكر ساعة ثم دخل الغار ولم يخرج الينا وكان ظهر منه الندم على ما تكلم به . فتجهمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعـه جملة بواشت من الكاغد فقال : هذه ضيافتكم فانصرفوا . فقلنا له : ننظر الرجل . فقال : لو أقمتم عشر سنين لم تروه ، فان عادته إذا أطلع أحداً على سر من أسراره لا يراه بعده . ولا تحسب انه غاب عنك بل هوحاضر معك . فعجبت من ذلك وانصرفت) (١) .

وهناك مثال ثالث وهو قصة الشجرة المقدسة . فقد ذكر أنه حينما كان في احدى جزر ذيبة المهل شاهد بجوار أحد الجوامع شجرة خضراء تشبه أوراقها أوراق التين وقد سورت وأقيم عندها محراب .

وقد أخبرنا أنه في كل خريف تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ويكون مكتوباً فيها بقلم القدرة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) (٢) .

قد يبادر البعض الى اتهام ابن بطوطة بالكذب المتعمد في رواية مثل تلك الروايات ، لكننا نظلم الرجل لو ألصقنا به هـذه التهمة . ويذهب بنا الاعتقاد الى الأخـذ برأي العلامة كرانشكوفسكي في تبرير

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥

(٢) المصدر السابق ص ١١٢

تلك الحكايات بأنها أقرب ما يمكن أن يسمى بالانخداع النفسي (١) . وعلى ضوء هذا التعليل يمكن أن نفسر أغلب الحكايات التي يرويها ابن بطوطة عن كرامات الأولياء ورجال الدين والتي تبلغ في بعض الحالات درجة الخرافة المحضة . ولكننا لا يمكن في الوقت ذاته أن نحسن به الظن دائماً ونعتبر حكاياته الدينية الاسطورية جميعها من باب الانخداع النفسي فلا شك أن العديد منها قد لُفّق بتعمّد . ولم يكن تصرفه هذا مخالفاً لروح العصر الذي عاش فيه ، وهو العصر الذي يمثل بداية التدهور الفكري في العالم الاسلامي فقد شاع في ذلك العصر (القرن التاسع الهجري) الكتابات التي تحفل بذكر العجائب والغرائب والخوارق ، لا سيما ما يمت منها لرجال الدين ، وكان الناس يتقبلون تلك الكتابات باعتبارها وقائع صحيحة . لذلك فان حكايات ابن بطوطة الدينية لم تكن ظاهرة فردية منبثقة من حماسه الديني وثقافته الضحلة فحسب ، بل كانت تمثل التيار السائد في العالم الاسلامي يومذاك ، وهو التيار الذي غلبت فيه الثقافة الدينية السطحية جوانب المعرفة الأخرى . وكانت ثقافة ابن بطوطة نفسه خير مثال لذلك التيار . فهو لم يكن رحالة فحسب ، بل كان دارساً للعلوم الدينية أيضاً . وقد حدثنا في إحدى مواضع « رحلته » بصورة مفصلة عن دراسته على أيدي علماء دمشق وعدد لنا أسماء اولئك العلماء (٢) . وحدثنا أيضاً عن مجاورته في مكة المكرمة لبضع سنين ودرس أثناءها العلوم الدينية (٣) .

وقد كشف لنا أيضاً في ثنايا « رحلته » عن اطلاعاته في العلوم

---

(١) « تاريخ الأدب العربي » لأغناطيوس كراتشكو فسكي ، ج١ ، ص ٤٢٨ ترجمة صلاح الدين هاشم ، منشورات جامعة الدول العربية .

(٢) « الرحلة » ، ج ١ ، ص ٦٥ - ٦٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٢ .

الدينية . فقد علق مثلاً على زيارته لمدينة نسف قائلاً : (وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفي مؤلف كتاب « المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة ») (١) .

وعلق أيضاً على زيارته لمدينة ترمذ قائلاً : (وهي التي ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي مؤلف « الجامع الكبير في السنن ») (٢) .

كذلك حدثنا أنه شاهد أثناء مروره بمدينة بخارى وزيارته لمقبرتها قبر الامام العالم عبد الله البخاري وقرأ أسماء مؤلفاته منقوشة على قبره كما قرأ أيضاً على قبور علماء بخارى الآخرين أسماء تصانيفهم منقوشة على قبورهم ، وأنه قد سجل الكثير من أسماء تلك التصانيف إلا أنها ضاعت منه في جملة ما ضاع حينما سلبه كفار الهند فى البحر (٣) .

وهكذا فان احتفال ابن بطوطة برجال الدين وحكاياتهم لم تكن لمجرد التبجح والمباهاة وإرضاء السامعين فحسب ، بل كانت ناجمة أيضاً عن اهتماماته الاصلية بأمور الدين المنبثقة من نزعته الدينية القوية .

والواقع أن عاطفة ابن بطوطة الدينية لم تكن تتجلى في رواية تلك الحكايات ، وفي لقاء الشيوخ والأولياء والزهاد وزيارة الجوامع والمساجد والزوايا فحسب ، بل كانت تبرز أيضاً في تعليقاته التي يرسلها عفو الخاطر بين الحين والحين وهو يروي مشاهداته . فقد ذكر مثلاً في سياق الحديث عن زيارته لشمال الصين أن خاطره كان شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها حتى كان يلازم المنزل فلا يخرج إلا للضرورة ؛ بالرغم

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

مما في البلاد من حسن وجمال . وكان إذا لقي في الطريق مسلماً فكأنه لقي أهله واقاربه (١)

وروى في موضع آخر كيف غضب لرأيته طبيباً يهودياً يقدم على المسلمين في بلاط أحد سلاطين بلاد الأناضول ، وكيف انتهره وشتمه لانه يجلس في موضع فوق قراء القرآن ، مما حدا باليهودي أن يغادر مجلس السلطان غاضباً (٢) .

وذكر في موضع آخر أنه حينما وصل الى مدينة الكفار على البحر الأسود وسمع لأول مرة نواقيس الكنائس . هاله ذلك وأمر أصحابه أن يصعدوا الى الصومعة ويقرؤا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ، بالرغم مما في ذلك العمل من خطر على حياتهم (٣) .

ويكاد يبلغ حماسه الديني حد التعصب الأعمى لمذهب معين ـ وهو المذهب المالكي ـ ويتجلى هذا التعصب عند حديثه عن الشيعة مثلاً ـ الذين يأبى إلا أن يسميهم الروافض ـ فهو يتحدث عنهم وكأنهم طائفة من الكفرة ، بالرغم من أنه قد خالطهم وزار أماكنهم المقدسة في كربلاء والنجف ، ولم يشهد منهم ما ينكره الدين ـ على حد تعبيره . بل إنه يصف أهل النجف بالشجاعة والكرم وحماية الجار ، وقد صحبهم في الأسفار فحمد صحبتهم (٤) . ولنه يصفهم في موضع آخر بالأرجاس) (٥) وقد روى لنا أنه في أثناء سفره في جنوب العراق ووصوله الى بلدة

---

(١) « الرحلة » ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ج ٢ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٩٣ . ج١

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٣

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٠

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

بئر ملاحة بالقرب من مدينة الحلة لم يدخل البلاد بالرغم من أنها حسنة تقع بين حدائق النخل بل نزل خارجها وكره الدخول إليها لأن أهلها روافض (١) .

تبين لنا إذن أن النزعة الدينية القوية لدى ابن بطوطة قد لعبت دوراً هاماً فى تكييف « رحلته » . أما الصفة الأخرى التي ساهمت بالمثل فى خلق « الرحلة » فهي روح المغامرة وحب السفر ، إضافة إلى الرغبة فى التكسب . ولا يحتاج اثبات قوة هذه الصفة فى ابن بطوطة الى عناء كبير . فما دام لم يكن يهدف من وراء رحلاته الطويلة المحفوفة بالاخطار الى تجارة معينة شأن الكثير فى تجار المسلمين الذين كانوا يطوفون ارجاء العالم القديم ما بين تركستان والصين والهند وبلاد فارس وشرقي افريقيا ، ومادام لم يكن يقصد الى غرض علمي شأنه شأن المسعودي والمقدسي واليعقوبي وغيرهم الذين كانوا يطوفون فى اقطار المسلمين ليجمعوا الحقائق العلمية عن تلك البلدان ، فلابد إذن أن يكون مدفوعاً بدافع المغامرة وحب الاستطلاع كي يتحمل كل ذلك العناء . وهو بذلك يمثل طائفة من البشر الذين تستهويهم الاسفار وتجتذبهم المغامرات (٢) .

ولابد لنا أن نقرر هنا أن الظروف التي كانت تسود العالم الاسلامي يومذاك قد ساعدت ابن بطوطة فى رحلاته وتنقلاته الواسعة ، فلقد كان هناك نوع من الاستقرار السياسي بعد أن سيطر المغول فى دولة المشرق الاسلامي ودخل معظم الغزاة التيار فى دين الاسلام (٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٢) « الجغرافيون العرب » المصطفى الشهابي ، ص ٩٩ سلسلة « اقرأ » ، العدد ٢٣٠ .

(٣) « جهود المسلمين فى الجغرافية » النفيس احمد ، ترجمة فتحي عثمان ، منشورات دار القلم بالقاهرة (ص ١٠٢ .

فكان المسلم يتنقل بين الدول على اختلاف حكامها ومللها دون أن تعوق تنقله حدود أو قيود وكأنه يتنقل داخل بلده ، ولم يكن يشعر بالغربة فى أي قطر من الاقطار (١) . وكانت هناك تسهيلات واضحة للمسافرين بين أقطار العالم الاسلامي ، إذ أن الأغنياء والميسورين كانوا يقفون الاوقاف للانفاق على الغرباء من المسافرين المسلمين ، وكانوا يتلقونهم بالترحاب (٢) . وفضلاً عن ذلك كله فقد كانت قوافل الحجاج تقطع أنحاء العالم الاسلامي طولاً وعرضاً . وكانت قوافل التجار المسلمين تنتقل بين بلدان الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف من حدود الهند شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً الى صحاري افريقيا جنوباً .

كل هذه الظروف الملائمة قد جعلت التجوال فى أقطار العالم الاسلامي أمراً غير عسير . ثم أن ابن بطوطة ـ كما يبدو فى تضاعيف « رحلته » كان متمتعاً بذلك النمط في حياة التجوال والسفر ، بالرغم مما يكتنفها من أخطار ومشقات . وقد كان يمارس حياة طبيعية طوال الوقت فيتزوج ويطلق ويحصل على الأموال والخلع ويستقبل بالترحاب حيثما أقام . فما كاد يغادر موطنه حتى تزوج فتاة مغربية من تونس ، ثم طلقها وتزوج بنتاً لبعض طلبة فاس .

وتزوج مرة ثالثة في بلاد الشام ، ورابعة في الهند ، كما تزوج في جزر الملديف وفى جزر الهند الشرقية . فكان له أبناء فى الشام والهند وجزر ذيبة المهل .

ولم يكن يلذ له السفر إن لم يصحبه عدد من جواريه . ومما لاشك

---

(١) « الرحالة العرب » ، ص ١٢٤ .

(٢) « ابن بطوطة فى العالم الاسلامي » للدكتور ابراهيم العدوي ، سلسلة اقرأ ، العدد ١٤٤ ص ٩ .

فيه أن توفر الضروريات والكماليات له أثناء سفره كان عاملاً مشجعاً له على مواصلة رحلاته ، وإضافة الى ما كان يكسبه من أموال طائلة حسب ادعائه .

وهناك صفة ثالثة ساهمت ايضاً في تكييف « الرحلة » وهي صفة المبالغة . وإذا سلمنا جدلاً بأن صفة المبالغة ملازمة للرحالة على اختلاف مللهم ، حتى لقد شاع في أوربا المثل القائل (حكاية رحالة) إلا أن مبالغات ابن بطوطة قد فاقت ما أورده غيره من الرحالة المسلمين ، لا سيما تلك المبالغات المتعلقة بشخصه ، حتى لقد باتت هذه الصفة سمة بارزة فى « رحلته » . وتبلغ تلك « المبالغة » درجة المباهاة المفرطة بسرد أسماء عدد هائل ممن لقيهم من الأمراء والسلاطين وعلماء الدين وما قوبل به من حفاوة بالغة وكرم عظيم . فهو يصف لنا بالتفصيل كيف كان يستقبل بحفاوة عظيمة أثناء تنقله بين مدن بلاد الأناضول ، وكيف كان ينافس « الأُخيّ » في الحظو بشرف ضيافته منافسة قد تبلغ حد الاقتتال (١) . وهو يصور لنا ما لقيه من كرم الضيافة والحظوة فى بلاط السلطان محمد أوزبك خان سلطان تركستان ، وكيف وافق السلطان على مصاحبته لزوجته الخاتون بيلون ابنة ملك الروم لدى زيارتها لابيها في القسطنطينية وقد وصله بألف وخمسمائة دينار وخلع وأفراس كثيرة . وكذلك فعلت الخواتين زوجاته حتى اجتمع له من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور الشيء الكثير (٢) .

أما حياته في بلاط السلطان محمدشاه طغلق ملك الهند ـ والذي

---

(١) « الرحلة » ، ج١ ، ص ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

أمضى فية مايزيد على ثمان سنوات - فقد كانت نعيماً موصولا في المال والجاه ويكفينا قوله عن هذا الملك : (وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيداً . واعلم أن بعض مآثره من ذلك لايسع فى عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته واخذت بحظ وافر منه » (١) .

وقد حدثنا أيضاً بالتفصيل عن المحاولات التي بذلها وزير احدى جزر الملديف لاقناعه بتولي القضاء في تلك الجزيرة . وكيف تزوج احدى قريبات ذلك الوزير وأحبها حباً جماً وعاش معها بسعادة وهناء ما يزيد على عام ونصف .

وروى لنا كذلك في مواضع عديدة فى « رحلته » المخاطر المهلكة التي تعرض لها خلال جولاته الطويلة والتي أودت بحياة رفاقه فى غالب الاحيان ، لكنـــه خرج منها سالماً معافى . وقد حملت أمثال تلك بعض الكتاب الى الاعتقاد بأنه قد رسم لنفسه شخصية شبيهة بشخصية « السندبـاد » . فالقوافل تنهب والمراكب تغرق والاشخاص يقتلون ، لكنة يخرج من كل تلك المغامرات سالماً غانماً وكأنه يـافر بحراسة ملك أمين (٢) .

أما عن لقاءاته بكبار رجال الدين والأولياء والدراويش فلا يحصرها العد ، وتزدحم « الرحلة » بأسماء المئات منهم .

أما الجانب الآخر في المبالغات ، وهي التي تتعلق بما شاهده من

---

(١) « الرحلة » ج ٢ ص ٣٤ - ٣٥ .

(2) sharaf . A . T . ' A short history of geograyhical dis covery , Alexandria 1963 ' p . 140 .

خوارق الطبيعة ، فقـــد كانت على نطاق محدود عموماً ـ ولعل ابرزها حكاية طير الرخ . والواقع ان ابن بطوطة لم يدّع مشاهدة هذا الطير ، بل ذكر أنهم قد شاهدوا عند الفجر جبلاً عظيماً في البحر عند هبوب العاصفة ، وحينما سكنت الريح رأوا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر . فقال البحارة إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرخ . وعقب ابن بطوطة على هذا الكلام بقوله : (ولكن ريحاً طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته) (١) . فهو لم يؤكد إذن تأكيداً قاطعاً رؤيته لهذا الطير الخرافي ولم يستعبد الباحثون مشاهدته حقيقة اتلك الظاهرة ، وقد فسرها البعض بأنها ربما كانت إعصاراً بحرياً ، (٢) ، كما فسرها آخرون بأنها ربما كانت جزيرة أصابها هبوط أو انكسار فاختفت تحت المياه (٣) .

ومما ذكره ابن بطوطة ايضاً في المشاهدة غير المألوفة المرأة ذات الثدي الواحد التي رآها في احدى جزر ذيبة المهل (٤) . وقد تفسر هذه الظاهرة بأنها نوع من شذوذ الطبيعة . لكن بعض الكتاب ذهب الى القول بأن تلك الحكاية ما هي إلا قصة خرافية عن نساء مسترجلات تبتر الواحدة منهن ثديها لتكون إلفاً للطعـان وأقدر على الرمي بالقوس (٥) .

ومن المشاهد غير الواقعية أيضاً مشهد السمكة التي رآها في مدينة

---

(١) « الرحلة » ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

(٢) «حديث السندباد القديم» لحسين فوزي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٣ ، ص ٦٨ .

(3) Incicloepidia , Britanica ' Ibn , Battuta .

(٤) « الرحلة » ج٢ ، ص ١٣٤ .

(٥) « رحلة ابن بطوطة » ، للشرقاوي ، ص ٣٢٩

هرمز مطروحة عند باب الجامع . فقد كان رأسها كأنه رابية وعيناها كأنهما بابان فترى الناس يدخلون في احداها ويخرجون من الأخرى (١)

وذكر ابن بطوطة أيضاً أنه شاهد في أحدى قلاع الهند فئراناً يبلغ حجمها حجم القطط . كذلك شاهد في مدينة الأحقاف نوعاً ضخماً من الموز وزنت حبة أمامه وبحضوره فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية (٢) .

ولعل أشد مبالغاته إثارة لشكوك معاصريه هي تلك التي تتعلق بوصف أبهة السلطان محمد شاه ملك الهند . فقد وصف مثلاً احتفالات الأعياد في بلاد محمد شاه على النحو التالي :

(وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان الى الملوك والخواص وأرباب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلع التي تعمهم جميعاً ، فاذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلا لايركبها أحد إنما هي مختصة بركوب السلطان ، وترفع عليها ستة عشر شطراً (متراً) من الحرير مرصعة بالجوهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص ، وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجوهر . ويركب السلطان فيلا منها وترفع أمامه الغاشية ، وهي ستارة سرجه وتكون مرصعة بأنفس الجوهر . ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجوهر . ويمشي بين يديه أيضاً النقباء وهم نحو ثلثمائة ، وعلى رأس كل واحد منهم اقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مقرعة نصابها ذهب . ويركب قاضي القضاة صدر الجهات كمال الدين الغزنوي وقاضي القضاة صدر الجهات

---

(٢) « الرحلة » ، ج ٢ ، ص ١٠٥

(٣) « الرحلة » ج ١ ، ص ١٦٦

ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على قدره ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون . ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله وأعلامه . . . ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة وتضرب البارگة على المشور كله وهي شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة تحفها القباب من كل ناحية ، ويصنع به اشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور . ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة ، وينصب السرير الاعظم في صدر المشور وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب وتجعل فوق الرتبة ، ويرفع الشطر المرصع بالجواهر فوق رأس السلطان) (١) .

ووصف أيضاً الاحتفالات التي كانت تقام لمحمد شاه عند عودته من السفر الى حاضرته دلهي على النحو التالي :

« وإذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ، ورفعت على ستة عشر فيلاً منها ستة عشر شطراً منها مزركش ومنها مرصع . وحملت أمامه الفاشية وهي الستارة المرصعة بالجوهر النفيس . وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بثياب الحرير ويكون في كل طبقة الجواري المغنيات عليهن أجمل لباس واحسن حلية ومنهن رواقص . ويحصل فى وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٧ - ٣٩

الجلاب محلولاً بالماء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدي أو غريب ، وكل من يشرب منه يعطى التنبول والفوفل ، ويكون مابين القباب مفروشاً بثياب الحرير يطأ عليها موكب السلطان وتزين حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ، ويمشي أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف ، وتكون الافواج والعساكر خلفه . ورأيته من بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعّادات الصغار على الفيلة ترمي بالدنانير والدراهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله الى المدينة حتى وصل الى قصره » (١) .

« الرحلة » إذن حافلة بالمبالغات من شتى النماذج ، وقد يستند الكثير منها إلى أسس مكينة من الواقع ، لكن الخيال يلعب في تزويقها دوراً كبيراً .

ولقد قادته صفة « المبالغة » إلى نوع من الادعاء يقرب من المباهاة الرخيصة . فقد ردد على أسماعنا أكثر من مرة ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ أنه أعظم رحالة في عصره . ولم يردد هذا القول عفو الخاطر بل بقصد وتعمد . قال في موضع من « رحلته » : (فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الارض وبلغت في ذلك مالم يبلغه غيري فيما أعلم) (٢) .

وقال في موضع آخر : (لقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري وهو من الصالحين ، جال الأرض ولم يدخل الصين ولا سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان ، وقد زدت عليه بدخولي

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠

(٢) « الرحلة » ج ١ ، ص ١١٨

هذه الاقاليم (١) .

وقال في موضع ثالث : (ولما دخلت عليه - على الشيخ جلال الدين التبريزي - قام الي وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري فأخبرته ، فقال لي : أنت مسافر العرب . فقال من حضر من أصحابه : والعجم يا سيدنا) (٢) .

ونحن بالطبع لا نريد أن نناقش هذا الادعاء . فابن بطوطة بالطبع من اعظم الرحالين في زمنه . فلم يسبق لرحالة آخر في عصره - عربياً كان أم افرنجياً - أن زار كل تلك الاصقاع وقطع كل تلك المسافات ولقد قدر البعض ما قطعه من المسافات بحوالي ٧٥ ، ٠٠٠ ميلا ، (٣) كما قدرها آخرون بحوالي ١٢٠ ، ٠٠٠ ميل (٤) . ولكن ما يهمنا من هذا الادعاء هو ماقد يجره من شك في صدق صاحبه . والظاهر أنه كان يطمع بنيل لقب (رحالة العصر) . ولابد أن نعترف هنا بأن إبن بطوطة لم يكن شخصاً ساذجاً يروي للناس ماشاهده من عجائب وغرائب حسب ما تتوارد على ذهنه ولا هدف له سوى تسلية سامعيه وابهارهم بمشاهداته ونيل اعجابهم وتقديرهم فحسب ، بل كان مغامراً يهدف إلى الكسب والحظوة . وقد علمته تجاربه المستمدة من زياراته لمختلف بلاطات الملوك والسلاطين كيف يحقق مراميه . ويظهر أنه شاء أن يقيم لنفسه مكانة مرموقة وحظوة خاصة في بلاط السلطان أبي عنان عند عودته الى وطنه المغرب . وقد نجح بحكاياته في تحقيق هذا الهدف وفي

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٧

(٢) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٤٩

(٣) الانسكلوبيديا البريطانية ، ج ١٢

(٤) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢١

بث الدعاية لنفسه . فترى كاتب السلطان محمد ابن جزي الكلبي ـ مدوّن رحلته ـ يقول عنه في مقدماته : (وكان ممن وفد على بابها السامي ـ باب السلطان أبي عنان ـ وتعدى أوشال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذي طاف الارض معتبراً ، وطوى الامصار مختبراً وباحث فرق الامم وسبرسير العرب والعجم) (١) .

ومما يدل على نجاح ابن بطوطة في هدفه أنه استطاع أن يقنع السلطان بأهميته كرحالة عظيم فأمره : (بأن يملي ماشاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار واوليائها الابرار) (٢) .

وأمر السلطان أبو عنان كذلك كاتبه محمد بن جزي الكلبي : (بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ ابو عبد الله من ذلك مشتملاً في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ولنيل مقاصده مكملاً مستوفياً تنقيح الكلام وتهذيبه معتمداً إيضاحه وتقريبه) (٣) فلولا اقتناع السلطان أبي عنان بغزارة علم ابن بطوطة عن البلدان ، وبكثرة من قابلهم من السلاطين والملوك والأولياء والابرار كما ورد في حكاية ما أمره بأن يدون مذكراته . ثم ان هذا الاهتمام من قبل السلطان بأمره (وهو جوالة العصر) نوعاً من الكسب الادبي للسلطان وهو المعروف عنه

---

(١) « الرحلة » ج ١ ، ص ٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٤

احتضانه لأصحاب العلم والادب والدين . ويبدو أن « السياحة » كانت تحظى بأهمية ومكانة خاصة لدى المغاربة ، بدليل كثرة الرحالة لديهم ولعلها كانت تعتبر إحدى مقومات الشخصية العلمية ، كما كان الكشف الجغرافي يعتبر في أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أحد المقومات الرئيسية بشخصية « الجغرافي » . ومن المعروف أن دولة الموحدين كانت تمر على عهد السلطان أبي عنان بنوع من الازدهار ، وكان بلاطه قد أصبح مطمح الطامحين من الادباء والعلماء الى الحظوة والكسب ، ولا يبعد أن يكون قرار ابن بطوطة بالعودة الى المغرب بعد تلك الغيبة الطويلة بتأثير من الاخبار التي قصها عليه مواطنوه ممن التقى بهم في الغربة عن كرم السلطان أبي عنان واغداقه على أصحاب المعرفة والعلم والادب . وقد لمح ابن بطوطة الى هذا المعنى بقوله في تبرير عودته الى الوطن : (وفي القاهرة تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى قد ضم الله به نشد الدولة المرينية وشفى ببركته بعد إشفاء البلاد المغربية وأفاض الاحسان على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام ، فتشوقت النفوس الى المثول ببابه وأملت لثم ركابه . فعند ذلك قصدت القدوم الى حضرته العلية) (١) .

وقد حقق ابن بطوطة بالفعل ما كان يبغيه من الكسب في بلاط السلطان أبي عنان : (فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الخفي الجفيل ما أنساه الماضي بالحال ، واغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه) (٢) .

إن النجاح الذي أصابه ابن بطوطة في بلاط السلطان أبي عنان

---

(١) « الرحلة » ج ٢ ، ص ١٧٨

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦

وما اشتملت عليه رحلاته من مبالغات وادعاءات قد أطلق ألسن أعدائه فراحت تشكك فيما يرويه من أخبار وحكايات . وتتجلى حملة التكذيب هذه فيما رواه عنه معاصره ابن خلدون حيث قال : (واتصل - أي ابن بطوطة - بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ومارأى من العجائب بممالك الارض ، واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون . . فتتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه . ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس ابن ودار البعيد الصيت ففاوضته في هذا ، ورأيته أنكر اخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه (١) .

ولقد لمح ابن جزي نفسه الى تلك الشكوك مع انه كان من أشد المتحمسين لابن بطوطة ، فقد ذكر في بداية « الرحلة » بأنه قد أورد جميع ما أورده ابن بطوطة من الحكايات والأخبار ولم يتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار (٢) . فكأنه كان يعتذر مقدماً عما قد يبدو فيها من غرابة أو اختلاف . بل ان ابن بطوطة نفسه كان يضطر الى توثيق حكاياته بين حين وآخر بأيمان غليظة لكي يصدقه سامعوه فقد قال في أحد مواضع حديثه عن السلطان محمد شاه (وسنذكر من اخباره عجائب لم يسمع بها عمن تقدمه . وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه فى الكرم الخارق للعادة حق ويكفي بالله شهيداً)(٣)

وقال في موضع آخر : (وإنما اذكر منها ماحضرته وشهدته وعاينته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى بالله شهيدا) (٤) .

---

(١) « مقدمة العلامة ابن خلدون » ، ص ١٧١

(٢) « الرحلة » ، ج ١ ، ص ٤

(٣) « الرحلة » ج ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥

(٤) المصدر السابق ، ص ٤١

ولقد أقام ابن بطوطة فى بلاط السلطان ابي عنان المريني مايقرب من عشرين عاماً بعد عودته من رحلته الأفريقية من دون أن يفكر بالقيام برحلة اخرى أو يهزه داعي الشوق الى شد الرحال مرة اخرى والطواف في البلدان . وتلك ولا شك ظاهرة غريبة على خلقه ، بما عهدنا فيه من حب السفر والتجول . ولعل تقدم السن به أو رغد العيش في بلاط السلطان أبي عنان قد انساه تلك العادة . وقد عبر ابن جزي عن هذا المعنى بقوله : (فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر من المرعى بالخصب بعد طول ارتياد) (١) والواقع أن ستاراً كثيفاً ينسدل على حياة ابن بطوطة بعد تدوينه لرحلته ، فلا يعرف عنه شيء واضح ، كما أن ذكره في كتب المؤرخين نادر جداً . وقد ذكر ابن حجر نقلا عن ابن مرزوق : (أنه بقي الى سنة سبع وسبعين ، ومات وهو متول للقضاء ببعض البلاد) (٢) . ولم يبين ابن مرزوق الجهة التي كان ابن بطوطة يتولى بها القضاء ، ولكن اشارات فى كتاب (نفاضة الجراب) لابن الخطيب تدل أنه كان قاضياً لمدينة (تامسنا) ، وانه ربما توفي في هذه المدينة ودفن فيها . ولذلك فقد لا يكون القبر الموجود في طنجة بأسمه هو قبره فعلا (٣) .

وتتفق أغلب المصادر أنه توفي فى عام ١٣٦٧ م أو ربما في عام ١٣٦٨ م (حوالي ٧٧٠ هـ) عن عمر يناهز السابعة والستين من عمره ، ولكن روايات اخرى تزعم انه قد توفي فى حوالي عام ١٣٧٧م أو (٧٧٩ هـ) عن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عاماً (٤) .

---

(١) المصدر الأسبق ص ٤

(٢) « ابن بطوطة » لعبد الله كنون ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥ ، ص ١٠٥

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٤) « رحلة مع ابن بطوطة » ، للشرقاوي ، ص ٢

جولات ابن بطوطة

لقد شملت جولات ابن بطوطة بلدان المغرب العربي ومصر وبلاد الشام (سوريا الكبرى) وشبه جزيرة العرب والعراق وجزءاً من الساحل الشرقي لافريقيا ، وايران وتركيا وحوض الفولغا الأدنى وتركستان وافغانستان والهند وجزر الملديق وساحل كروماندیل وسيلان وجزرالهند الشرقية وجنوبي الصين وربما شماليه ايضاً . كما شملت ايضاً الاندلس واقطار غربي افريقيا . وقد اعتاد خلال أسفاره ألا يتخذ نفس الطريق في العودة ، مما هيأ له مشاهدة مناطق واسعة من كل قطر من الاقطار (١) وقد لقي الباحثون صعوبة في تحديد مواضع كثير من المدن التي ذكرها لا سيما في الصين وغربي افريقيا وجزر المحيط الهندي ، وذلك بسبب اندثارها أو بسبب جهله للفظها الصحيح . ومما زاد في صعوباتهم عدم التزام ابن بطوطة بتسجيل اتجاهات سفره بوضوح ، وقفزه بين الحين والحين قفزات غير طبيعية فى موضع الى آخر بحيث يترك المتتبع لخط رحلاته في حيرة من أمره . وقد بذل بعض المستشرقين جهوداً طيبة في محاولاتهم لتحديد المواضع الغامضة وعلى رأسهم جب Gibb ويول yule وديفرمري Deferimry وفران Ferrand ، وكثيراً ما اختلفوا على موقع المكان وتسميته . ولذلك فلن نجد جميع المواضع التي ذكرها ابن بطوطة فى الخرائط الحديثة ، كما أننا قد لا نجد أسماءها مذكورة بشكل صحيح بالرغم من أنه يحاول ضبط تلك الأسماء بالشكل توخياً للدقة .

وسنحاول في هذا الفصل أن نقدم تلخيصاً جغرافياً « للرحلة » مستعيرين الفاظه نفسها ، وقد استفدنا بشكل خاص ، من ملاحظات العلامة جب في كتابه (رحلات ابن بطوطه) النسخة المختصرة لعام ١٩٢٩

Ibn Battuta tr avels in Asia and Africa

حول عدد غير قليل من المواضع الجغرافية المختلف عليها .

---

(١) « الرحلة » ، ج١ ، ص ١١٨ .

(١)

الرحلة الآسيوية الكبرى

جولة في العالم العربي وايرانه

في بلدان المغرب العربي :

انطلق ابن بطوطة من موطنه طنجة ، مبتدءاً رحلاته قاصداً حج بيت الله الحرام ، وذلك يوم الخميس ٢ رجب عام ٧٢٥ هـ (الموافق ١٣٢٥ م) فمر بتلمسان فمليانه فالجزائر فالقسطنطينية فتونس . وكان سفره محفوفاً بالمخاطر بسبب غارات البدو الأعراب . ثم غادر تونس مع رفاقه في الحج سالكين طريق الساحل فمروا بسوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطىء البحر وبينها وبين مدينة تونس اربعون ميلا ، ثم بصفاقس ثم بقابس التي أقام فيها عشرة ايام بسبب توالي نزول الامطار . وغادروا قابس قاصدين طرابلس وبصحبتهم نحو مائة فارس خوفاً من غارات الأعراب . ثم غادر الركب طرابلس وتجاوز مسلاته ومصراته وقصور سرت . وحاول الأعراب الايقاع بهم فلم يفلحوا . ثم وصل الركب في أول جمادي الاولى الى الاسكندرية .

في مصر :

والاسكندرية هي الثغر المحروس والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن الأصيلة البنيان بها ماشئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الفخامة والاحكام مبانيها . فهي الفريدة فى تجلي سناها والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب والجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اختلاؤها ، وكل طرفة فاليها انتهاؤها .

وقد زار ابن بطوطة بعض القرى المجاورة للاسكندرية ، كقرية بني مرشد ، وقرية فروجة للتبرك برؤية الشيوخ والأولياء . ثم زار الركب دمنهور ، وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها . ثم رحل الى مدينة فوا (١) ، وهي مدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة . ثم رحل الركب الى المدينة النحرارية وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤيا . وقد زار ابن بطوطة مدينة أبيار وهب قديمة البناء أرجة الأرجاء ، كثيرة المساجد ذات حسن زائد ، وهي بمقربة من النحرارية ، ويفصل بينهما النيل ، وتصنع بها ثياب حسان . . ثم توجه الى مدينة المحلة الكبيرة (٢) ، وهي جليلة المقدار حسنة الآثار ، كثير أهلها ، جامع بالحسن شملها . ثم قصد بلاد البرلس ونسترد ، ومدينتهم تسمى ملطين (٣) ، وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء السيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترد بمقربة منها (٤) . وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً وقد

(١) فوة . (٢) المحلة الكبرى . (٣) بلطيم .

(٤) لقد خلط هنا بين بحيرة البرلس وتنيس .

أصبحت خراباً . وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري .

ثم سافر في ارض رحلة الى مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الثمار عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب ، وتقع على شاطىء النيل ، وأهل الدور الموالية يستقون الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وبها شجر الموز ويحمل ثمره الى مصر بالمراكب . وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار . والطير البحري بهذا المدينة كثير متناهي السمن . وبها الألبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق . وبها الحوت البوري يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر . وبخارجها جزيرة البحرين ، ويسمى النيل بها بالبرزخ .

ثم سافر إلى مدينة مارسكور وهي مدينة على ساحل النيل . ثم غادرها الى أشمون الرمان (١) ، وقد سميت لكثرة الرمان فيها ويحمل الى مصر ، وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلجان النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها ، فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة . ثم سافر الى مدينة سمنود وهي على شاطىء النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هذه المدينة ، ركب النيل مصعداً الى مصر (القاهرة) مابين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض . وكانت الاسواق متصلة مابين الاسكندرية والقاهرة وبين القاهرة واسوان بحيث لا يحتاج الى استصحاب الزاد .

ثم وصل الى مصر (القاهرة) وهي أم البلاد وقرارة فرعون

---

(١) اشمون .

ذي الاوتاد ذات الاقاليم العريضة والبلاد الارضية المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة ، وبجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها . ولها خصوصية النيل الذي أجل خطرها واغناها على أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذي الغربة .

وتحدث ابن بطوطة عن نيل مصر الذي أثار اهتمامه بشكل خاص لا سيما ما يتعلق بجريانه من الجنوب الى الشمال وبطريقة فيضانه وفي ازدحام المدن والقرى على ضفتيه . وقد اعتبره أحد انها ـ الدنيا الخمس التي هي النيل ، والفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيحون ، ويماثلها أنهار خمسة أخرى هي نهر السند ويسمى بنج آب ونهر الهند ويسمى الكنك ونهر الجون (براهمبابترا) ونهر أتل (الفولغا) بصحراء قفجق ونهر السرو (هواتهو) بأرض الخطا .

واستلفت انتباه ابن بطوطة أيضاً بناء الاهرام التي وصفها بايجاز شديد .

وغادر مصر (القاهرة) فمر بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سار الى مدينة بوش وهذه المدينة اكثر بلاد مصر كتاناً ومنها يجلب الى سائر الدنيا المصرية الى أفريقيا . ثم مر بمدينة دلاص وهي كثيرة الكتان أيضاً ويصدر الى بقية انحاء مصر وأفريقيا . ثم مر بمدينة اليا ثم بمدينة البهنا وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة . ويصنع بها ثياب الصوف الجيدة . ثم سافر الى مدينة منية أبي الخصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطيء النيل وتفضل مدن الصعيد جميعاً ، وتكثر بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد

ثم سافر الى مدينة قبلوي (١) ، وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل . ثم مرّ بمدينة منفلوط وهي مدينـــة حسن هواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل . ثم سـافر منها الى أسيوط وهي مدينة رفيعـة أسواقها بديعة . ثم اتجه الى مدينة أخميم ، وهي مدينة عظيمة أصيلة البينات عجيبة الشأن بها البريد المعروف باسمه وهو مبني بالحجارة في داخله نقوش وكتابه للأوائل لاتفهم في هـــذا العهد وصور الأفـلاك والكواكب . ثم مر بمدينة هو وهي مدينة كبيرة بسـاحل النيل . ثم سافر الى مدينة قنا وهي صغيرة حسنة الأسواق ثم مر بقوص وهي مدينة عظيمة لها خيرات ، بساتينها مورقة واسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة والمـدارس الأثيرة وهي منزل ولاة الصعيد ، ثم سـافر الى الأقصر وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصـالح العـــابد أبي الحجـاج الأقصري وعليه زاوية . ثم مر بأرمنت وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل . ثم سافر الى مدينة إسنا وهي مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لهـا أسواق حسان وبساتين ذات افنان . ثم سافر الى مدينة أدفو وبينها وبين إسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء . ثم عبر النيل من مدينة أدفو الى مدينة العطواني . ومن تلك المدينة اكترى وجماعته الجمال وسافروا بصحبة طائفة من العرب في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنـة السبل تكثر بها الضباع . وبعد خمسة عشر يوماً وصلوا الى عيذاب (٢) وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر .

---

(١) ملوي

(٢) كان ميناء عيذاب يقع جنوبي مصر على خط عرض ٢٠ ، ٢٢ شمالا وخط طول ٣٢ ، ٣٦ ، شرقاً . وقد خربه سلطان مصر عام ١٤٢٢ م .

وأهلها الجباة وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفراء ، ويشدون على رؤوسهم عصائب . وهم لا يورثون البنات وطعامهم ألبان الابل ويركبون المهاري .

ولدى وصول ركب الحجاج الى عيذاب وجدوا سلطان البجا يحارب الاتراك فتعذر سفرهم ، فعادوا الى صعيد مصر ، ووصلوا الى مدينة قوص ، ثم انحدروا منها في نهر النيل الذي كان في أوان مده فوصلوا الى مصر (القاهرة) بعد مسيرة ثمان أيام .

وقرر ابن بطوطة أن يسافر الى الحجاز عن طريق بلاد الشام . فغادر القاهرة في منتصف شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة ، فوصل الى مدينة بلبيس وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة . ومنهـا دخل ركب الحجاج الرجال ونزل منازلها مثل السّوادة والواردة والمطيلب والعريش والخروبة . وبكل منزل منها فندق يسمونه الخان ينزل المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن أهم منازلهم قطيا التي تعتبر ثغر الحدود وفيها تؤخذ الزكاة من التجار ونفيس امتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث . وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود . وبجباها كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءه من مصر ولا الى مصر إلا ببراءة من الشام ، وقد وكل بحفظ طريقها القبائل الاعرابية .

في بلاد الشام :

واجتاز ابن بطوطة الحدود المصرية قاصداً بلاد الشام حتى وصل الى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر . وهي مدينة متسعة

الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بهـا المساجد العديدة والاسوار عليها ، ثم سـافر الى مدينة الخليل وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشدقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة ، ثم وصل مدينة القدس . وبيت المقدس بلدة كبيرة منيعة بالصخر المنحوت .

وقد وصف باسهاب مسجدها المقدس وقبة الصخرة . ثم رحل منها لزيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوماً طامسة واطلالاً دارسة وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان إتقاناً وحسن وضع وأصالة مكان وجمعاً بين مرافق البر والبحر . ثم رحل منها الى مدينة الرملة وهي في فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنه الأسواق وبها الجامع الأبيض . ثم رحل منهـا الى مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق ومنهـا تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها . ثم سافر الى مدينة عجلوان (١) وهي مدينة حسنة لها اسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ثم سـافر قاصداً اللاذقية فمر بالفور ثم بالقصير . ثم سـافر الى الساحل فوصل الى عكة وهي وخراب . ثم سافر الى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة واكثر اهلها أرفاض ثم سافر الى صيدا وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب الى بلاد مصر . سافر منها الى طبرية ، وكانت فيمـا مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها إلا رسوم تنبيء عن ضخامتها وعظم شأنهـا وبها الحمامات العجيبة وماؤها شديد الحرارة وبها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها نحو ثلاثة

---

(١) عجلون

قراسخ . ثم سار الى مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الأسواق وجامعها بديع الحسن ويجلب منها الى ديار مصر الفواكه . ثم وصل الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار ويكتنفها البحر بمرافقه العميقة والبر بخيراته المقيمة والبحر على بعد ميلين منها وهي حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر . ثم سافر الى حصن الأكراد وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل . ثم سافر الى حمص وهي مدينة مليحة أرجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن . ثم سافر الى مدينة حماة احدى امهات الشام الرفيعة ، ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالأفلاك الدائرة يشقها النهر الأعظم المسمى بالعاصي وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي . ثم سافر الى المعرة وهي مدينة كبيرة حسنة أكثر أشجارها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام . ثم سافر الى سرمين (١) وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الآجري ويجلب الى مصر والشام . ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة ، ويصنع بها ثياب قطن حسان . ثم سار الى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى . وقد أفاض في وصف المدينة وقلعتها . ثم سافر الى مدينة تيزين (٢) (وهي على طريق قنسرين) وهي حديثة اتخذتها التركمان وأسواقها حسان ومساجدها في غاية الاتقان . ثم سافر الى مدينة انطاكية وهي كثيرة العمارة ودورها

---

(١) صوران .

(٢) وتقع حوالي ٢٨ ميلا غربي حلب .

حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي . وكان عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام ثم خُرّب ، ثم سافر الى حصن بغراس وهو حصن منيع عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهي بلاد الكفار الارمن . ثم سافر الى مدينة صهيون وهي مدينة حسنة بها الأنهار المطردة والأشجار المورقة ولها قلعة جيدة . ثم سافر منها فمر بحصن القدموس ثم بحصن المنيقة ثم بحصن العليقة ثم بحصن مصياف ثم بحصن الكهف . وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم . ثم سافر من حصون الفداوية الى مدينـــة جبلة وهي ذات أنهار مطردة وأشجار والبحر على نحو ميل منها . ثم سافر الى مدينة اللاذقية ، وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر وبخارجها الدير المعروف بدير الغاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر . وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط اله السلسلة وهي من أحسن المراسي بالشام ثم سافر الى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك وميناء على جبل شامخ . ثم سافر إلى الجبل الأقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر ومكانه التركمان وفيه العيون والانهار . وسافر منه إلى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوارفة ولا يخلو من الزهاد والمنقطعين إلى الله . ومن جبل لبنان سار إلى مدينة بعلبك وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيعة وتخترق أرضها الانهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها ، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها الذي تصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها بالملبن أو جلد الغرس ويصنع بها أيضاً الثياب المنسوبة إليها

من الاحرام وغيره ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد . وبينها وبين دمشق بلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه يبيت فيها المسافرون الى دمشق . ثم وصل الى دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان عام ست وعشرين وسبعمائة . ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها .

وقد أفاض ابن بطوطة في وصف المدينة ومساجدها ومدارسها وأرباضها ، فتحدث باسهاب عن جامع دمشق وعن جبل قاسيون ومشاهده وعن الربوة والقرى المجاورة . ووصف بالتفصيل الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية فيها . وقد أقام في دمشق ما يقرب من عام ، ثم صحب الركب الحجازي في مستهل شوال من العام التالي متجهاً الى الديار الحجازية . فمروا بقرية الكوة ثم بقرية الصنين ثم ببلدة زرعة وهي صغيرة في بلاد حوران ثم بمدينة بصرى وهي صغيرة ثم مروا باللجون ثم بحصن الكرك وهو من أعجب الحصون وأمنعها ويسمى بحصن القراب وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية ، وتجهزوا لدخول البرية ، ثم ارتحلوا الى معان وهي آخر بلاد الشام .

في الحجاز ونجد :

ثم دخل الركب الصحراء من عقبة الصوان ، وبعد مسيرة يومين نزل الركب في موضع ذات حج ، وهي حسبان لا عمارة بها . ثم مر بوادي بلوح ولا ماء فيه ، ثم وصل الى تبوك . ثم استعد الركب لعبور البرية المخيفة التي بين العلا وتبوك وذلك بالتزود بالماء . ثم سار ليلاً

ونهاراً خوفاً من تلك البرية وفي وسطها الوادي الأخيضر كأنه وادي جهنم بما يهب عليه من ريح السموم . ثم وصل الى العلا وهي قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه ، ثم نزل بوادي العطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة . ثم نزل بهدية وهي حسبان ماء . وفي اليوم الثالث دخل الركب طيبة مدينة الرسول (ص) . وقد أفاض ابن بطوطة في وصف مسجد الرسول ، وفي الحديث عن رجال الدين الذين كانوا يقيمون فيها يومذاك أو سبق أن كانوا يقيمون فيها ، كما وصف أيضاً المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة .

ثم رحل الركب فنزل بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخيل وبنيان وفيه حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة ، ثم نزل ببدر وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع ثم اجتاز الصحراء المعروفة بقاع البزداء وهي برية يضل بها الدليل وفي منتهاها وادى رابغ ثم مر بخليص وبعقبة السويق ، ثم نزل الركب في بركة خليف وهي بسيط من الأرض تكثر بها حدائق النخل . وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر ، ثم مر بعسفان وهو في بسيط من الأرض . بين جبال وبه آبار ماء . ثم نزل ببطن مرّ ويسمى أيضاً مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الى مكة . وأولج الركب من هذا الوادي فوصل عند الصباح الى مكة شرفها الله تعالى وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها .

وقد أفاض ابن بطوطة في وصف مكة المكرمة وفي الحديث عن المسجد الحرام والكعبة المعظمة . وتحدث أيضاً عن بعض المشاهد خارج

مكة لاسيما الجبال المحيطة بها . وكذلك تحدث عن سكان مكة وعن بعض الرجال الأتقياء الذين كانوا يجاورون فيها .

وفي ٢٠ ذي الحجة غادر ابن بطوطة مكة بصحبة أمير ركب العراق فمر الركب ببطن مر ثم بعسفان ثم بخليص ثم بوادي السمك ثم ببدر ثم بالصفراء . ثم وصل الى المدينة . وبعد أن أقام أعضاء الركب في المدينة ستة أيام غادروها . وكانوا يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل وقد عاد نهاراً ساطعاً . ومروا بوادي العروس ثم رحلوا منها ودخلوا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض مد البصر ، ونزلوا بالعسيلة ثم بالنقرة ثم بالقارورة وهو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة . وفي هذه المواضع صهاريج عظيمة لجمع مياه الأمطار ابنتها زبيدة زوجة هارون الرشيد على طريق الحج الصحراوي بين العراق والحجاز . ثم مروا بالحاجر ثم بسميرة ، ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيتبادلون بضائعهم من الحجاج بالثياب الخام . ثم مروا بالجبل المخروق ثم بوادي الكروش ثم بحصن فيد الذي يسكنه عرب يتعيشون مع الحجاج في البيع والتجارة وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ، ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوماً في طريق سهل تكثر فيه المياه والصهاريج . ثم مروا بموضع الأجفر ثم بالثعلبية حيث يجتمع جمع عظيم من العرب فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ثم رحلوا فمروا بموضع يعرف بالمشقوق ، ثم بالتنانير ثم اجتاز الركب قرية زمالة وهي قرية معمورة . ثم نزل بالهيثمين ثم بواقصة . وبهذا الموضع يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ، ويهنىء الناس بعضهم بعضاً بالسلامة . ثم نزل الركب ببلورة ثم بعنارة القرون ثم بموضع يعرف بالعذيب وهو واد

تخصب عليه عمارة وحوله فلاة ثم نزل الركب القادسية ، وكانت مدينة عظيمة ، فلم يبق منها إلا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وفيها مشارع من ماء الفرات . ثم دخل الركب مدينة النجف وهي مدينه حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء ، ولها أسواق حسنة نظيفة ، وهي مشهد الامام علي عليه السلام .

في العراق :

وقد فصّل ابن بطوطة الحديث عن مرقد الامام علي (ع) كما تحدث عن سكان النجف ونقبائها ورجالها المشهورين . وافترق ابن بطوطة عن ركب الحج العراقي في مدينة النجف فواصل الركب سفره الى بغداد ، بينما سافر ابن بطوطة الى مدينة البصرة بصحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة ، وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل في تلك الأقطار إلا بصحبتهم . ومر بالخورنق ثم بقائم الواثق ثم بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعيدي وهم قطاع الطريق يتحصنون بتلك الغابة ثم مر بمدينة واسط فمر بماء يعرف بالهضيب ثم بوادي الكراع ـ وهو بلا ماء ـ ثم دخل مدينة البصره . وقد أفاض ابن بطوطة في الحديث عن المدينة ومحلاتها وجامعها ومشاهدها المباركة .

ثم ركب من ساحل البصرة في قارب صغير الى الأبلة (١) وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظللة عن اليمين واليسار . وكانت الأبلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت

(١) كانت مدينة الأبلة تحتل الموقع الحالي لمدينة البصرة .

وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرهـا دالة على عظمها . ثم ركب في الخارج من بحر فارس في مركب صغير فوصل الى عبادان وهي قريـة كبيرة في سبخة لا عمارة فيها وبها مساجد كثيرة .

في ايران :

ثم ركب البحر قاصداً بلدة ماجول ووصل بعـد أربعة أيام الى البلدة ، وهي صغيرة على ساحل الخليج الذي يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق . ثم سار ثلاثة أيام في صحراء يسكنها الأكراد في بيوت من الشعر حتى وصل الى مدينة رامز ، وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار . ثم وصل مدينة تستر وهي آخر البسيط من بلاد أتابك وأدل الجبال ، وهي مدينة كبيرة رائعة نضرة وبها البسانين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة وهي كثيرة الفواكه والخيرات ولا مثيل لأسواقها في الحسن ، وهي قديمة البناء . ثم سافر من مدينـة تستر لثلاثة أيام في جبال شاهخة حتى وصل الى مدينة ابذج ، وتسمى أيضاً مال الأمير وهي عاصمة السلطان أتابك . ثم رحل لمدة عشرة أيام في جبال شاهخة ، حتى وصل الى بلدة اشتركان من عمالة مدينة اصفهان ، وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين . ثم رحل الى مدينة فيروزان وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين . ثم مر بقرية نيلان وهي كبيرة على نهر عظيم وسار يومين بين البساتين والمياه والقرى الحسان وأبراج الحمام حتى وصل الى مدينة اصفهان في عراق العجم وهي من كبار المدن وحسانها ، إلا أنها قد خرب أكثرها بسبب الفتنة بين أهل السنة والروافض ، وبهـا

الفواكه الكثيرة كالمشمش والسفرجل والأعناب والبطيخ العظيم الشأن الذي لا مثيل له في الدنيا . وأهل اصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة ، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة ، فيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة . ثم سافر الى بلدة كليل وبينها وبين اصفهان ثلاثة أيام . وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه ثم وصل بعد يومين الى سوماد ثم غادرها الى يزدخالص وهي بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق وفيها يصنع الجبن اليزدخاصي . ثم سار منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الأتراك . ثم سافر الى مابين وهي بلدة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق وأكثر أشجارها الجوز . ثم سافر منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصيلة البناء فسيحة الأرجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المونقة والأنهار المتدفقة والأسواق البديعة والشوارع الرفيعة . وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب ، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم حسان الصور نظاف الملابس . وليس في المشرق بلدة تداني دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وآثارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز . وهي في بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة أنهر أحدها النهر المعروف بركن آباد . وقد أفاض ابن بطوطة في الحديث عن جوامع المدينة ومشاهدها وسكانها ورجال الدين فيها وعن سلاطينها . ثم زار بلدة كارزون وهي على مسيرة يومين من شيراز . ثم سافر منها الى مدينة الزيدين وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الأسواق عجيبة المساجد . ثم سافر الى مدينة الحويزاء وهي بلدة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع ، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس .

في العراق ثانية :

وسافر من الحويزاء قاصداً الكوفة في برية لا ماء فيها إلا في وضع واحد يسمى الطرفاوي ، ورده بعد اليوم الثالث من سفره . ثم وصل الى مدينة الكوفة ، وهي احدى البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين (ع) ، إلا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها يقطعون طريقها ، ولا سور عليها ، وبناؤها بالآجر ، وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك ، وجامعها الأعظم جامع شريف كبير . ثم رحل عنها ونزل ببئر ملاحة وهي بلدة حسنة بين حدائق النخل ، ثم غادرها الى مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجاً ودورها بين الحدائق . ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة في الساحل . وأهل هذه المدينة كلهم إمامية ، وهم طائفتان احدهما تعرف بالأكراد والاخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهما متصلة والقتال قائم . ثم سافر منها الى مدينة كربلاء وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات وهي مشهد الحسين بن علي عليهما السلام . وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيك وأولاد فائز وبينهما القتال أبداً . وهم جميعاً إمامية يرجعون الى أب واحد ، ولأجل

فتنتهم تخربت هذه المدينة . ثم سافر منها الى بغداد وهي مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف ، مثوى الخلفاء ومقر العلماء إلا انه قد ذهب رسمها ولم يبق إلا اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر إلا دجلتها التي هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين .

وقد فصّل ابن بطوطة في وصف بغداد فتحدث عن جانبها الغربى (الكرخ) وجانبها الشرقي (الرصافة) ، وعن قبور العلماء وبعض الصالحين فيها ، ثم قص جانباً من تأريخها المعاصر . ثم غادر بغداد متجهاً الى الموصل فنزل على نهر دجيل وهو متفرع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة تعرف بحربة وهى نخصبة فسيحة . ثم غادرها فنزل بموضع على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى بالمعشوق وهو مبني على الدجلة . وفي الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى أيضاً سامراء ، وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها إلا القليل وهى معتدلة الهواء رائعة الحسن على بلائها ودروس معالمها وفيها أيضاً مشهد صاحب الزمان . ثم سافر منها مرحلة ووصل الى مدينة تكريت وهى مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة الجوامع ، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق ، والدجلة في الجهة الشمالية منها ، ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها . ثم رحل منها مرحلتين ووصل قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة . وقد لاحظ ان القرى والعمارة متصلة من هذا الموضع حتى الموصل . وواصل سفره فمر بالقيارة وهى بمقربة من دجلة وفيها عيون تنبع بالقار . ثم سافر من هذا الموضع مرحلتين فوصل الى مدينة الموصل، وهى مدينة

عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيّد البروج وتتصل بها دور السلطان . وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجدار . وقد ذكر أنه لم ير في البلدان مثل سور الموصل سوى السور الذي على مدينة دهلي . كما لاحظ أيضاً بأن أهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه . ثم رحل من الموصل فنزل بقرية تعرف بعين الرصد . وهي على نهر عليه جسر مبني . ثم نزل بقرية تعرف بالمويلحة . ثم رحل الى جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة تحيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد ، وسورها مبني بالحجارة وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء . ثم رحل مرحلتين ووصل الى مدينة نصيبين ، وهي مدينة عظيمة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة ويصنع بها ماء الورد ويدور بها نهر ينعطف عليها انعطاف السور وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة . ثم رحل الى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار مبنية في سفح جبل تشبه دمشق في كثرة أنهارها وبساتينها . ثم سافر الى مدينة دارا وهى عتيقة بيضاء المنظر لها قلعة مشرقة وهى خراب لا عمارة بها ثم رحل الى مدينه ماردين وهى عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقاً وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع . ثم عاد الى بغداد ماراً بالموصل . وكان قد التمس السلطان أن يرافق موكب

الحج العراقي فوجد الموكب في أهبة الرحيل . ولقد مرض لدى وصول الموكب الى الكوفة ، ولم يزل مريضاً حتى وصل الى مكة المكرمة .

في ساحل افريقيا الشرقي :

ثم غادر الحجاز عن طريق جدة بعد أن أدى فريضة الحج . وهبت على المركب ريح قوية كادت تقصف به . ثم وصل الى مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن يسكنها البجاة . وسافر بصحبة البجاة ليومين في بريّة كثيرة الغزلان حتى وصل الى جزيرة سواكن ، وهى على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر . والماء يجلب اليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر ، وهى جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش ، وتكثر عندهم المعزى والألبان والسمن ومنها يجلب أيضاً الى مكة . ثم ركب البحر من سواكن قاصداً اليمن . ولا يسافر في ذلك البحر في الليل لكثرة احجاره وانما يسافر فيه من طلوع الشمس الى غروبها ، ويرسي المركب فينزلون الى البر فاذا طلع الصباح صعدوا الى المركب .

في الساحل اليمني :

وبعد ستة أيام وصل الى مدينة حلى وتعرف باسم ابن يعقوب ، وكان من سلاطين اليمن ، وهى كبيرة حسنة العمارة . ثم رحل عن طريق البحر ووصل الى بلدة السرجة وهى بلدة صغيرة يسكنها طائفة

من تجار اليمن . ثم رحل بحراً ومر بمرسى الحادث ومرسى الأبواب (١) من دون أن ينزل بهما ، حتى وصل الى مدينة زبيد ، وهى مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً ، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، وهى واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهى بريّة لا شطية وهى احدى قواعد بلاد اليمن ، وهى مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخيل والبساتين والمياه ، وهى أملح بلاد اليمن وأجملها ، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت . ثم زار بلدة جبلة وهى صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار ثم توجه الى مدينة تعز عاصمة ملك اليمن ، وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة ، وهى تتألف من ثلاث محلات ، احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته ، والثانية يسكنها الامراء والأجناد ، والثالثة بها السوق العظمى . ثم سافر الى مدينة صنعاء وهى قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء . وقد لاحظ أثناء مروره بهذه المدينة أن مطر اليمن ـ شأنه شأن مطر الهند والحبشة ـ إنما ينزل في أيام القيظ ، واكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم . ولذلك فان المسافرين الذين يمرون بصنعاء يسافرون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة ، والمدينة مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها ، ثم سافر من صنعاء الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم والجبال تحف بها ولا مدخل لها إلا من جانب واحد ، وهى مدينة كبيرة ولا زرع

---

(١) الأهداب .

بها ولا شجر ، وبها صهاريج يجتمع بها الماء أثناء المطر وهى شديدة الحر وهى مرسى أهل الهند تأتى إليها المراكب العظيمة من كنبايت وكولم وقالقوط وفندرانية والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها ويسكن بها تجار الهند وتجار مصر أيضاً . وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادي السمك . وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة .

في الساحل الافريقي ثانية :

ثم سافر من مدينة عدن فى البحر مدة أربعة أيام ووصل الى مدينة زيلع وهى مدينة البرابرة وهم طائفة من السودان وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو . ومواشيهم الجمال ، ولهم أغنام مشهورة السمن ، وأهلها سود الألوان . وهى مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها أقذر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتناً ثم سافر في البحر خمس عشرة ليلة ووصل مقدشو ، وهى مدينة متناهية في الكبر ولأهلها جمال وأغنام كثيرة وهم تجار أقوياء ، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها . ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب الى المرسى تصعد القوارب الصغار إليه ، ويكون فى كل مركب جماعته من الشبان يأتي كل واحد منهم بطبق فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلي ، فلا ينزل التاجر من المركب إلا الى دار نزيله .

ثم ركب من مدينة مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل قاصداً مدينة

كلوا من بلاد الزنوج ، فوصل إلى جزيرة منسي (١) وهى كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ولا بر لها ، وأشجارها الليمون والموز والاترج ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهى شبه الزيتون ولكنها شديدة الحلاوة ، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب إليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام . ثم وصل الى مدينة كلوا وهي مدينة عظيمة ساحلية ، وهي من أحسن المدن واتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الدريس ، والأمطار بها كثيرة ، وأكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم . وقد أخبره بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وان بين سفالة ويوفي (٢) من بلاد الليمين شهر . ومن يوفي يؤتى بالتبر الى سفالة .

في الساحل العماني :

ثم ركب البحر من كلوا إلى مدينة ظفار الحموض وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ، ومنها تحمل الخيل إلى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل . وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً وبينها وبين عمان عشرون يوماً . ومدينة ظفار في صحراء لا قرية بها ولا عمالة لها . والسوق خارج المدينة ، وأكثر سمكها من النوع المعروف بالسردين وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء . ولهم قمح يسمونه

---

(١) جزيرة منبسة .

(٢) يعتقد جب أن يوفي هي مدينة نوب Nupe على الضفة اليسرى من نهر النيجر بين جابا ولاكوجا (جب ص ٣٧٩) .

العلس ويجلب إليهم الارز من الهند وهو أكثر طعامهم . والغالب على أهلها رجالاً ونساءً المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين .

وعلى مسيرة نصف يوم من مدينة ظفار توجد مدينة الأحقاف ولها بساتين فيها موز كثير كبير الحجم ، كما يوجد بها أيضاً التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند . وقد ركب البحر من مدينة الاحقاف قاصداً عمان في مركب صغير . وفي اليوم الثاني وصل الى مرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادو السمك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغاً ، وهذا الصمغ هو اللبان وهو كثير جداً هنالك ، ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك . وبعد أربعة أيام وصل إلى جبل لمعان وهو في وسط البحر ثم وصل إلى جزيرة مصيرة وهي جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا من السمك ، ولم ينزل بها لبعدها عن الساحل . ثم وصل بعد يوم وليلة إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور . ثم وصل إلى مدينة قلهات ، وهي على الساحل وهي حسنة الأسواق وبمقربة منها قرية طيبي وهي من أجمل القرى وأبدعها حسناً ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة وبها أيضاً التنبول ، ويجلب التمر إلى هذه الجهات من عمان . وسار ستة أيام في صحراء حتى وصل عمان في اليوم السابع وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس وقاعدة هذه البلاد مدينة نزوا وهي في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار وهم أباضية ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك .

في ايران ثانية :

ثم سافر من بلاد عمان إلى بلاد هرمز وهي مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضاً موغ اسفان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة ، وبينها وبين البحر ثلاثة فراسخ . ووصل إلى هرمز الجديدة ومدينتها تسمى جرون وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان وبها عيون ماء وصهاريج يجمع بها ماء المطر .

ثم غادر مدينة هرمز قاصداً مدينة خنج بال للقاء شيخ صالح وبينها وبين الساحل صحراء مسيرة أربع أيام يسكنها التركمان وتهب عليها رياح السموم في شهر تموز وحزيران ولذلك لا يسافر فيها إلا ليلاً . ووصل إلى كوراستان (١) وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين وهو شديد الحر ، ثم سار منه ثلاثة أيام في صحراء شبيهة بالسابقة حتى وصل الى مدينة لار ، وهي مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان . ثم سافر منها الى مدينة جنخ بال . ثم سافر الى مدينة قيس وتسمى أيضاً بسيراف (٢) وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر

---

(١) خورستان .

(٢) يقول جب ان وصف ابن بطوطة لميناء سيراف يشتمل على خطأ عظيم . فميناء سيراف القديم يقع بالقرب من مدينة ناهيري الحالية . أما قيس أو كيش فانها مدينة تقع حوالي ٧٠ ميلا الى الجنوب . وقد حلت في القرن الثاني عشر محل سيراف ، ثم حل محلها ميناء هرمز عام ١٣٠٠ م وفي القرن السابع عشر حل ميناء بندر عباس محل هرمز (جب ص ٣٥٣) .

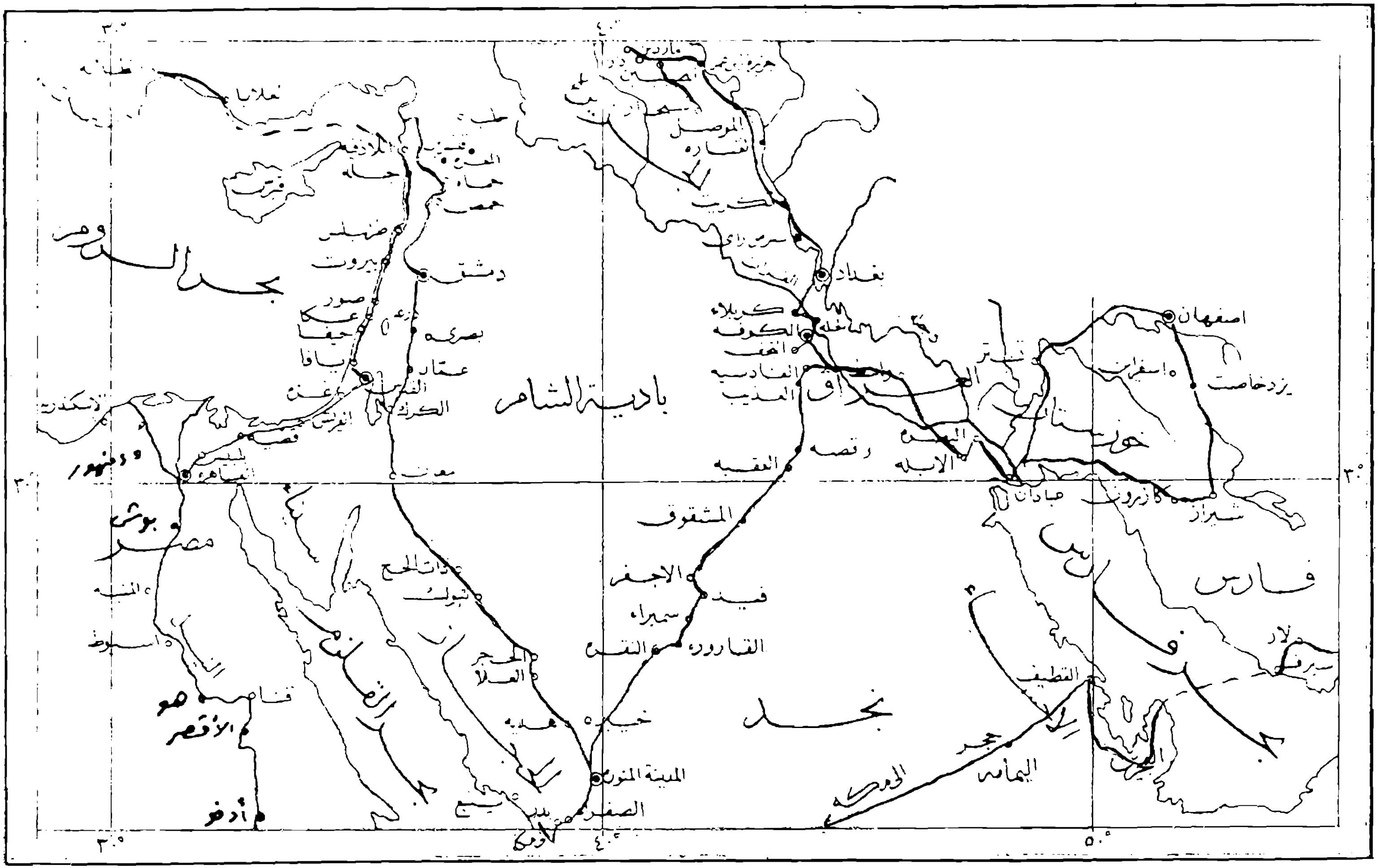

خارطة تمثل جولات ابن بطوطة في العالم العربي وايران (حققها الشيخ محمد فخر الدين)

اليمن وفارس ، وهي مدينة لها انفساح وسعة ، طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والأشجار الناضرة ، وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس ، ومنهم طائفة من عرب بني سقاف وهم الذين يغوصون على الجوهر . وقد وصف بالتفصيل طريقة الغوص لاستخراج اللؤلؤ في هذه الجهات .

في الجزيرة العربية :

ثم سافر الى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار ومياهها قريب المؤونة يحفر عليه بالأيدي . وبها حدائق النخل والرمان والأترج ويزرع بها القطن ، وهي شديدة الحر كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان إليها إلا في البحر ، وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو غربيها ويسمى الثاني بعوير وهو في شرقيها ، ثم سافر الى مدينة القطيف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهي رافضية . ثم سافر منها الى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا وبها من النخل ما ليس ببلد سواها ثم سافر إلى مدينة اليمامة ، وتسمى أيضاً بحجر ، وهي مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار . وقد صاحب أميرها برسم الحج وذلك في سنه ثنتين وثلاثين فوصل إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة .

وبعد فراغه من الحج توجه إلى جدة بقصد ركوب البحر إلى اليمن والهند وكان المفروض أن يستقل أحد المراكب المسافرة ولكنه لم

يرض عنه وقد غرق هذا المركب بمن فيه . ثم استقل مركباً قاصداً عيذاب ، لكن الريح ردت المركب إلى جبل يعرف برأس دواير على الجانب الافريقي . ومن هناك سافر براً في صحراء مع البجاة حتى وصل بعد تسعة أيام إلى عيذاب ثم واصل السفر حتى وصل إلى قرية العطواني على ضفة النيل مقابل أدفو . وأجتاز النيل إلى مدينة إسنا ثم إلى إرمنت ثم إلى الأقصر ثم إلى قوص ثم إلى قنا ثم إلى هو ثم إلى أخميم ثم إلى أسيوط ثم إلى منفلوط ثم إلى منلوي ثم إلى الأشمونين ثم إلى منية بني الخصيب ثم إلى البهنسة ثم إلى بوش ثم إلى منية القائد ثم إلى مصر (القاهرة) . وسافر منها على طريق بلبيس إلى الشام فمر بغزة ثم بالخليل ثم ببيت المقدس ثم بالرملة ثم بعكا ثم بطرابلس ثم بجبلة ثم باللاذقية . ومن اللاذقية ركب البحر بمركب جنوي قاصداً برّ التركية المعروف ببلاد الروم .

جولاته في الشرق الاردني وأواسط آسيا

في بلاد الاناضول :

أمضى ابن بطوطة في البحر تسعة أيام بعد اقلاع المركب من اللاذقية . وفي اليوم العاشر وصل المركب إلى مدينة العلايا وهي أول بلاد الروم . وهي كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر والاسكندرية والشام ، وهي كثيرة الخشب ومنهـا يحمل إلى الاسكندرية ودمياط وسائر بلاد مصر ، ولها قلعة منيعة . وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا . وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد ، فأهله أجمل الناس صوراً وأنظفهم ملابساً وأطيبهم مطاعماً وأكثر خلق الله شفقة ، إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك . وكان متى نزل بزاوية أو دار تفقد أحوال جيرانه من الرجال والنساء ، وهم يطبقون نظام « الأُخيّ » .

وسافر من مدينة العلايا إلى انطاليا ، وهي من أحسن المدن متناهية في اتساع الساحة والضخامة ، أجمل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيباً ، وكل فرقة من سكانها منفردة بنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ماكثون منها بالوضع المعروف بالميناء وعليهم سور تُسدُّ أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة ، والروم الذين كانوا أهلها قديماً ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم سور أيضاً . واليهود في موضع

آخر وعليهم سور . والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها سور أيضاً يحيط بها ويفرّق بينها وبين الفرق الاخرى . وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها جامع وحمامات كثيرة ومدرسة وأسواق ضخمة قريبة بابدع ترتيب ، وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وهو ييبس ويحمل إلى ديار مصر .

وسافر من انطاليا إلى بردور وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ولها قلعة في رأس جبل شامخ ، ثم سافر إلى مدينة اكريدور وهي مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين فيمر بأقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى (١) . ثم سافر إلى مدينة قل حصار (٢) . وهي مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب ، وقد نبت فيها القصب فلا طريق لها إلا طريق كالجسر مهيأ بين القصب والمياه لا يسع إلا فارساً واحداً ، والمدينة على تل في وسط المياه منيعة . ثم اجتاز طريق قرا أغاج وهي صحراء خضراء يسكنها التركمان ويقطعها قطاع الطرق من مدينة كوتاهية حتى وصل إلى مدينة لاذق وتسمى أيضاً دون غزلة أي بلد الخنازير وهي من أبدع المدن وأضخمها ولها البساتين الرائعة والأنهار المطردة والعيون المنيعة وأسواقها حسان ، وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثيل لها . وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الأقليم كلهم . وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتركونهن للفساد ، وكل

---

(١) ان من غير المفهوم كيف أمكن لابن بطوطة أن يسافر بالمركب من بحيرة أغريدر إلى بحيرة آق شهر مع أنهما غير متصلتين ، ولعله خلط بين الموضعين .

(٢) تقع مدينة قل حصار على بحيرة سقد sogut .

واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له . وسافر من مدينة لاذق يوماً وبعض ليلة فوصل إلى حصن طواس وهو حصن كبير ، ثم سافر إلى بلدة مغلة ثم إلى بلدة ميلاس وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه ، ثم سافر إلى بلدة برجين وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان . ثم سافر إلى مدينة قونية (١) وهي مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفواكه ، وبها المشمش المسمى قمر الدين الذي يحمل إلى ديار مصر والشام ، وشوارعها متسعة جداً وأسواقها بديعة الترتيب ، وأهل كل صناعة على حدة . ثم سافر منها إلى مدينة اللارندة وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين . ثم سافر إلى مدينة أقصرا (٢) وهي من احسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجري الماء بدورها وفيها الاشجار ودوالي العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها الثياب المنسوبة إليها من صوف الغنم ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك . ثم سافر إلى مدينة نكدة (٣) وهي مدينة كبيرة كثيرة العمارة ، قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار الأنهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة واثنتان بخارجها وعليه الدواعير بالداخل والخارج ومنها تسقى البساتين . وتكثر بها الفواكه . ثم سار إلى مدينة قيسارية (٤) وهي احدى المدن العظام بهذا الأقليم . ثم سافر الى مدينة

---

(١) لقد قفز ابن بطوطة قفزة غريبة من الطرف الجنوبي الغربي إلى وسط هضبة الاناضول .

(٢) آق سراي .

(٣) نغدة .

(٤) قيصرية .

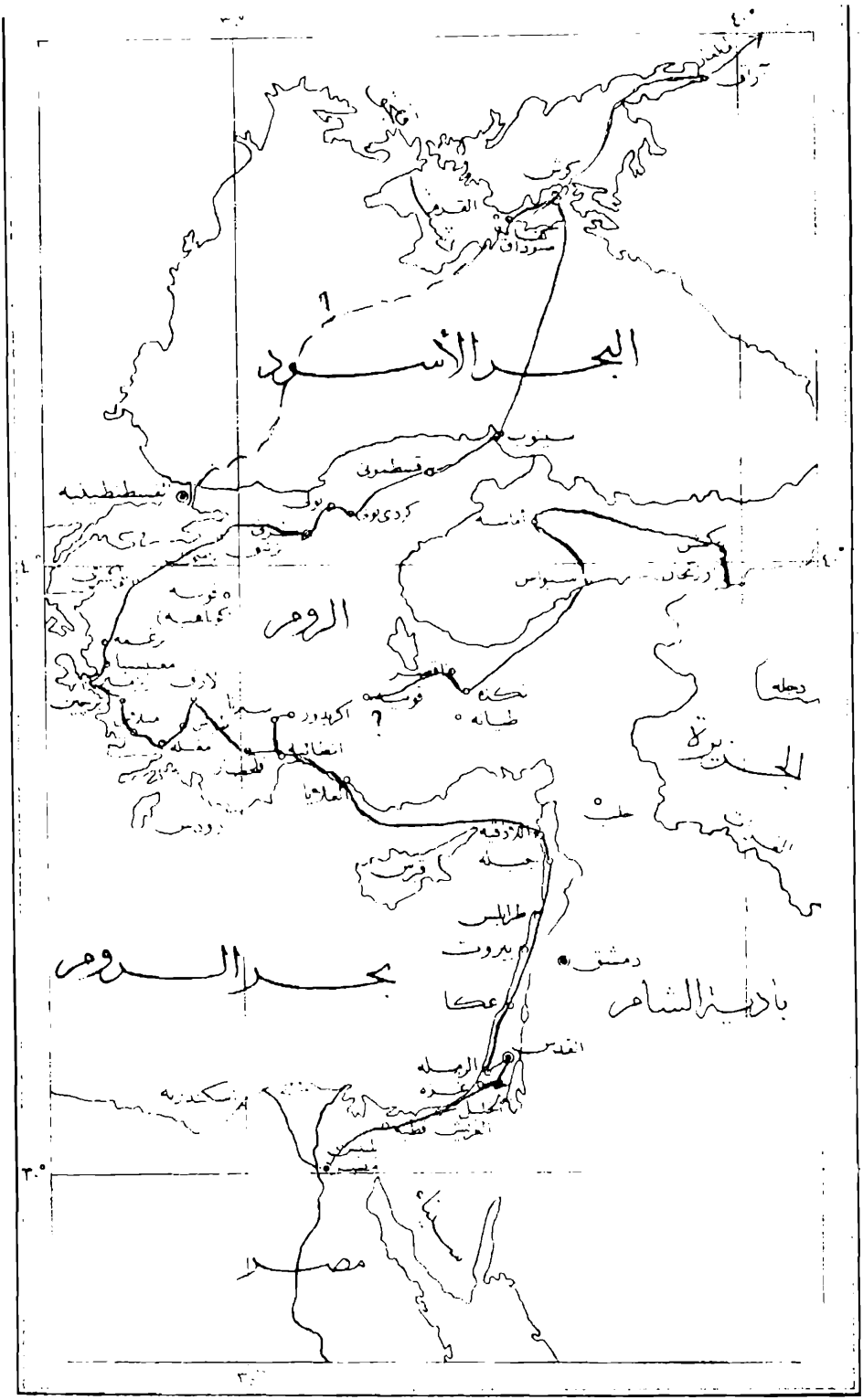

خارطة تمثل جولات ابن بطوطة في بلاد الاناضول (حققها الشيخ محمد فخر الدين)

سيواس وهي مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس ثم سافر إلى مدينه أماصية (١) وهي مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه ، وعلى أنهارها النواعير تسقي جناتها ودورها ، وهي فسيحة الشوارع والأسواق . وتقع مدينة سونس مقر أولاد أبي العباس أحمد الرفاعي بالغرب منها . ثم سافر إلى كمش وهي مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة ، وعلى مسيرة يومين منها جبال شاهقة وعرة . ثم سافر إلى أرزنجان (٢) وهي مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الأرمن والمسلمون يتكلمون بها التركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان وفيها معادن النحاس . ثم سافر إلى مدينة أرز الروم (٣) وهي كبيرة الساحة ، خُرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ، ويشقها ثلاثة أنهار ، وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي . ثم سافر إلى مدينة بركي حيث لقي كرم الضيافة والاعزاز من سلطانها . ثم سافر إلى مدينة تيره وهي مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين فواكه . ثم سار إلى مدينة أياسلوق ، وهي مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة وفيها مسجد لا نظير له في الحسن ، وكان كنيسة قبل أن يفتح المسلمون المدينة ، ثم سار إلى مدينة يزمير (٤) وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها ، ثم سافر إلى مدينة مغنسية وهي مدينة كبيرة حسنة في سفح جبل ، وبسيطها

---

(١) أماسية .

(٢) إرزنكان .

(٣) أرضروم .

(٤) إزمير (ويلاحظ انه قفز هنا مرة اخرى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب) .

كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه . ثم وصل إلى مدينة برغمة وهي مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ، ويقال أن افلاطون الحكيم من أهلها ، وان داره تشتهر باسمه إلى الآن . ثم سافر إلى مدينة بلى كسرى (١) وهي مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الأسواق . ثم سار إلى مدينة برصي (٢) وهي مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية ، وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة . ثم سافر إلى مدينة يزنيك وتحيط بها بحيرة من جميع الجهات ، وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ، وبها جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل والعنب وقد أقام في تلك المدينة أربعين يوماً بسبب مرض خرس له ، ولم يكن معه أحد يحسن اللسان التركي لأن الترجمان كان قد فارقه . ثم سافر قاصداً مدينة ينجا فمر بقرية مكجا ثم بقرية كادية . وقد اجتاز في طريقه واد كبير سريع المياه فكادت دابته تغرق وقد غرق له غلام وماتت جارية . ثم وصل إلى مدينة ينجا وهي بلدة كبيرة حسنة ثم سافر إلى بلدة كينوك في إبان الثلج والشتاء ، وهي بلدة صغيرة لا شجر بها ولا دوالي العنب ولا يزرع بها إلا الزعفران . ثم سافر إلى مدينة مطرني وكان البرد قد اشتد والثلج قد غزر . ثم رحل منها إلى مدينة بولي (٣) ، وقد كادت دابته تغرق به أيضاً عند اجتيازه لوادٍ سريع المياه بالقرب من المدينة . ثم فارقها إلى مدينة كردي بولي وهي مدينة كبيرة في بسيط من الأرض حسنة متسعة الشوارع والأسواق من أشد البلاد برداً وفي

---

(١) بالكسير .

(٢) بورصة .

(٣) بولو .

محلات متفرقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم أحد . ثم انصرف إلى مدينة برلو وهي مدينة صغيرة على تل تحتها فندق ولها قلعة . ثم سافر إلى مدينة قصطمونية (١) وهي من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار ، وقد أقام فيها نحو أربعين يوماً . ثم سافر إلى مدينة صنوب (٢) وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة وهي جهة الشرق ولها هناك باب واحد لا يدانيه أحد إلا باذن أميرها . وقد أقام بهذه المدينة نحو أربعين يوماً ينتظر متيسر السفر في البحر إلى مدينة القرم ، وكان أثناء تنقلاته بين مدن الأناضول ينزل في زوايا « الأُخيّة » وقد وصف بالتفصيل ما كان يقابل به من كرم وترحاب وضيافة .

في بلاد تركستان :

ثم ركب البحر من صنوب متجهاً إلى القرم . ولما توسطه هبت ريح كادت تغرق المركب ودفعت به إلى القرب من صنوب ثانية . ثم استقامت الريح فبلغ المركب إلى وسط البحر ثانية ، فعصفت الريح مرة اخرى . ثم صفا الجو فشاهدوا جبال البر ، وقصدوا مرسى يسمى الكرش (٣) ، فأرادوا دخوله فأشار إليهم اناس كانوا بالجبل ألا يدخلوا فرجعوا مع البر ، ثم نزلوا البر وباتوا في كنيسة قرب الساحل وكان هذا الموضع من الصحراء المعروفة بدشت قفجق ، وهي صحراء واسعة

---

(١) قسطموني .

(٢) سينوت .

(٣) كرچ .

قاحلة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب وإنما يوقدون الأرراث . وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد اوزبك وثلاثة في بلاد غيره . وقد استأجر من سكان مرسى الكرش المعروفين باسم قفجق وهم على دين النصرانية عجلة يجرها الفرس ركبهـــا هو وجماعته ، ووصلوا إلى مدينة الكفا (١) ، وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر حسنة الأسواق يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون . وقد سمع في هذه المدينة أصوات النواقيس لأول مرة ولم يكن قد سمعها قط فهاله ذلك وأزعجه . وقد أعجبه مرساها الذي كان به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيراً وكبيراً ، وهو من مراسي الدنيـا الشهيرة . ثم اكترى عجلة وسافر بها إلى مدينة القرم ، وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد اوزبك خان . وقرر أن يسافر إلى مدينة السرا عاصمة السلطان محمد أوزبك خان ، فاشترى عربة وجهزها لنفسه ، ومن عادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء سيراً كسير الحجاج في درب الحجاز ، يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون عشياً . وإذا حلّوا الخيل والابل والبقر عن العربات سرحوها للرعي ليلاً ونهاراً . ومن مميزات هـذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب ، ولذلك كثرت الدواب بها ، ولا رعاة لها ولا حراس ، وذلك لشدة أحكامهم في السرقة وحكمهم فيها .

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلاً من مدينة القرم وصل إلى ماء كثير فخاضه يوماً كاملاً ، ثم سار بعده ثلاثاً فوصل إلى مدينة أزاق ، وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات ، وقد لاحظ أن الخيل بتلك البلاد كثيرة جداً وأن ثمنها نزر . ثم سافر

---

(١) وتسمى في الوقت الحاضر ثيوديسيا .

إلى مدينة الماجر (١) وهي مدينة كبرى من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة . وقد التقى هناك بتاجر يهودي أخبره أنه أتى من الاندلس براً ولم يسلك بحراً ؛ وذلك عن طريق القسطنطينة العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس ووصل في أربعة أشهر لاحظ ظاهرة عجيبة هي تعظيم النساء عندهم . وذكر أن نساء الأتراك لا يحتجبن ، وتأتي احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية . وتجهز من مدينـــة الماجر قاصداً معسكر السلطان محمد اوزبك ، وكان بموضع يقال له بش دغ (٢) ، ومعنى ذلك الجبال الخمسة . وحينما وصل إلى المعسكر رأى مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد في الهواء ، وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم ، فاذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهي خفيفـــة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت وقد أفاض في الحديث عن السلطان محمد اوزبك خان في حله وترحاله وعن أولاده وزوجاته (خواتينه) وعن رجال بلاطه واحتفالاتهم في الأعياد والمناسبات .

ثم رغب في السفر إلى مدينة البلغار التي كان بينهـا وبين محلة السلطان مسيرة عشر ، وذلك ليرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً في عكس ذلك الفصل ، ووصلها بالفعل وأقام بها

---

(١) يقول جب : ان آثار مدينـــة الماجر (التي تحمل محلها الآن مدينـــة بورغومازهاري Burgomadzhary) تقع على نهر كوما الى الجنوب الغربي من استراخان ، وحوالي ١٩٠ كيلو متراً الى الشمال الشرقي من جورجيوسك (جب ص ٣٥٧) .

(٢) بش دغ هو أحد مرتفعات جبال القوقاز ويقـــع إلى الشمال من تفورسك وحوالي ٣٥ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من جورجيوسك .

ثلاثة أيام ، وتحقق من ذلك . وقد أراد أيضاً السفر إلى أرض الظلمة (١) والدخول إليها من بلغار ، وبينهما أربعون يوماً ، إلا أنه غيّر رأيه لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . وقد أُخبر بأن السفر إليها يكون في عجلات صغار تجرها كلاب كبار . وتحدث عن طريقة التجارة في تلك البلاد .

وعاد من بلغار إلى محلة السلطان في بش دغ ثم رافقه إلى مدينة الحاج ترخان (٢) وهي من أعظم المدن ، عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل (الفولغا) وهو من أنهار الدنيا الكبار ، وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به . ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر ، والمياه المتصلة به ثلاث مراحل أو ربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون

في الطريق إلى القسطنطينة :

وعند وصولهم مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان محمد اوزبك أن يأذن لها لزيارة أبيها وتضع حملها عنده ثم تعود إليه ، فأذن لها ، وقد استأذن ابن بطوطة السلطان في مرافقتها لمشاهدة القسطنطينة فوافق بعد تمنع ، وحمّله بالهدايا ، وكذلك فعلت خواتينه ، وسافر في العاشر من شوال بصبحة الخاتون بيلون ووصلوا إلى مدينة اكك (٣) ، وهي مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخلوات

(١) ويقصد بها سيبريا .

(٢) استراخان .

(٣) يعتقد جب أن المقصود بها مدينة لوكاشي أولوك التي تقع على نهر آزوف ، وتبعد حوالي ٢٢ ميلا غربي تاغازوغ (جب ص ٣٥٧) .

شديدة البرد وبينها وبين السرا مسيرة عشر ، وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر ، وعندهم معادن الفضة . ثم وصل بعد مسيرة عشرة من هذه المدينة إلى مدينة سرادق (١) وهي من مدن وشق تفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم وهم أهل الصنايع ، وأكثر بيوتها خشب . وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك . ثم وصلوا إلى بلدة بابا سلطاق وهي آخر بلاد الترك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها ويتزود لها الماء ويحمل بالقرب ، والأتراك يرفعون الألبان بالقرب ويخلطونها بالدوفي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون . ودخل البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرهم من يوم أن فارقوا السلطان إلى أول البرية تسعة عشر يوماً مضحى ومعشى . ثم وصلوا إلى حصن مهتولي وهو أول عمالة الروم . ثم وصلوا إلى حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطقيلي . ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره ، وبخارجه قرية كبيرة ثم ساروا يومين ووصلوا إلى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدوا المد فأقاموا حتى كان الجزر ، وخاضوه وعرضه نحو ميلين . ومشوا نحو أربعة أميال في رمال ووصلوا الخليج الثاني فخاضوه وعرضه نحو ثلاثة أميال . ثم مشوا نحو ميلين في حجارة ورمل ، ثم وصلوا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فخاضوه وعرضه ميل

---

(١) يعلق جب على ذلك بقوله : (ليس من الواضح لماذا ينبغي ان تقوم جماعة الخاتون ببلون بهذه الدورة في القرم . ولعل ابن بطوطة قد خلط بين تفاصيل الطريق ، وربما كان قد زار سرادق أثناء اقامته في القرم (ستاري كريم) وليس خلال الرحلة) « جب ص ٣٥٨ » .

واحد . فعرض الخليج كله مائة ميل ويابسه اثني عشر ميلاً ، وتصير ماءاً كلها أيام المطر فلا تخاض إلا في القوارب . وعلى ساحل هـــذا الخليج الثالث مدينة القنيكة (١) وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخترقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الاخرى . ثم وصلوا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر ذات أنهار وأشجار لم يستطع ابن بطوطة أن يتذكر اسمها . وقد استقبلت الخاتون عند تلك المدينة من قبل أخيها ومرافقيه استقبالاً حافلاً . ثم وصل الركب إلى القسطنطينة العظمى فضربت النواقيس حتى ارتجت لها الآفاق . وقد منع المسلمون أولاً من الدخول إلى المدينة إلا أن الخاتون رجت والدهـا فسمح لابن بطوطة وبعض جماعة بدخول المدينة وعين لهم دار بمقربـة من دار الخاتون ونودي بذلك في الأسواق . والقسطنطينة متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا في بلاد المغرب ، وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت ، وهو يعبر في القوارب ، واسم هذا النهر ابسمي . وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول وهو بالعدوة

---

(١) يقول جب ان طريق ابن بطوطة خلال تراقيا الى القسطنطينة غير معروف بتاتاً كما تحدث عنه . وهذا شأنه في حديثه عن الصين حيث سقط في تحريفات غريبة للاسماء لكونها غير مألوفة لديه ولكونه قد استعادها من الذاكرة بعد مضي مدة لا تقل عن عشرين عاماً ، وقد كانت مدينة الحدود في امبراطورية بيزنطة عام ١٣٣١ - ١٣٣٢ (وهو التأريخ الذي تمت فيه هذه الرحلة وليس التأريخ الذي ذكره ابن بطوطـة فهو مخطوء) هي مدينـة دياميولي أو كافولي (وتسمى الآن جامبولي) ، ويمكن القول بأن ماهتولي هي أقرب المدن إليها . أما النهر المذكور فلعله نهر موقث أو رافد . وقد يخطر على البال نهر الدانوب ، إلا أن في ذلك تجاوز خطير على دقة المواضع . أما القنيكة فمن المحتمل أن تكون أغاثونيكا حيث يعبر عندهـا الطريق الرئيسي القادم من دياميو ليس نهر تونجا (تونزوس) عند أو قرب .

الشرقية من النهر ، وفيه يسكن السلطان وارباب دولته وسائر الناس . وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعه ، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم . وعلى كل سوق أبواب تسد عليهم بالليل . وأكثر الصناع والباعة بها نساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفي أعلاه قلعة صغيرة . وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل . وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامر . والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة .

وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح (١) في قربه من النهر . وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه . وهم أصناف . فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة ، وحكمهم إلى ملك القسطنطينة، وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة ، ومرساهم من أعظم المراسي . وقد رأى فيه ابن بطوطة مائة جفن من القراقر (المراكب الكبيرة) . وأما الكفار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقذار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم لا خير فيها .

وقد وصف ابن بطوطة أيضاً الكنيسة العظمى التي عندهم أياصوفيا وقال انه يصف خارجها ، وأما داخلها فلم يشاهده . وكان وصفه لها على دقة عظيمة . كذلك وصف المانستران (الأديرة) وصفاً مفصلاً دقيقاً ، وتحدث عن طريقة الحياة والعبادة فيها .

وتحدث عن سلطان القسطنطينة تكفور ابن السلطان جرجس وروى

---

(١) المقصود به جبل طارق .

مقابلته له . وتحدث أيضاً عن أبيه الذي كان مترهباً في أحد الأديرة خارج المدينة . وقد أقام في القسطنطينة شهراً وستة أيام .

في تركستان ثانية :

وعاد ابن بطوطة وجماعته إلى حيث تركوا أصحابهم وعرباتهم فركبوا العربات ودخلوا البرية حتى وصلوا إلى مدينة بابا سلوق وأقاموا بها ثلاثاً وذلك في اشتداد البرد . ثم وصل إلى مدينة الحاج ترخان فوجد السلطان محمد اوزبك قد غادرها إلى عاصمته السرا . فسافر قاصداً السرا على نهر أتل وما يليه من المياه ثلاثاً وهي جامدة . وكان إذا احتاج إلى ماء قطع قطعاً من الجليد وجعله في القدر حتى يصير ماءاً فيشرب منه ويطبخ ، ثم وصل إلى مدينة السرا (١) وتعرف بسرا بركة وهي من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق متسعة الشوارع . وركب يوماً مع بعض كبرائها وغرضه التطواف فيها ومعرفة مقدارها . وكان منزله في طرف منها ، وكان ركوبه غدوة فوصل لآخرها بعد الزوال . فصلى الظهر وأكل وعاد

---

(١) يقول جب انه كانت هناك مدينتان باسم السرا في بلاد التتار ، وكانتا بالتعاقب عاصمتين لخانات القرن الذهبي ، وهما السرا القديمة ، وتقع بالقرب من قرية سليترنو Selitrennoe الحالية حوالي ٤٧ ميلا فوق استراخان ، والسرا الجديدة التي تحيط بمدينة تساريف Tsarev الحالية على بعد (٢٢٥) ميلا فوق استراخان وقد نقل السلطان محمد اوزبك عاصمته من السرا القديمة إلى السرا الجديدة في حوالي هذا الوقت ، وربما قبل هذا الوقت ببضع سنين . وينطبق وصف ابن بطوطة على السرا الجديدة التي تمتد بقاياها إلى حوالي (٤٠) ميلا وتغطي منطقة تزيد على (٢٠) ميلا مربعاً (جب ص ٣٨٥) .

فوصل المنزل عند المغرب ومشى يوماً في عرضها ذاهباً راجعاً في نصف يوم في عُمارة متصلة الدور لا خراب بها ولا بساتين وفيها طوائف مختلفة من الناس منهم المغل والقبجق والجركس والروم ، وكل طائفة تسكن على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار .

ثم غادر السرا قاصداً خوارزم في صحراء مسيرة أربعين يوماً لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وإنما تجر العربات بها الجمال ، وبعد عشرة أيام وصل مدينة سراجوق (١) وهي على شاطىء نهر كبير زخار يقال له ألوصو ، وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد وعند هذه المدينة باع الخيل لعدم فائدتها واكترى الجمال لجر العربات . ثم سار ثلاثين يوماً سيراً جاداً لا ينزل إلا ساعتين احداهما عند الضحى والاخرى عند المغرب ، وكل انسان انما يأكل وينام في عربته حال السير . وكان من عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها ، وتهلك معظم الجمال التي تقطعها وما يبقى منها لا ينتفع به إلا في سنة اخرى بعد أن يسمن . والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء والمطر والحسيان . ثم وصل إلى خوارزم وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة ، وهي ترتج بسكانها وتموج بهم موج البحر . ولم ير في الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ولا أكرم نفوساً ولا أحب في الغرباء . وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر ويسافر فيه في أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهي مسيرة

---

(١) تقع آثار سراجوق أو سراجيك بالقرب من غويك (Guyer) على مصب نهر اورال .

عشرة للمنحدر ، وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقاً ولا غرباً إلا ما كان من بطيخ بخارى ويليه بطيخ اصفهان . ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين . وقد أفاض ابن بطوطة في الحديث عن أمير خوارزم وبعض شيوخ الدين فيها ومن لقي فيها من التجار .

ثم غادر خوارزم ودخل البرية التي بينها وبين بخارى . وقد جلل الخيل لمحافظتها من البرد وهي مسيرة ثمانية عشر يوماً في رمال لا عمارة فيها إلا بلدة واحدة . ثم وصل بعد أيام إلى مدينة الكات ، وليس بهذا الطريق عمارة سواها وهي صغيرة حسنـــة . ثم غادرها وسار في تلك الصحراء مسيرة ست أيام دون ماء ، ووصل بعد ذلك إلى بلدة وبكنة وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى ، حسنة ذات أنهار وبساتين ، وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الألو) فيبيعونه ويجلبه الناس إلى الهند والصين . ثم سار في بساتين متصلة وانهار وأشجار وعمارة يوماً كاملاً ووصل إلى مدينة بخارى . وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد ، وخربها تنكيز التتري ، فمساجدها ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل ، وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل في خوارزم لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وانكار الحق وقد زار فيها مقبرتها المشهورة ، وقد سُجلّت على قبور علماء بخارى أسماءهم وأسماء تصانيفهم .

وسافر من بخارى قاصداً معسكر سلطان ما وراء النهر علاء الدين طرمشي ، فمر ببلدة نخشب ثم وصل إلى محلـــة السلطان وأفاض في الحديث عنه وعن أسلافه وقص تأريخهم بالتفصيل . ولما ودع السلطان طرمشيرين سافر إلى مدينة سمرقند وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً مبنية على شاطىء وادي يعرف بوادي القصارين عليـه النواعير تسقي البساتين . وقد خرب أكثر المدينة ولا سور لها ولا أبواب عليها

وأهلها لهم مكارم اخلاق ومحبة في الغريب وهم خير من أهل بخارى . ثم غادر سمرقند واجتاز بلدة نسف ، ثم وصل إلى مدينة ترمذ وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق تخترقها الأنهار والبساتين الكثيرة وبها العنب والسفرجل ، وتكثر بها اللحوم والالبان . وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطىء جيحون ، فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على بعد ميلين من النهر .

في خراسان :

وغادر مدينه ترمـــذ وسار يوماً ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها فوصل مدينة بلخ وهي خاوية على عروشها غير عامرة . وكانت فخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن وقـد خربها تنكيز خان . وسافر من مدينة بلخ في جبال قوه إستان (قهستان) سبعة أيام ، وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة وأكثرها شجر التين . ثم وصل إلى مدينة هراة وهي أكبر المدن العامرة بخراسان . ومدن خراسان العظيمة أربع ، اثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور واثنتان خربتان وهما بلخ ومرو . ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها صلاح وعفاف وديانـة . ثم سار من هراة إلى مدينة شيخ جام وهي متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار وأكثر أشجارها التوت ، ويكثر بها الحرير . ثم سافر إلى مدينة طوس وهي أكبر مدن بلاد خراسان وأعظمها وهي بلد الغزالي . ورحل منها إلى مدينة سرخس ثم إلى مدينة زاوة . ثم غادرها إلى مدينـة نيسابور وهي احدى المدن الاربع التي هي قواعد خراسان ويقال لهـا

دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها ، وتخترقها أربعة من الانهار ، وأسواقها حسنة متسعة ويصنع بها ثياب الحرير وتحمل منها إلى الهند ، ثم سافر إلى مدينة بسطام . ثم سافر منها على طريق هندخير إلى قندوس وبغلان وهي قرى بها البساتين والأنهار . وقد أقام فى مدينة قندوس أربعين يوماً لرعي الجمال والخيل ، وبها مراعي طيبة وأعشاب كثيرة . وكان من أسباب اقامته خوف الثلج .

الدخول إلى الهند :

وعلى مسيرة يوم كامل جبل يقال له هندكوش ومعناه قاتل الهنود لشدة البرد فيه وكثرة الثلج . وعند دخول الحر سار ابن بطوطة فقطع ذلك الجبل في آخر الليل وسلك به جميع النهار الى الغروب . وكانوا يضعون اللبود بين أيدي الجمال لئلا تغرق في الثلج . ثم سافر الى موضع يعرف بأندر . ثم صعد جبل هندكوش المذكور فوجد عين ماء حارة غسلوا بها ثم نزل بموضع يعرف ببنج هير ومعناه خمسة جبال . وكانت هناك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم ازرق كأنه بحر ينزل من بدخشان ، وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش . وقد خرب تنكيز هذه البلاد . ووصل الى جبل بشاي . ثم سافر إلى بردن ، ثم إلى قرية الجرخ وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة ثم سافر الى مدينة غزنه وهي شديد البرد . ثم سافر الى مدينة كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الأفغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان . ومنها رحل إلى كرماش وهي حصن

بين جبلين تقطع به الأفغان . ثم بات بمنزل ششعار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك . ومن هنا دخل البريـة الكبرى وهي مسيرة خمسة عشر لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر في أرض السند والهند وذلك في شهر يوليه . وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة . ثم وصل أخيراً مع رفقته إلى بنج آب وهو ماء السند ، ومعناه الأودية الخمسة وهي تصب في النهر الأعظم وكان وصوله إلى النهر سلخ ذي الحجة واستهل عليه تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة .

جولاته في بلدان الشرق الاقصى

في الهنـــد :

وصل ابن بطوطة إلى وادي السند في مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة . وقد كتب المسؤولون بخبره إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان حين قدومهم بمدينة سيوستان . ولما أجاز نهر السند دخل غيضة قصب لسلوك الطريق فخرج عليهم الكركدن وهو حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة . وسار من نهر السند يومين ووصل إلى مدينة جناني وهي مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة ، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة . وقد إلتقى في هذه المدينة بأحد أولياء الله المسمى بهاء الدين زكريا القرشي والذي سبق للشيخ برهان الدين الأعرج أن أخبره حينما مر بالاسكندرية في رحلته الاولى أنه سيلتقي به . ثم سافر منها ووصل إلى مدينة سيوستان ، وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر ام غيلان ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ ، وطعامهم الذرة والجلبان ومنه يصنعون الخبز ، وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية ، ثم سافر بصحبة الأمير علاء الدين خمسة أيام ووصل إلى موضع ولايته وهو مدينـــة

لاهري (١) ، وهي مدينة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند في البحر فيلتقي بها بحران ولها مرسى عظيم يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم وبذلك عظمت جبايتها وكثرت أموالها . وبعـــد اقامة خمسة أيام سافر إلى مدينة بكار (٢) وهي مدينة حسنة يشقهـا خليج من نهر السند . ثم سافر إلى مدينة أوجة وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة جيدة . ثم سافر إلى مدينة ملتان وهي قاعدة بلاد السند ومسكن أمير امرائه . وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسروآباد وهو من الأودية الكبار لا يجاز إلا بالمراكب وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم ثم سافر من مدينة ملتان حتى وصل إلى بلاد الهند . وكان أول بلد دخله مدينة أبوهر وهي أول تلك البلاد الهندية ، صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار ، وقد لاحظ أن أشجارها لا تشبه أشجار بلاده سوى شجرة النبق لكنه عندهم عظيم الجرم حبته كحبة العنص وهو شديد الحلاوة . ثم سافر من مدينة أبوهر فوصل إلى مدينة أجودهن وهي مدينة صغيرة وقد شهد فيها لأول مرة حرق الزوجة عنـــد وفاة زوجها . ثم سافر من مدينة أجودهن فوصل بعد مسيرة أربعة أيام إلى مدينة سرستي ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأرز وارزها طيب ومنها يحمل إلى حضرة دهلي ولها مجبى كثير جداً . ثم سافر منها إلى مدينة حانسي وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة ولها سور عظيم ، ثم سافر

---

(١) يقول جب ان آثار مدينة لاهري (لاربيند) تقع على الجانب الشمالي لقنـــال (راهو) حوالي ٢٨ ميلا شرقي كراتشي الـ حلت عام ١٨٠٠ ، بسبب ضحالة ساحلها (جب ص ٣٦١) .

(٢) بوكور .

منها ووصل بعد يومين إلي مسعود آباد (١) ، وهي على بعد عشرة أميال من حضرة دهلي . ثم رحل من مسعود آباد فنزل بمقربة من قرية تسمى اپالم . وفي غد ذلك اليوم وصل إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند . ومدينة دهلي كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهي أربع مدن متجاورات متصلات ، احداها المسماة بهذا الاسم دهلي وهي القديمة من بناء الكفار والثانية تسمى سيري وتسمى أيضاً دار الخلافة ، والثالثة تسمى باسم تغلق آباد باسم بانيها ، والرابعة تسمى جهان وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند وهو الذي بناها . وكان قد رغب أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضاً وترك بناء باقيه . والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير ، عرض حائطه أحد عشر ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها السمّار وحفّاظ الأبواب ، وفيهـا مخازن للطعام ويسمونها الانبارات ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات ، ويبقى الزرع بها مدة طويلة لا يتغيّر ولا تطرقه آفة . ويمشي داخل السور الفرسان والرجالة من أول المدينة إلي آخرها . وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منهـا الضوء . وأسفل السور مبني بالحجاره وأعلاه بالآجر وأبراجه كثيرة متقاربة ، ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً ، وهم يسمون الباب دروازة . وقد أفاض ابن بطوطة في وصف جامع دهلي وصومعته ، وفي الحديث عن أحواض المياه الواقعة خارج المدينة . ثم روى باسهاب تأريخها الحديث وذكر من تداولها من الملوك .

وتحدث عن الملك محمد شاه طغلق حديثاً مفصلاً للغاية ، ولم يترك جانباً يمس الادارة أو الحكم أو الاحتفالات أو الأعياد أو شؤون البلاط

---

(١) يذكر جب أن آثار مسعود آباد تقع حوالي الميـل شرقي ناجوفغار Najufgarh ، وحوالي ٦ ميل الى (الشمال الغربي من محطة بالم palem (جب ص ٢٦٢) .

دون أن يقف عنده وقفة طويلة ، وقد أسهب بشكل خاص في وصف خلق محمد شاه الذي كان ينطوي على متناقضات عظيمة بين لين ورحمة وعدالة متناهيه وطغيان وقسوة وبغي يفوق التصور ، وأطنب اطناباً شديداً في التحدث عن جوده وكرمه . كذلك روى تفاصيل حياته في بلاط الملك محمد شاه وفي مدينة دلهي بالذات . وقد مكث في دلهي حوالي ثمانية أعوام ، واشتغل بالقضاء ، ثم فارقها حينما طلب منه السلطان محمد شاه في شهر شوال من سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة أن يتوجه عنه رسولاً إلى ملك الصين ، الذي كان يمثل آخر سلالة المغول ، وذلك لعلمه حبه للأسفار والجولان . وقد جهزه بما يحتاج إليه وعين للسفر معه خمسة عشر رجلاً ، وكان سفرهم في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . ونزلوا في أول مرحلة بمنزل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من دلهي . ثم رحلوا منها إلى مدينة بيان وهي كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق . ثم وصلوا الى مدينة كول (١) ، وهي مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبة . وقد شهد في هذه المدينة غزوة من قبل الكفار ، وبعد أن غادرها وقع في الأسر . وقص باسهاب مغامراته أثناء الأسر . حتى استطاع في النهاية النجاة على يد دلشاد (القلب الفارح) وهو أحد أولياء الله . وقد سبق له حينما مر بمصر للمرة الأولى أن أخبره الشيخ أبو عبدالله المرشدي أنه سيتعرض للأسر وأن أخاه (القلب الفارح) سيفك أسره (٢) . ثم واصل سفره الى برج بوره ثم الى مدينة قنوج وهي مدينة كبيرة حصينة حسنة العمارة رخيصة الاسعار كثيرة السكر ومنها يحمل الى دلهي وعليها سور عظيم ، ثم غادر المدينة مع

---

(١) تحتل موضعها في الوقت الحاضر مدينة عليكرة .

(٢) « الرحلة » ص ٩٨ ج ٢ .

جماعته فنزلوا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالصة . ثم وصلوا الى مدينة موري وهي صغيرة ولها أسواق حسنة . ثم غادروها الى مدينة مرة ، وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار وبها القمح الطيب الذي ليس له مثيل بسواها ومنها يحمل الى دلهي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة وقد ذكر أنه لم ير قمحاً مثله إلا بأرض الصين . وهذه المدينة منسوبة الى قبيلة المأمورة وهي قبيلة من قبائل الهنود كبار الاجسام عظام الخلق حسان الصور ، لنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفرة الحظ من اللذة ، وكذا نساء المرهنة ونساء جزيرة ذيبة المهل ، ثم سافروا الى مدينة علابور وهي مدينة صغيرة أكثر سكانها من الكفار . ثم سافروا الى مدينة كاليور أو كياليز ، وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع . ثم سافروا الى مدينة بردن وهي مدينة صغيرة للمسلمين وقد تحدث عن السحرة الجوكية فيها ، فذكر أنهم يقومون بالعجائب وأن أحدهم يقيم الاشهر لا يأكل ولا يشرب ، وأن كثيراً منهم تحفر لهم حفر تحت الارض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور . وان منهم من يقتصر في أكله على البقل ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الاكثرون ، والظاهر من حالهم أنهم عوّدوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ، ثم سافر من مدينة بردن الى منزل أموراي ثم منزل كجرا (١) . ثم سافر الى مدينة حبذيري وهي مدينة عظيمة لها أسواق حافلة . ثم سافر الى مدينة مدينة ظهار وهي مدينة المالوه أكبر عمار تلك البلاد وزرعها كثير خصوصاً القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول الى دهلي وبينهما

---

(١) يعتقد جب ان مدينة كجراهي مدينة خاجوراهو Khajuraho التي تقع ٢٧ ميلا شرقي شهاترابورد (٢٥) ميلا شرقي يانه (جب ص ٣٦٣) .

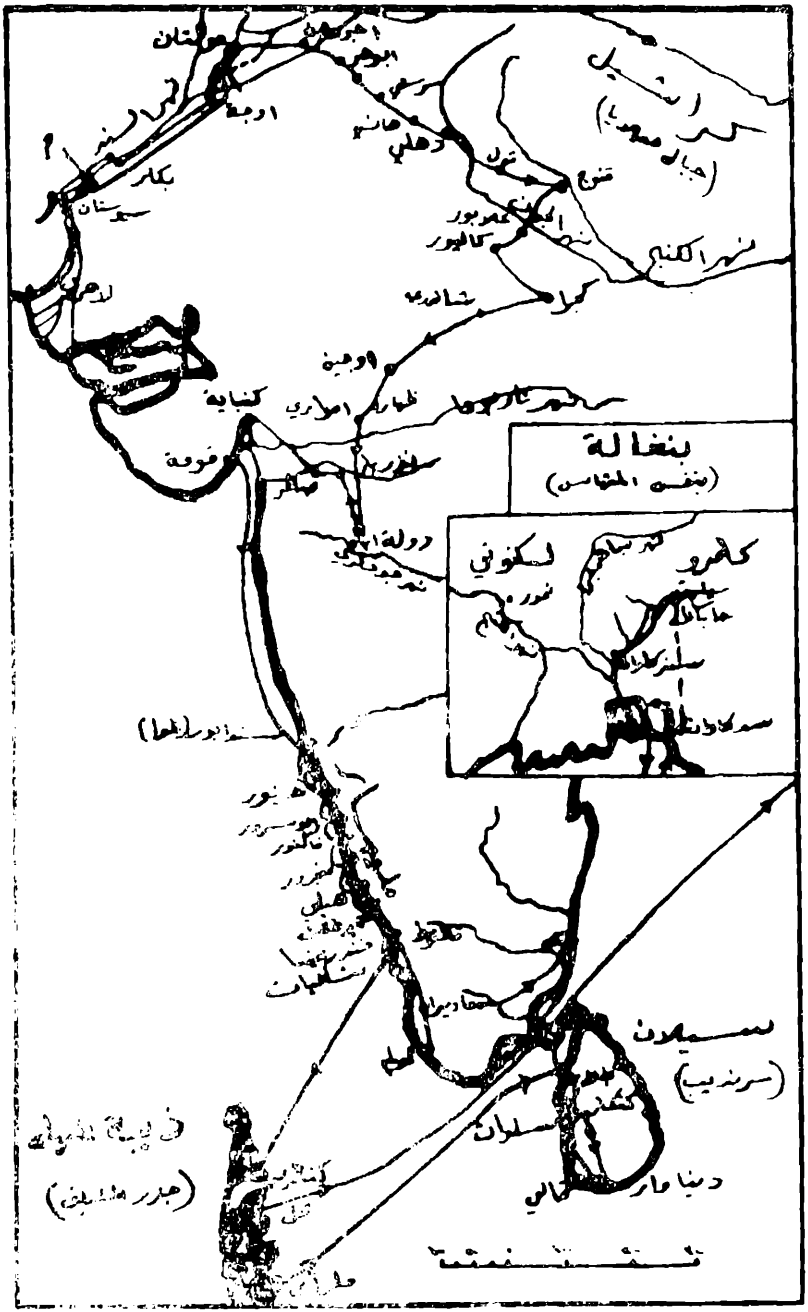

خارطة تمثل جولات ابن بطوطة في الهند وجنوب شرقي آسيا

(حققها المستشرق جب)

أربعة وعشرون يوماً ، وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين . فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه وما بقي له الى المنزل والى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الاعمدة فعرفه . ثم سافر الى مدينة آجين وهي مدينة حسنة كثيرة العمارة . ثم سافر الى مدينة دولة آباد وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية للعاصمة دهلي في رفعة شأنها واتساع خطتها ، وبها أسواق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الاسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكبيرة ، كل دكان له باب يفضي الى دار صاحبه ، وللدار باب سوى ذلك ، والحانوت مزيّن بالفرش ، وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهي متزينة بأنواع الحلي وجواريها يحركن مهدها . وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتي المغنيات طائفة بعد اخرى فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ثم ينصرف . ثم سافر إلى مدينة نذرباد وهي مدينة صغيرة يسكنها المرهنة وهم أهل الاتقان في الصنائع والاطباء والمنجمون . وشرفاء المرهنة هم البراهمة وهم الكتريون أيضاً وأكلهم الارز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة ولا ينكحون في أقاربهم إلا فيمن كان بينهم سبعة أجداد ، ولا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعائب . ثم سافر إلى مدينة صاغر وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضاً صاغر كاسمها وعليه النواعير . والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر . ثم سافر إلى مدينة كنباية (١) وهي على خور من البحر وهو شبه الوادي تدخله المراكب وبه المد والجزر

---

(١) كامبي .

وهي من أحسن المدن في اتقان البناء وعمارة المساجد ، وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء ، فهم أبداً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ، ويتنافسون في ذلك . ثم سافر إلى مدينة قندهار (١) ، وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر . ثم ركب البحر من قندهار مع الوفد المرسل إلى الصين ، ووصلوا بعد يومين إلى جزيرة بيرم وهي خالية وبينها وبين البر أربعة أميال . ثم غادروها ووصلوا في اليوم الثاني إلى مدينة قوقة ، وهي مدينة كبيرة عظيمه الأسواق . ثم غادروها فوصلوا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سندابور (٢) ، وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب وإذا كان المد فهو ملح أجاج . ثم غادروها إلى مدينة هنور (٣) وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار . والمدينة على نصف ميل من البحر . وفي أيام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد .

في بلاد المليبار :

وبعد ثلاثة أيام وصلوا إلى بلاد المليبار وهي بلاد الفلفل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم . والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار . وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر وعند كل بيت منها بئر يشرب منه

---

(١) لعلها ميناء بهانغا Bhaunagas .

(٢) غوا .

(٣) هنفار Honavar .

وهذا الطريق ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة ، ولكل انسان بستان على حدة وداره في وسطه وعلى الجميع حائط خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها الى البستان الآخر . وهكـــذا مسيرة شهرين . ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة . وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يستطع أن يركب في دولة مشى على قدميه كائناً من كان . ومن كان له رجل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالاً يحملونه على ظهورهم ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته . وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفى أعلاها مخطاف حديد ، فاذا أعيا ولم يجد دكانة يستريح عليها ركّز عوده فى الأرض وعلق حمله عليه . فاذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به . وقد أثار اعجاب ابن بطوطة الأمن المستتب بهذه البلاد .

وأول المدن التي دخلوها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل . وبعد يومين وصلوا إلى مدينة فاكنور وهي مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل له بتلك البلاد ، ثم وصلوا بعد ثلاثة أيام الى مدينة منجرور (١) وهي مدينة كبيرة على خور كبير يسمى خور الدنب وهو أكبر خور ببلاد المليبار . وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن ويكثر بها الفلفل والزنجبيل . ثم سافروا الى مدينة هيلي فوصلوها بعد يومين وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار والى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين لا تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقالقوط . ثم سافروا الى مدينة جرفتن وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ثم سافروا الى مدينة ردەفتن وهي مدينة كبيرة على خور كثير البساتين

---

(١) مونغالور Mangalore .

وبها النارجيل والفلفل والفول والتنبول وبها القلقاس الكثير . ثم سافروا الى مدينة فندرينا وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق ، وبهذه البلد تستو مراكب الصين . ثم سافر الى قالقوط (١) وهي احدى البنادر العظيمة فى بلاد المليبار ويقصدها أهل الجاوة والصين وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها أعظم مراسي الدنيا وقد أقام ابن بطوطة وجماعته فى قالقوط نحو ثلاثة أشهر فى ضيافة سلطانها ، ينظرون زمان السفر الى الصين . وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين وهي على ثلاثة أصناف فالكبير منها يسمى (جنك) والمتوسط (الزو) والصغير (اكلكم) . وحينما حان وقت السفر وتحركت المراكب هبت عاصفة حطمت المركب الذي يحمل هدية ملك الصين وقتل من فيه من أعضاء الوفد . وكان ابن بطوطة قد وضع فى مركب صغير آخر جميع متاعه وغلمانه وجواريه ، وانتظر هو على الساحل ففرّ أصحاب المركب وحملوا معهم كل شيء ، ولم يبق معه سوى عشرة دنانير والبساط الذي يفترشه . وأخبره الناس أن ذلك المركب لابد له أن يرسو في مدينة كولم ، فعزم على السفر إليها ، وبينها وبين قلقوط مسيرة عشرة في البر أو في النهر . فسافر في النهر ، وفي عادتهم أن ينزلوا بالعشي بالقرى التي على حافتيه ثم يعودوا الى المركب في الغدو . ووصلوا في اليوم الخامس الى مدينة كنجي كري وهي بأعلى جبل يسكنها اليهود وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وفي اليوم العاشر وصلوا إلى مدينة كولم (٢) (*) وهي أحسن بلاد المليبار وأسواقها

---

(١) كالكوت .

(٢) كيلون .

(*) يقول جب انه بالرغم من ان قسماً كبيراً من المسافة بين كالكوت وكولم يمكن أن تقطع -

حسان وتجارها يعرفون بالصوليين ولهم أموال عريضة . وأقام في كولم فلم يستطع أن يعثر للمركب على أثر ، فقرر أن يعود إلى السلطان ليعلمه بما اتفق لهديته . لكنه خشي أن يلومه السلطان فقرر العودة الى قالقوط وانتظار خبر مركبه . وأقام فترة في قالقوط ، ثم سافر بالبحر من قالقوط وذلك آخر فصل السفر فيه ، فكانوا يسيرون نصف النهار الأول ثم يرسون الى الغد . ووصلوا الى مدينة هنور . وأقام فيها ما يزيد على أربعة أشهر . وفي أثناء اقامته بهذه المدينة اشترك مع السلطان في غزو سندابور . وأقام فى هنور بعد فتحها فترة ، ثم سافر فى البحر من هنور إلى فاكنور ثم الى منجرور ثم الى هيلي ثم الى جرفتن ثم الى رده فتن ثم الى بدفتن ثم الى فندرينا ثم الى قالقوط ثم الى مدينة الشاليات (١) وهي من أحسن المدن ، وتصنع فيها الثياب المنسوبة إليها . وأقام بها فترة غير قصيرة ثم عاد الى قالقوط . وقد علم فى هذه المدينة أن متاعه وجواريه قد استولت عليها الأيدي وان أصحابه قد تفرقوا الى الصين والجاوة وبنجالة . فلما علم بذلك عاد الى هنور ، ثم غادرها الى سندابور فوصلها فى آخر المحرم ، وأقام بها الى الثاني من شهر ربيع الأول . وقد حوصرت المدينة أثناء اقامته فيها فغادرها عائداً الى قالقوط .

في جزر ذيبة المهل :

وعزم على السفر الى ذيبة المهل ، وكان يسمع بأخبارها ، وركب

بواسطة الأنهار الداخلية إلا أنه لا يبدو ممكناً أن تقطع المسافة بأجمعها بالطرق المائية . ويبدو أن ابن بطوطة قد أهمل ـ شأنه في الحديث عن رحلته في الصين ـ ذكر المراحل التي قطعها خلال ذلك بالطرق البرية (جب ص ٣٦٤) .

(١) وتسمي الآن بيبور Beypore .

البحر ، وبعد مرور عشرة أيام على مغادرته قالقوط وصل الى جزر ذيبه المهل وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا ، وهي نحو ألفي جزيرة . ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه ، واذا وصل المركب الى احداها فلابد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزر ، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الاخرى . فاذا أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر أو سيلان . وأهل هذه الجزائر كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهي منقسمة الى أقاليم على كل اقليم والٍ يسمونه الكودوبي . ومن أقاليمها اقليم بالبور ومنها كنلوس ومنها اقليم المهل وبها تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها . ومنها اقليم تلاديب ومنها اقليم كرايدو واقليم التيم ، ومنها اقليم تلدمتي ، ومنها اقليم هلدمتي ، ومنها اقليم برويدو ، ومنها اقليم كندكل ، ومنها اقليم ملوك ، ومنها اقليم السويد وهو اقصاها ، وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلا فى اقليم السويد ، ففيه زرع يشبه أنلي ويجلب منه الى المهل وانما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس . ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواتهم مع السمك . وذكر ابن بطوطة أن سكان هذه الجزر أبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال لضعف بنيتهم وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها .

ولقد أقام ابن بطوطة فى هذه الجزر حوالي عاماً ونصف ، وتزوج أربع نساء ، مع ان غرضه الأول من المرور بتلك الجزر هو السفر منها الي بلاد المعبر وسرنديب وبنجالة ثم الى الصين ، لكن الوزير ألحّ

عليه الحاحاً شديداً بوجوب تولي القضاء بما اضطره الى قبول ذلك . وقد وصف بالتفصيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والادارية فى تلك الجزر وقد اختلف فيما بعد مع الوزير المذكور فقرر الرحيل ، وأخذ يتنقل بين تلك الجزر من اقليم الى اقليم . وقد وصل الى جزيرة ملوك ، وأقام بها نحو سبعين يوماً وتزوج بها امرأتين وهي من أحسن الجزائر خضرة ونضارة ثم سافر من هذه الجزيرة الى بلاد المعبر (١) .

في سيلان :

وبعد تسعة أيام من مغادرله لجزيرة ملوك لاح لهم جبل سرنديب فى جزيرة سيلان ذاهباً فى السماء كأنه عمود دخان . وقد نزل مدينة بطالة (٢) وهي مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة تأتي بها السيول فتجمع بالساحل كأنها الروابي ويحملها أهل المعبر والملبيار دون ثمن . وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة . وبها أيضاً كثير من خشب البقم ومن العود الهندي المعروف بالكلخي . وقد طلب ابن بطوطة من سلطانها أن يسمح له بزيارة قدم آدم فأجابه الى طلبه وأرسل بصحبته جماعة فمروا بمنار مندلي وهي مدينة حسنة ثم ببتلاوات وهي بلدة صغيرة . ثم سافروا منها فى أوعار كثيرة المياه بها الفيلة الكثيرة ، ثم وصلوا الى مدينة كنكار (٣) ، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد ، وبناؤها فى خندق

---

(١) المقصود ببلاد المعبر شاطىء كروماندل .

(٢) بطالم Puttalam .

(٣) كورنغال Kurunegala .

بين جبلين على خور كبير يسمى خور الياقوت . لأن الياقوت يوجد به وقد ذكر ابن بطوطة ان الياقوت العجيب البهرمان يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ومنه ما يحفر عنـــه . ثم سافروا من كنكار فنزلوا بجفارة تعرف اسطى محمود اللوري . ثم رحلوا عنها فنزلوا بخور بوزنه ، وبوزنه هى القرود . والقرود بتلك الجبـال كثيرة جداً وهى سود الألوان لها أذناب طوال ، ولذكورها لحىً كما للآدميين . ثم رحلوا الى خور الخيزران ، ثم الى موضع يعرف ببيت العجوز وهو آخر العمارة . ثم رحلوا الى مغارة باباطر ، ثم الى مغارة السپيك . وقد شاهد فى هذا الموضع العلق الطيار ويسمونه لزلو . ثم رحلوا الى السبع مغارات ثم الى عقبـــة اسكندر ، ثم الى مغارة اسكندر ، ثم الى مغارة الاصفهانى وتوجد عين ماء وقلعـة غير عامرة تحتها خور يعرف بفوطة كاه عارخان ، وهناك مغارة النارنج ومغـارة السلطان وعندها دروازة الجبل أي بابه . وقد ذكر ابن بطوطة أن جبل سرنديب هو من أعلى جبال الدنيا ، وانهم لما صعدوه كانوا يرون السحاب الى الأسفل ، وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، وكذلك توجد الأزاهير الملونة والورد الأحمر . وقد أمضى فى الجبل ثلاثة أيام ثم عاد فمر فى طريقه بعدة قرى تقع على سفح الجبل حتى وصل الى مدينة دينور (١) وهى مدينة عظيمة على البحر يسكنهـا التجار . ثم سافر الى مدينة قالي (١) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور . ثم سافر الى مدينه كلنبو (٢) ، وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها .

---

(١) يعتقد جب ان المقصود بها مدينة دواندرا Dwandra (جب ص ٣٦٥) .

(٢) غاله Calle .

(٣) كولومبو .

ثم وصل بعد ثلاثة أيام الى مدينة بطالة .

في بلاد المعبر ثانية :

وسافر من بطالة قاصداً بلاد المعبر . وقد عصفت الريح بالمركب وكاد يغرق . ثم وصل ابن بطوطة وجماعته الى حصن هركاتو في بلاد المعبر . وقصد ابن بطوطة محلة السلطان ، وقد أفاض في الحديث عنه وعن قسوته الشنيعة تجاه خصومه . وبعد اقامة بضعة أشهر في محلة السلطان سافر الى مدينة فتن ، وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب ، وأقام فيها بضعة أشهر . ثم رحل الى مدينة مرة ، وهي مدينة كبيرة متسعة الشوارع . وتحدث عن الخصومات التي كانت قائمة بين أقرباء السلطان وكيف قتل بعضهم بعضاً حتى استطاع أحدهم أن يستولي على الحكم . وعاد الى مدينة فتن فوجد ثمانية مراكب برسم السفر الى اليمن ، فاستقبل أحدها . ثم وصل الى كولم فأقام فيها ثلاثة أشهر . ثم استقل المركب قاصداً هنور . ولما وصل الى الجزيرة الصغرى وبين هنور وفاكنور خرج عليه الكفار في اثني عشر مركباً حربياً فقاتلوهم قتالاً شديداً وتغلبوا عليهم . وقد سلبوا ابن بطوطة جميع ما ادخره للشدائد وأخذوا منه الجواهر والياقوت ، بل وأخذوا منه حتى ثيابه ولم يتركوا له ساتراً خلا السراويل ، وأنزلوهم بالساحل . فرجع الى قالقوط . وقد علم هناك ان زوجته التي تركها في ذيبة المهل حاملا قد ولدت له ولداً ذكراً ، فقرر السفر الى هناك . ووصل بعد عشرة أيام الى جزائر ذيبة المهل ونزل بكنلوس ثم قصد الى هيللي ، وأراد أن يأخذ ولده لكنه رأى أن من الأصلح تركه مع امه ، كما ظهر له أن

تعجيل السفر أولى . فاستقل المركب الذي ظل يبحر أربعين يوماً حتى وصل الى بنجالة .

في بنجالة :

ووجد بنغالة بلاداً واسعة كثيرة الارز ، وهي رخيصة جداً إلا أنها مظلمة . وكانت أول مدينة دخلها في تلك البلاد هي مدينة سدكاوان (١) وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم ، ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج إليه الهنود ، ونهر الجون (٢) ويصبان في البحر ، ولهم في النهر مراكب كثيرة وسافر من سد كاوان بقصد جبال كامرو . وبينهما مسيرة شهر ، وهي جبال متسعة متصلة بالصين ، وتتصل أيضاً ببلاد التبت حيث غزلان المسك . وأهل هذا الجبل يشبهون الترك وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به . وقد قصد من سفرته هذه لقاء الشيخ جلال الدين التبريزي صاحب الكرامات الكثيرة . ولما ودع الشيخ جلال الدين سافر الى مدينة حنق وهي من أكبر المدن وأحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبل كامر (٣) ويسمى النهر الأزرق (٤) ويسافر

---

(١) شيتاغونغ Chittagong .

(٢) المقصود به نهر براهموترا .

(٣) يعتقد جب ان المقصود بـ (كامر) كلمة Khamer وهي الاسم القديم لكمبوديا (جب ص ٣٦٨) .

(٤) لعل المقصود بهذا النهر ميغنا Meghna .

فيه الى بلاد البنجالة وبلاد الكلنوتي (١) وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة . وقد سافر في هـــذا النهر خمسة عشر يوماً بين القرى والبساتين فكأنما كان يمشي في سوق من الأسواق ، وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة حتى وصل الى مدينة سنركاوان (٢) .

في جزر الهند الشرقية :

ولما وصل الى سنر كاوان وجد بها چنكاً (مركباً) يريد السفر الى جاوة فاستقبله ، ووصل بعد خمسة عشر يوماً الى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب . وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون الى دين الهنود ولا الى غيره ، وسكناهم في بيوت مسقفة بحشيش الأرض على شاطيء البحر ، وعندهم كثير من أشجار الموز والفوفل والتنبول . ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب . وأما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع ورجالهم عراة ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة ، وإذا زنى رجل منهم فحد الرجل أن يصلب حتى يموت كما تقتل المرأة .

وغادر بلاد البرهنكار ، وبعد خمسة وعشرين يوماً في البحر وصل الى جزيرة الجاوة . وقد شوهدت على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارهـا النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي

---

(١) يقول جب ان لكنوتي Lakshmanawut هو الاسم القديم لمدينة غور Gawr وقد كانت عاصمة لحكام بنغالة من المسلمين (جب ص ٢٦٦) .

(٢) يذكر جب ان مدينة سنركاوان تقع حوالي ١٥ ميلا الى الجنوب الشرقي من دكا . وكانت احدى العواصم الاسلامية للبنغال (جب ص ٢٦٦) .

والبركي والعنبة والنارنج وقصب الكافور ، وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك ، والكثير من افاويه الطيب التي ببلاد الكفار انما هو منها .

ووصل ابن بطوطة الى حضرة السلطان وهي مدينة سمطرة وبينها وبين الساحل أربعة أميال . وهي مدينة كبيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب . وتحدث عن لقائه بسلطان الجزيرة ، كما تحدث بالتفصيل عن العادات في بلاطه . وأقام في سومطرة خمسة عشر يوماً ثم استأذن السلطان في السفر الى الصين فأذن له . فسافر بطول بلاده احدى وعشرين ليلة ثم وصل الى مل جاوة (١) . وهي بلاد الكفـــار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري . ثم وصل الى مدينة قاقلة وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . ورأى بخارجها الفيلة عليها الأحمال وذكر ابن بطوطة أن الفيلة بها كثيرة جداً ، وعليها يركبون ويحملون وكل انسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه الى داره .

ثم سافر في البحر فوصـــل بعد أربعة وثلاثين يوماً الى البحر الكاهل (٢) وهو الراكد وفيه حمزة زعموا انها من تربة ارض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع الساعة . ولأجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب تجذف به فتجره ، ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافاً كباراً كالصواري يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها ، ويقومون قياماً صفين ، كل صف يقابل الآخر

---

(١) يعتقد يول Yule أن المقصود بهذا الموضع شبه جزيرة الملايو ، وهو الرأي الأرجح .

(٢) اسمه بحر الصين الجنوبي .

وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس ، فتجذب احدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذب الطائفة الاخرى وهم يغنون .

ثم وصلوا الى طوالسي فعجب البحارة لذلك إذ أن الوصول اليها قد يقتضي أربعين أو خمسين يوماً . وطوالسي بلاد عريضة وملكها هو أيضاً ملك الصين ، وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها اهل الصين حتى يصالحه على شيىء ، وأهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصور أشبه الناس بالترك في صورهم . والغالب على الوانهم الحمرة ، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال ، وقد رسوا بمدينة كيلوكري وهي من احسن مدنهم . وقد تحدث ابن بطوطة عن مقابلته لملكة طوالسي ووصف بلاطها

في الصين :

ثم سافر من بلاد طوالسي في ريح مساعدة وسرعة كبيرة فوصل بعد سبعة عشر يوماً الى الصين . واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه فى ذلك اقليم من اقاليم الأرض ويخترق النهر المعروف بآب حياة ومعنى ذلك نهر الحيـــاة ، ويسمى ايضاً نهر السبر (السرد) (١) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزن ومعناه جبل القرود ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة اشهر الى أن ينتهي الى صين الصـين ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر إلا ان هذا اكثر عمارة ، عليه النواعير الكثيرة .

وقد تنقل ابن بطوطة بين مدن الصين . وأول مدينـة وصلها هي

(١) المقصود به نهر يانجستي .

مدينة الزيتون (١) وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكفار الأطلسي وتعرف بالنسبه اليها ، ومرساها من اعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها ، وقد رأى فيه نحو مائة جنك كبار ، واما الصغار فلا يحصى لها عدد . ومرساها خور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالبحر الأعظم . وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والارض وداره فى وسطها كمثل ما عليه بلدة سجلماشه ، ولهذا عظمت بلادهم . والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة .

وقد رغب ابن بطوطة في زيارة صين الصين (٢) وهم يسمونه صين كلان ، فركب في النهر مركباً يشبه المراكب الفزنويه (الأجفان) إلا ان الجذافين يجذفون فيها قياماً وجميعهم في وسط المراكب ، والركاب في المقدم والمؤخر . وقد سافر في هذا النهر سبعة وعشرين يوماً . وكان كل يوم يرسو بقرية عند الزوال فيشتري ما يحتاج اليه ثم ينزل بالعشي في اخرى حتى وصل الى مدينة صين كلان (٣) وهي مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار . وهناك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه بجمع البحرين ، وهي من اكبر المدن واحسنها أسواقاً ، ومن أعظم اسواقها سوق الفخار ، ومنها يحمل الى سائر بلاد الصين والهند واليمن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة ابواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يعقد عليها الساكنون بها . وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان واهل الزمانات ، ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من اوقاف الكنيسه ، وكذلك فيما بين الابواب كلها .

---

(١) أموي .

(٢) المقصود بها الصين الجنوبية .

(٣) كانتون .

وفي داخلها المارستان للمرضى ، والمطبخة لطبخ الاغذية وفيها الأطباء والخدام . وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة للمسلمين لهم المسجد الجامع والزاوية والسوق ، ولهم قاضي وشيخ . ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضي بينهم .

وقد ذكر ابن بطوطة أن ليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين ، وبينها وبين سد يأجوج وماجوج ستون يوماً كما ذكر له ويسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم . ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها . لكنه عقب قائلاً بأنه لم ير تلك البلاد من رأى السد المذكور ، ولا من رأى من رآه .

وفى مدينة صين كلان جاء أمر القان بوصوله الى حضرته (عاصمته) فاختار السفر عن طريق النهر . وكان يتغدى بقرية ويتعشى باخرى ووصل بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قنجنفو (١) ، وهي مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكأنها غوطة دمشق ، ولها أربعة أسوار ، يسكن ما بين السور الأول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمّارها ، ويسمون الباصوانات (الباسوانات) ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون والأمير الحاكم على البلدة ، ويسكن داخل الثالث المسلمون ، ويسكن داخل السور الرابع الصينيون وهي أعظم المدن الأربعة ، ومقدار ما بين كل باب منها وما يليه ثلاثة أميال

---

(١) يقول جب ان تقرير حقيقة مدينة قنجنفو Qan - jan - fu ما يزال غير أكيد . لكن هناك ادلة قوية تحمل على الاعتقاد بأن المقصود بهذه المدينة فوجاو Fuchow . غير أن هناك آراء عديدة حول هذه المدينة . (جب ص ٢٧١) .

وأربعة . ولكل انسان بستانه وداره وأرضه ، وقد أقام فيها خمسة عشر يوماً ثم غادرها . وبعد أربعة أيام وصل الى مدينة بيوم قطلوا (١) وهي مدينة صغيرة يسكنها الصينيون في جند وسوقة وليس بها للمسلمين إلا أربعة من أهل الدور . ثم غادرها وركب النهر يتغدى بقرية ويتعشى بقرية حتى وصل بعد سبعة عشر يوماً الى مدينة الخنساء (٢) وذكر أن هذه المدينة هي أكبر مدينة رآها على وجه الأرض ، طولها مسيرة ثلاثة أيام ، يرحل المسافر فيها . وكل واحد له بستانه وداره . وهي منقسمة الى ست مدن على كل مدينة سور ، ومحدق بالجميع سور واق ، فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة البالغون اثني عشر ألفاً وكذلك أميرهم والثانية يسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثيرون والثالثة يسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الاسلام ، وبها المساجد والمؤذنون ، والرابعة هي دار الامارة وهي مخصصة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي من أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة ، أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم وتأتي فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام واجمار الوقد ، وفيه السفن للنزهة ، والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جداً ، ودار الامارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات ، وفيه سقائق فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب . والمدينة الخامسة وهي من اكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحدائق بالصنائع وبها

---

(١) لم يستطع الباحثون ان يقرروا حقيقة هذه المدينة أو ان يهتدوا الى موضعها . (جب ص ٣٧١ - ١٧٢) .

(٢) هانغ شاو .

تصنع الثياب الخنساوية . ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست وهي من القصب . والمدينة السادسة يسكنها البحرية والصيادون والجلاقطة والنجارون والأصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير . وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم .

ثم غادر ابن بطوطة مدينة الخنسا وهي آخر أعمال الصين ودخل الى بلاد الخطا (١) وهي احسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور ، فانه ان بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبين هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوماً . وليس بها احد من المسلمين . وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر . وقد ذكر انه لم ير في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار الى عانة . وكان ينزل كل ليلة بالقرى حتى وصل الى مدينة خان بالق وتسمى ايضاً خانفو (٢) وهي حضرة القان والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا ، وهي من اعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها إنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة ، وقصيرة في وسط المدينة المختصة بسكناه واكثر عمارته بالخشب المنقوس وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب .

وقد وصف ابن بطوطة بالتفصيل القصر الملكي ثم تحدث عن

---

(١) المقصود ببلاد الخطا الصين الشمالية .

(٢) بكين .

مقتل الخان إثر حرب بينه وبين عمـــه فيروز القائم عليه بناحية قراقرام . وقد ذكر أن فيروز استولى على الملك بعد مقتل القان واختار أن يكون حضرته قراقرام . لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر . فخالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن ، فقرر ابن بطوطة مغادرة البلاد .

رحلة العودة الى الوطن

غادر ابن بطوطة مدينة خان بالق منحدراً في النهر ، فمر بالخنا ثم بقنجنفو ثم بالزيتون . ولما وصل الزيتون وجد الجنوك على أهبة السفر الى الهند ، فاستقل أحدها . وصادفتهم الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربوا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر . وأقاموا كذلك عشرة أيام لا يرون الشمس . ثم دخلوا بحراً لا يعرفونه ، وحاول أهل الجنك العودة الى الصين فلم يتمكنوا من ذلك . وأقاموا كذلك اثنين وأربعين يوماً لا يعرفون في أي البحـــار هم . وفي اليوم الثالث والأربعين ظهر لهم جبل في البحر بعد الفجر وحينما اقتربوا منه اختفى فقال البحارة انه طير الرخ . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلوا الى الجاوة ونزلوا بمدينة سومطرة واقام ابن بطوطة بهذه الجزر شهرين في ضيافة السلطان الملك الظاهر ، ووصف أعراس ولده هناك . ثم غادرها فوصل بعد أربعين يوماً الى كولم . ثم سافر من كولم الى قالقوط وأقام بها أياماً . وأراد العودة إلى دهلي لكنه خاف من ذلك . ثم ركب البحر فوصل بعد ثمان وعشرين ليلة الى ظفار وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين ثم ركب البحر فوصل الى مسقط وهي بلده صغيرة . بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس . ثم سافر الى مرسى القريات ، ثم الى مرسى شبة ، ثم الى مرسى كلبة من بلاد عمان . ثم سافر الى هرمز وأقام بها

ثلاثاً . وسافر منها في البر الى كورستان ثم الى اللار ثم الى خنج بال ثم الى كارزي وأقام بها ثلاثاً . ثم سافر الى جمكان ، ثم الى ميمن ثم الى شيراز ، ثم سافر الى ماين ، ثم الى يزدخاص ، ثم الى كليل ثم الى كشك زر ثم الى اصبهان ثم الى تستر ثم الى الحويزاء ثم الى البصرة . ثم سافر الى النجف ، ثم الى الكوفة ، ثم الى الحلة ، ثم الى صرصر ، ثم الى بغداد حيث وصلها في شوال سنة ثمان وأربعين ثم غادر بغداد فمر بالأنبار (١) ثم بهيت ثم بحديثة ، ثم بعانة ، وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها ، والطريق فيما بينها كثيرة العمارة كان الماشي بها في سوق من الاسواق . ثم وصل الى مدينة الرحبة وهي آخر بلاد العراق وأول بلاد الشام . ثم سافر الى بلدة السخنة وهي حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى ، وانما سميت السخنة لحرارة مائها . وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمون بها . ثم سافر الى مدينة تدمر ، ثم الى مدينة الشام . وكانت مدة مغيبه عنها عشرين سنة كاملة ، وقد ترك بها زوجته حاملاً . وقد سأل عن ولده فعلم انه توفي منذ اثني عشر سنة ، وعلم أيضاً أن والده توفي منذ خمسة عشر سنة . لكن أمه ما تزال على قيد الحياة . وأقام في دمشق بقية العام وكان الغلاء فيها على اشده . ثم سافر من دمشق الى حمص ، ثم الى حماه ثم الى المزة ثم الى سرمين ثم الى حلب . وفي أوائل شهر ربيع الأول عام ٣٤٩ بلغه الخبر في حلب أن الوباء وقع بغزة ، وأن عدد الموتى قد زاد على ألف في اليوم فسافر الى حمص فوجد الوباء قد وقع فيها ، ومات يوم دخوله لها نحو ثلاثمائة انسان . فسافر الى دمشق وكان

---

(١) كانت الأنبار احدى المدن الرئيسية على رأس قناة عيسى التي كانت تربط الفرات بدجلة .

الوباء قد اجتاحها فبلغ عدد الموتى ألفين وأربعمائة في اليوم . ثم سافر الى عجلون ثم الى بيت المقدس فوجد الوباء قد ارتفع عنهم . ومرّ بالخليل ، ثم بارحها إلى غزة فوجد معظمها خالياً لكثرة من مات منهم بالوباء . ثم سافر بالبر فوصل الى دمياط . ثم غادرها ومر بفارسكور وسمنود وأبي صير . ثم سافر الى المحلة الكبيرة ، ثم الى النحرارية ثم الى أبيار ثم الى دمنهور ثم الى الاسكندرية فوجد الوباء قد خف بها بعد أن بلغ عدد الموتى ألف وثمانين في اليوم . ثم سافر الى القاهرة وبلغه أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى الى واحد وعشرين ألفاً في اليوم ثم سافر الى بلاد الصعيد فوصل الى عيذاب . ثم غادرها عن طريق البحر فوصل الى جدة . ثم سافر الى مكة فوصلها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين . ثم سافر الى المدينة ، ثم الى العلا وتبوك ثم الى بيت المقدس ، ثم الى الخليل ، ثم الى غزة ، ثم الى منازل الرمل ، ثم الى القاهرة . وهناك هزه الشوق الى الوطن فركب البحر في قرقورة صغيرة لبعض التونسيين وذلك في صفر سنة خمسين ، وسار حتى نزل بجربة . ثم سافر المركب المذكور إلى تونس فاستولى العدو عليه . ثم سافر بمركب صغير إلى قابس ثم توجه بالبحر إلى بليانة ومنها سار في البر مع العرب فوصل بعد مشقات الى تونس ، وكان العرب يحاصرونها . وأقام فيها ست وثلاثين يوماً . ثم سافر من تونس في البحر مع القطلانيين فوصل الى جزيرة سردينية من جزر الروم . ولها مرسى عجيب عليها خشب كبار دائرة به وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا باذن منهم ، وفيها حصون فيها أسواق كثيرة . ثم رحل عنها فوصل بعد عشرة أيام الى مدينة كنس . ثم غادرها الى مازونة . ثم الى مستغانم ، ثم الى تلمسان ، ثم وصل الى مدينة تازي ، وبها تعرف

خبر موت والدته بالوباء . ثم غادر تازي فوصل يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى حضرة فاس ، حيث مثل بين يدي السلطان أبي عنان . ثم سافر الى بلدة طنجة لزيارة قبر الوالدة ثم توجه الى مدينـــة سبتة فأقام بها شهوراً لمرض ألمّ به ثم تعافى منه .

-٢-

الرحلة الأندلسية

أراد ابن بطوطة أثناء اقامته بمدينة سبتة أن يكون له حظ من الجهاد والرباط ، فركب البحر من سبتة فوصل الى بلاد الاندلس . وأول بلد شاهده من البلاد الاندلسية جبل الفتح (١) ثم خرج منه الى مدينة أندة وهي أمنع معاقل المسلمين واجملها وضعاً . ثم سافر منهـــا الى مدينة مربلة ، والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة . ومربلة بلدة حسنة خصبة . ثم سافر الى مدينة مالقة أحدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه كالعنب والرمان الذي لا مثيل له في الدنيـــا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن احوازها الى بلاد المشرق والمغرب . وبمالقه يصنع الفخار المذهب ويجلب منها الى اقاصي البلاد ، ومسجدها كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظير له في الحسن ، فيـــه اشجار النارنج البعيدة ثم سافر منها الى مدينة بلش وبينهما اربعة وعشرين ميلاً ، وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الاعناب والفواكه والتين . ثم سافر الى الحمة وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين

(١) المقصود بجبل الفتح جبل طارق .

الحارة . ثم سافر منها الى غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شنل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنان والريضان والقصور ، والكروم محدقة بها من كل جهة . وفي عجيب مواصفها عين الدمع ، وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثيل له سواها .

ثم رحل من غرناطة الى الحمة ، ثم الى مالقة ، ثم الى حصن بلش ، ثم الى ذكوان ، وهو حصن حسن كثيرة المياه والاشجار والفواكه ثم سافر منه الى رفدة ثم الى قرية بني رياح ، ثم الى جبل الفتح . ثم سافر منها الى أصيلا فأقام بها شهوراً . ثم سافر منها فوصل الى مدينة مراكش وهي من أجمل المدن فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات ، بها المساجد الضخمة وبها الصومعة الهائلة العجيبة . وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة . وقد استولى الخراب على معظم احياء المدينة . ثم سافر من مراكش بصحبة ركاب السلطان الى مدينه سلا ، ثم الى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها فوصل الى حضرة فاس .

- ٣ -

الرحلة الأفريقية *

ودع ابن بطوطة في مدينة فاس السلطان أبي عنان وتوجه برسم السفر الى بلاد السودان ، فوصل الى مدينة سجلماسة (١) ، وهي من احسن المدن ، وبها التمر الكثير الطيب ، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر ، لكن تمر سجلماسة أطيب ايراداً منه ولا نظير له فى البلاد . ومنها اشترى الجمال وعلفها لأربعة اشهر . ثم سافر في غرة شهر محرم سنة ثلاث وخمسين فوصل بعد خمسةو عشرين الى تغازي (٢) وهي قرية لا خير فيها . ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ، ولا شجر بهـــا إنما هي رمل فيه معدن الملح ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة . وتزودوا من تغازي بالماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشره لا ماء فيها . وتكثر الكمأة بتلك الصحراء ، كما يكثر القمل بهـا حتى يجعل الناس في اعناقهم خيوطاً فيها الزئبق فيقتلها .

(*) اعتمدنا على جب فى تحديد مواضع المدن الافريقية .

(١) تقع آثارها على وادي زيز على بعد (٥) أميال من مدينة تغلبت .

(٢) تقع تغازي الى الشمال الغربي من تودني .

وكان ابن بطوطة وجماعة في تلك الأيام يتقدمون امام القافلة فاذا وجدوا مكاناً يصلح للمرعي رعت القافلة دوابها . ثم وصلوا تاسرهلا وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون سقيتهم ويملؤونها بالماء ويخطون عليها التلاليس خوف الريح . ومن هناك يبعث التكشيف . والتكشيف اسم رجل من مسوفة يكتريه اهل القافلة فيتقدم الى ايوالاتن يكتب الناس الى اصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء . وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منها . وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح فيها الصدر وتطيب النفس ، وهي آمنة من السراق ، وتكثر البقر الوحشية فيها ، كما تكثر فيها أيضاً الحيّات . ثم وصلوا الى مدينة ايوالاتن (١) في غرة شهر ربيع الأول بعد شهرين كاملين من سجلماسة ، وهي أول عمالة السودان ، واهلها يحترفون البيض . وبلدة ايوالاتن شديدة الحر . وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ، وثياب أهلها حسان مصرية . واكثر السكان بها مسوفة ، ولنسائها الجمال الفائق وهن اعظم شأناً من الرجال . وأقام ابن بطوطة في ايوالاتن نحو خمسين يوماً . وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن وصلوا الى قرية زاغري (٢) وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون دنجراته ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضيه من الخوارج ويسمون صفنغو ، والسنيون المالكيون من

---

(١) ان ايوالاتن هي جمع والاتا . وتظهر الخرائط الحديثة موضعين باسم والاتة . ويبدو أن ايوالاتن التي ذكرها ابن بطوطة هي الموضع الجنوبي الواقع على خط عرض ٢ ر ١٧ شمالا و ٤٤ و ٤ غرباً .

(٢) من المعتقد أن قرية ديوارا تحل محل زاغري في الوقت الحاضر .

البيض يسمون عندهم توري . ومن هذه القرية يجلب آنلي الى ايوالاتن ثم ساروا من زاغري فوصلوا الى النهر الأعظم وهو النيل (١) وعليه بلدة كارسخو (٢) . والنيل ينحدر منها الى كابرة ثم الى زاغة . ثم ينحدر النيل من زاغة (٣) إلى تنبكتو ثم الى كوكو (٤) ثم الى بلدة مولي (٥) من بلاد الليمين وهي آخر عمالة مالي ، ثم الى يوفي (٦) وهي من أكبر بلاد السودان ولا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه ، ثم ينحدر الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ، ثم الى دنقلة وهي أكبر بلادهم . ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر . وقد رأى التمساح لاول مرة في النهر في بلدة كارسخو . ثم سافر من كارسخو فوصل الى نهر صنصرة وهو على نحو عشرة أميال من مالي ، وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا باذن . وقد أقام في مالي (٧) بضعة أشهر وتحدث عن سلطانها منس سليمان وعن

---

(١) المقصود به نهر النيجر .

(٢) لقد اعتبر المستشرق ديلافوس Delefosse مدينة كارسخو مقابلة لكلمة كارا ـ ساخو kara - sekho أي سوق كارا . ويقابل موضعها في الوقت الحاضر بلدة كونجوكورو kongokuru على الضفة اليسرى من نهر النيجر شمالي كارا .

(٣) يطلق على زاغة في الحقيقة اسم جاكا Jaka أو جاغا Jaga (Piaga) وتقع على مسيرة نصف يوم شمالي جافارابا Jafaraba على الرافد الشمالي الغربي لنهر النيجر .

(٤) ان كوكو أو جوجو هي إما أن تكون كوكا koka على بحيرة فيتري Fitri الى الجنوب الشرقي من كانم أو أن تكون بلدة كوكا في بورونو (جب ص ٣٨٣) .

(٥) ان بلدة مولي هي المنطقة المسماة موري Muri على الضفة اليسرى لنهر النيجر حوالي نيامي

(٦) ان يوفي هي مدينة نيوب Nupe التي تقع على الضفة اليسرى من نهر النيجر بين بلدتي جبا ولاكوجا .

(٧) هناك عدة آراء حول حقيقة مدينة مالي . ويبدو أن الأبحاث الحديثة قد اثبتت هي مدينة

بلاطه ونظامه الادارى ، كما تحدث باسهاب عن الاحوال الاجتماعية في مملكة مالي . وكان دخوله الى مالي في الرابع عشر لجمادي الاولى سنة ثلاث وخمسين . وكانت له جمل يركبها لان الخيل غالية الاثمان يساوي أحدها مائة مثقال . ووصل الى خليج كبير يخرج من النيل ولا يجاز إلا في المراكب . وذلك الموضع كثير البعوض . فلا يمر أحد به إلا في الليل . وقد شاهد في ذلك الخليج لاول مرة فرس البحر ، ووصف طريقة صيده من قبل السكان ، ونزل عند هذا الخليج بقرية كبيرة . ثم غادر تلك القرية فوصل الى بلدة قرى منسا (١) . ثم غادرها الى بلدة ميمة . ثم سافر منها الى مدينة تنبكتو ، وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر أهلها مسوفة أهل اللثام ومن تنبكتو ركب النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة . وكان ينزل كل ليلة بالقرى ، فيشتري ما يحتاج من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبجلى الزجاج . ثم وصل الى بلدة نسي اسمها . ثم سار من تلك البلدة الى مدينة كوكو (٢) وهي مدينة على النيل من أحسن مدن السودان وأكثرها وأخصبها ، فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك ، وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع ، وكذلك حال أهل مالي . وقد أقام فيها شهراً ثم سافر منها

نياني Niyani وانها كانت تقع قرب قرية نياني الحالية على الضفة اليسرى لنهر سانكاراني Sankarani الى الشمال من بالاندوغو Balandugu والى الجنوب من جليبا Jeliba .

(١) من المعتقد ان قرى منسا تقع بالقرب من قريتي كوكري Kokri وماسامانا Massamana الى الشمال الشرقي من سانساندينغ sansanding وهي ليست بعيدة عن بلدة كارسخو التي توقف عندها ابن بطوطة .

(٢) لعل مدينة كوكو تحريفاً من الاسم الأصلي كوغا Kugha ، وكانت هذه البلدة مركزاً تجارياً هاماً للطريق التجاري القاري بالاضافة الى الطريق القادم من الشمال الشرقي والآتي من الغرب والذي يعبر الصحراء الكبرى وهو طريق الملح .

برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للقداميين . ثم وصلت القافلة الى بلاد بردامة ، وهي قبيلة في البربر ، ولا تسير القوافل إلا في خفارتهم والمرأة عندهم أعظم شأناً من الرجل ، وهم رحالة لا يقيمون . وبيوتهم غريبة الشكل ، ويقيمون أعواداً من الخشب ويصنعون عليها الحصر ، وفوق ذلك أعواد متشبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن . ونساؤهم أتم النساء جمالاً وأبدعهم صوراً ، مع البياض الناصع والسمرة ، وطعامهن حليب البقر وجرش الذرة يشربنه مخلوطاً بالماء غير مطبوخ عند الصباح والمساء . ومن أراد التزوج فيهن سكن بهن في اقرب البلاد اليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا ايوالاتن . وقد مرض ابن بطوطة في هذه الجهات بسبب اشتداد الحرب . ثم غادرها مع الركب فوصلوا الى مدينة تكدا (١) ، وديارها مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك . ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ، وهي كثيرة العقارب ، ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون كل ما بهـا من حسان الثياب وسواها ولأهلها رفاهية وسعة حال ، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالي وايوالاتن . ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون إلى البلد فيسبكونه في درهم ، وبفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فاذا سبكوه نحاساً أصفر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ . وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن

(١) كانت مدينة تكدا في ذلك الوقت أضخم مدينة في بلاد الطوارق أو هي تقع الى الجنوب من أغادس .

والقمح . ويحملون السمن منها إلى مدينة كوبر (١) من بلاد الكفارة والى زغاري والى بلاد برنو (٢) ، وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدّا ، ومن تلك البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب المجسدة ويحمل النحاس منها أيضاً الى جوجرة وبلاد الموريتيين وسواها .

وقرر ابن بطوطة السفر من تكدّا إلى توات فأعدوا زاد سبعين ليلة ، إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات انما يوجد اللحم واللبن والسمن يشتري بالأثواب . وخرج من تكدا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة في رفقة كبيرة فوصلوا الى كاهر من بلاد السلطان الكركري ، وهي أرض كثيرة الأعشاب ، يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحمله أهل توات الى بلادهم . ثم دخلوا منها الى برية لا عمارة فيها إلا أن بها الماء ، ثم وصلوا الى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخر الى ديار مصر وطريق توات . وهناك احساء ماء يجري على الحديد ، فاذا غسل به الثوب الأبيض أسودّ لونه .

وساروا من هنالك عشرة أيام فوصلوا الى بلاد هكار (٣) ، وهم طائفة من البربر ملثمون . وكان وصولهم في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل . وإذا وجد سراقها المتاع في الطريق في رمضان لم يعرضوا له ، وكذلك حال جميع من بهذه الطريق من البربر . وساروا في بلاد هكار شهراً ، وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر . ووصلوا يوم عيد الفطر الى بلاد برابرة أهل لثام كهؤلاء . ثم وصلوا

---

(١) يقصد بمدينة كوبر بلدة Cobir وهي تقع الى الشمال من سوكوتو Sokoto .

(٢) يقصد ببلدة برنو مدينة كانم kaneM وليست مدينة بورنو Burnu في نيجيريا .

(٣) ان هكار هي قبيلة الطوارة التي تقطن الهضبة الوسطى من الصحراء العربية الكبرى وجبال الأطلس القديمة التي تسمى في الوقت الحاضر أهجار .

بعد ذلك الى بواد وهي من أكبر قرى توات ، وأرضها رمال وسباخ وثمرها كثير ليس بطيب ، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت ، وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب . وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزنون التمر ويقاتلون به ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس لأنه لا يطير بسبب البرد . وأقاموا بها أياماً ثم رحلوا الى سجلماسه ووصلوها في أواسط ذي القعدة . ثم غادرها ابن بطوطة في أوائل ذي الحجة ، وكان أوان البرد الشديد ، ونزل بالطريق ثلج . ويقول ابن بطوطة أنه رأى الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك فلم ير أصعب من طريق أم جنيبة . ووصل ليلة عيد الأضحى الى دار الطمع فأقام فيها يوماً ثم غادرها فوصل الى فاس . واستقر بشكل نهائي في كنف السلطان أبي عنان .

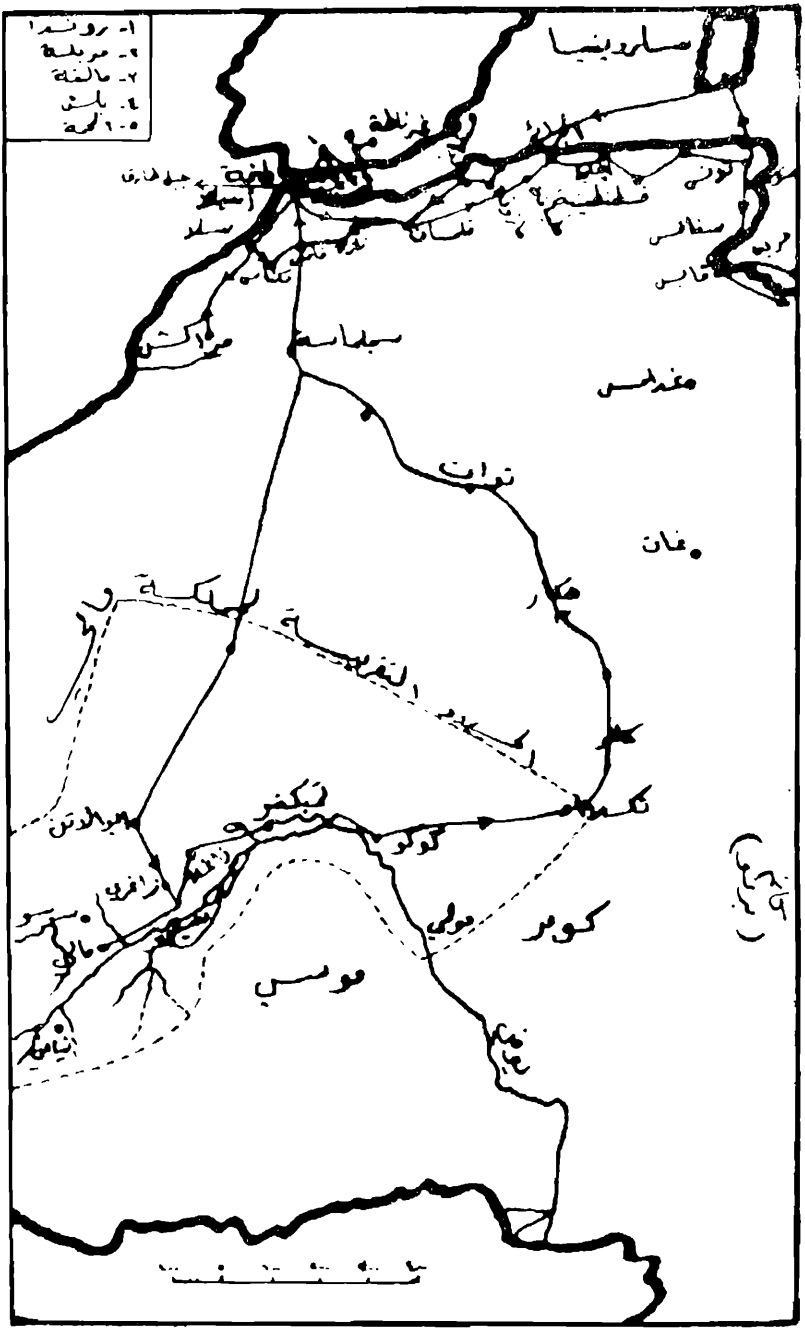

خارطة تمثل جولات ابن بطوطة في شمال وغربي افريقيا

(حققها المستشرق جب)

الباب الثاني

رحلة ابن بطوطة

كتابة الرحلة

تبين لنا في الفصول السابقه أن ابن بطوطة كان يمثل الرحالة المثالي الذي يضرب في انحاء الارض ليشبع فيه غريزة حب الاستطلاع وليشاهد اكبر عدد ممكن من البلدان والشعوب ، وانه لم يكن يهدف الى غرض علمي أو تجاري . ولما عاد الى وطنه واتصل ببلاد السلطان أبي عنان راح يروي للملأ حكاياته ومشاهداته . فاستهوت تلك الحكايات السلطان أبي عنان ونفذت إشارته الكريمة في تدوين ما شاهده من أمصار وما علق بحفظه في نوادر أخبار الملوك والعلماء والأولياء . ويبدو ان ابن بطوطة لم يكن ينوي كتابة مشاهداته ، ولولا أوامر السلطان مافكر في ذلك ، فهو إذن يختلف عن الرحالة الآخرين الذين عزموا منذ البداية على تدوين مشاهداتهم كابن جبير وابن سعيد والبغدادي وغيرهم . وقد اعتذر بلباقة غير مرة عما قد يبدو من ثغرات في « رحلته » فأشار الى ضياع أوراقه حينما سلبه كفار الهنود في البحر (١) مما اضطره الى الاعتماد كلياً على على ذاكرته . ويكاد يتفق جميع من كتبوا عنه أنه قد أملى « رحلته » من الذاكرة (٢) ، وأن ابن جزي قد تولى تنقحها بأمر من السلطان نفسه (٣) . وسنحاول في هذا الفصل أن نمتحن صدق ادعاء ابن بطوطة في اعتماده المطلق على ذاكرته ، وسنرى اذا كان قد اعتمد على مراجع اخرى بالاضافة الى ذاكرته .

ولابد لنا أن نبدأ بتمحيص ذاكرة ابن بطوطة . لقد ذكر جب Gibb أن ذاكرة ابن بطوطة ، (قد دربت بشكل ممتاز حسب النظام

---

(١) « الرحلة » ص ٢٣٨ ج ١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٨ ج ١ .

(٣) راجع « جب » ص ٤ و ١٢ وكراتشكوفسكي ص ٤٢٨ .

المألوف للتعليم الديني حيث ينبغي أن يستظهر عدداً كبيراً من الكتب (١)) .
واكد كراتشكوفسكي أن ابن بطوطة (كان يتمتع بذاكرة ممتازة شأنه في هذا شأن جميع ممثلي الثقافة العربية لذلك العهد (٢)) .
وهكذا ربط جب وكراتشكوفسكي ذاكرة ابن بطوطة بالنظام التعليمي الذي كان سائداً في ذلك العهد ، وهو نظام يعتمد على استظهار النصوص . لكننا نجد من الصعب الاقتناع بأن ذلك النظام وتلك الذاكرة كفيلان بجعل ابن بطوطة قادراً على الاحتفاظ بهذا التسلسل المذهل الذي ورد في « رحلته » لاسماء المواضع والملوك والسلاطين والشيوخ والاولياء والأرقام والمسافات والتواريخ ، فضلاً عن الحوادث العرضيه بدقائقها وتفاصيلها الكاملة . ولقد اشتملت « رحلته » التي تجاوزت الخمسمائة صفحة من القطع الكبير على معدل لايقل عن عشرة اسماء في كل صفحة للمواضع والاشخاص ، وأغلبها اعجمية وغريبة عليه كالاسماء الهندية والتركية والصينية وحتى الفارسية . ومما يزيد في صعوبة تذكرها عنصر الزمن الذي يتفاوت بين ربع قرن وبضعة سنوات . وسندرج في الصفحات التالية نماذج توضح نوع التفصيلات والاسماء التي يزعم أنها علقت بذاكرته . قال يتحدث عن دراسته في دمشق :

(سمعت بجامع بني امية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الأصاغر بالاكابر شهاب الدين احمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين مقريء الصالحي المعروف بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلساً أولها يوم الثلاثاء ، منتصف

---

(١) « جب » ص ١٢ .

(٢) كراتشكوفسكي ص ٤٢٨ .

شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي الأصل الدمشقي في جماعة كبيرة كتب اسماءهم محمد بن طغرل بك بن عبدالله بن الغزال الصيرفي سماع الشيخ أبي العباس الحجازي بجميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن ابي بكر المبارك بن محمد ابن يحيى بن علي بن المسيح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ، وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين أبي الحسن محمد بن احمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ . وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن رؤبة القلانسي العطـــار البغدادي ومن باب غيرة النساء ووجدهن الى آخر الكتاب من أبي المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيـــد بن اللتي الخزاعي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ شديد الدين أبى الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السزي الهروي الصوفي في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد . قال أخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي قراءة عليه وأنا أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة قال : أخبرنا أبو محمد بن عبد لله بن احمد بن حويه بن يوسف بن أيمن السرخسي قراءة عليـــه وأنا اسمع في صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر ابن ابراهيم العزيزي قراءة عليه وأنا اسمع سنة ستة عشر وثلاثمائة بغرير قال أخبرنا الامام أبو عبد الله بن محمد بن اسماعيل البخاري

رضي الله عنه سنة ستة وثمانين واربعين ومائتين بغرير ومرة ثانيه وبعدها سنة ثلاث وخمسين . وممن أجازني من أهل دمشق إجازة الشيخ أبو عبدالله الحجازي المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لي بـه . ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد المقدسي ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة . ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي . ومنهم إمام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف المزني الكبي حافظ الحفّاظ ، ومنهم الامـام علاء الدين علي بن يوسف ابن محمد بن عبد الله الشافعي . والشيخ الامام الشريف محيي الدين بن يحيى بن علي العلوي . ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم ابن عبد الله أبي عبد الله المعلى الدمشقي ، ومولده سنة أربـع وخمسين وستمائة ، ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم ابن فلاح بن محمد الاسكندري . ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعـالى شمس الدين بن عبد الله بن عامر . والشيخان الأخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي . والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري . والشيخة الصالحة ام محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الجراني والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين احمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي . كل هؤلاء أجازوني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق) (١) .

وقال يتحدث عمن لقيهم من الناس في مدينة القرم :

(ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائل قاضي

---

(١) « الرحلة » ص ٦٥ - ٦٧ ج ١ .

الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الأصي وخطيب الشافعيه أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمّره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة . والشيخ الحكيم الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين) (١) .

وقال يتحدث عمن اجتمع بهم من الغرباء الوافدين على ملك الهند في مدينة ملتان : (فمنهم خداوند زادة قوام الدين قاضي ترمذ قدم بأهله وولده . ثم ورد عليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين . ومنهم مبارك شاه احد كبار سمرقند . ومنهم إرن بغا أحد كبار بخارى ، ومنهم ملك زادة ابن اخت خداوند زادة وبدر الدين الفصال وكل واحد من هؤلاء معه اصحابه وخدامه واتباعه . ولما مضى من وصولنا ملتان شهران وصل احد حجـــاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجي والملك محمد الهروي الكتوال بعثهما السلطان لاستقبال زوجة خدواند زارة المذكور) (٢) .

ويحمل ابن بطوطة ذاكرته ما يتجافى مع منطق الأمور حينمـــا يورد بين حين وآخر عبارات قيلت قبل عشرين عاماً وبلغة لايحسنها . ومثـال ذلك وصفه لمشهد حرق إحدى الارامل حيث يذكر بأن تلك المرأة نزعت الملحفة من ايدي الرجال الذين يحجبون منظر النار عنها وقالت لهم : (ماو ميتراساني أزاطش من ميدانم اواطيش است رهاكني ما رادعي) (٣) .

ومن الامثلة الاخرى ما يتعلق بكرم السلطان محمد شاه حيث أورد

---

(١) « الرحلة » ، ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٩ ج ٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥ .

الحكاية التالية : (وسأل السلطان في ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو ، فقال له بهاء الدين ابن الفلكي ياخوند عالم نميدا ، ومعنـــاه ماندري . ثم قال شنيدم زحمت دارد (دار) . ومعناه سمعت أن به مرضاً . فقال له السلطان : بروهمين زمان در خزانه يك لك تنكة زربكزي أوبيس بيري تادل أوخش (خوش) شود ومعناه امش الساعه إلى الخزانة وخذ منها مائة الف تنكة من الذهب واحملهـا اليه حتى نسيانه : يبقى خاطره طيباً) (١) .

والأمر الملفت للنظر أنه هو نفسه يقدم لنا البراهين على أن ذاكرته عرضة للنسيان شأنه شأن غيره من البشر . فهو يذكر بين الحين والآخر أنه قد نسي أمراً من الامور ، وان اعتبر بعض الكتـاب ذلك شاهداً على أمانته (٢) . لكن الأمر غير المفهوم هو كيف يمكن أن ينسى صاحب ذاكرة خارقة مثله اموراً عادية يسهل تذكرها ، بينما يتذكر قوائم طويلة لمختلف أسماء المواضع والأشخاص ؟ ! ولقد سجلنا الأمثلة التالية على نسيانه قال يتحدث عن تنقله بين المدن المصرية : (وسافرت منها الى مدينة أرمنت . . أضافني قاضيها وأنسيت اسمه) (٣) .

وقال يتحدث عن رحلته الى القسطنطينة : (وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا نثبت الآن اسمها ذات أنهار وأشجار) (٤) .

وقال متحدثاً عن أحد امراء الهند : (وكان جلوس هـذا الأمير

---

(١) « الرحلة » ص ٤٢ .

(٢) « دائرة المعارف » - نشر أنيس المقدسي ، بيروت ١٩٥٨ ص ٣٦٩ .

(٣) « الرحلة » ص ٣٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضي ويسمى سالار والخطيب ولا أذكر اسمه) (١) .

وقال متحدثاً عن احدى مدن الهند : (مدينة سرستي مدينة كبيرة كثيرة الارز ، وارزها طيب ومنها يحمل الى حضرة دهلي ، ولها بجي كثير جداً . أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته) (٢)

وقال متحدثاً عن كرم ملك الهند محمد شاه طغلق حينما سمع بوفاة قاضي ملتان : (فلما بلغ الخبر الى الملك أمر أن يبعث الى أولاده عدداً من آلاف الدنانير لا أذكره الآن) (٣) .

وقال متحدثاً عن زيارته لمدينة بلخ : (وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزوقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضاً قبوراً كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن) (٤) .

وقال متحدثاً عن ضيافة سلطان الهند له : (وأتوا تلك الليلة برجلين احدهما الطاحوني ويسمونه الخراجي والثاني الجزار ويسمونه القصاب ، فقالوا لتأخذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ، ومن هذا كذا وكذا من اللحم لأوزان لا أذكرها الآن) (٥) .

وقال متحدثاً عن تنقلاته بين مدن بلاد الشام . (ثم سافرت من طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار بأعلى تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة الى بعض كبراء الامراء

---

(١) المصدر السابق ص ٩ ج ٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ ج ١ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٦ ج ٢

ونزلت عند قاضيها ولا أحقُّ الآن اسمه) (١) .

وقال متحدثاً عن مدينة تعز : (وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره) (٢) .

وقال متحدثاً عن رحلته في بلاد السودان الغربي : (وثم وصلت الى بلد نسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فوبا سليمان) (٣) .

تلك هي المواضع التي خانت فيهـــا ابن بطوطه ذاكرته خلال « الرحلة » بأجمعها . ولسنا نجد سبباً معيناً دفعه للاعتراف بهذا النسيان كما لا نستطيع أن نفهم بالضبط لماذا نسي تلك الامور بالذات من بين آلاف الاسماء والاحداث الصغيرة والكبيرة . وهل هي الوحيـدة التي نسيها بالفعل . بل ان من الغريب حقاً أن ينسى اسم ذلك البلـد في السودان مع انه لم يمض على رحلته في تلك البلاد أكثر من عام ، بينما يتذكر أسماء مدن أعجمية مضى ما يقرب من ربع قرن على مروره بها وإذا كان قد أضاع أوراقه التي سجل فيها ملاحظاته عن رحلته الآسيوية الكبرى فاضطر أن يملي من الذاكرة ، فما الذي دعاه الى اتباع ذات الاسلوب للرحلة الافريقية ، وهي آخر رحلة قام بها بتكليف من السلطان أبي عنان نفسه ؟ ! .

ويتفق الباحثون على أن ذاكرة ابن بطوطة وان كانت ممتازة إلا انها كانت توقعه في كثير من الخلط والنسيان . يقول جب : (وفي احاديثه عن رحلاته

---

(١) « الرحلة » ص ٢٤٥ ج ١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦ ج ٢ .

يخطىء بعض الأحيان في ترتيب المدن وكثيراً ما يترك نفسه في الهواء يفصله فراغ من مئات الأميال . وهو يذكر أسماء خاطئة في مواضع عديدة لا سيما حينما يتحدث عن الأقطار غير الاسلامية حيث تخذله معرفته باللغة العربية أو الفارسية . وهذا ما يحدث أيضاً عند ذكره لبعض الحوادث التاريخية) (١) .

ويقول كراتشكوفسكي : (ان ابن بطوطة أسبغ على روايته في بعض الاحايين دقة خيالية لا تمت للحقيقة بسبب وذلك فيما يتعلق بتحديده للمسافات والاماكن مما كان قد أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له) (٢) .

ان الذاكرة التي تتعرض للنسيان في التواريخ والاحداث وتسلسل المدن لا يمكن أن يركن الى احتفاظها بآلاف المدن وبأدق التفصيلات وبعبارة أوضح فاننا لا يمكن أن نجزم بأنها ذاكرة خارقة . ومما يؤيد هذا الزعم أن ابن بطوطه لم يستطع أن يتعلم اللغة الهندية المحلية بالرغم من أن اقامته في الهند امتدت الى أكثر من ثمان سنوات وفي ذلك يقول كراتشكوفسكي : (ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التي زارها ، وفيما عدا العربية كان ملماً ببعض الفارسية وربما التركية كذلك ، إلا أن معرفته بلغات الهند وقفت في الواقع عند حد الالفاظ المحدودة التي كان يجب أن يعرضها من حين لآخر ، ولكن التوفيق جانبه في معظم الاحيان) (٣) .

ثم ان « الرحلة » تشتمل بالاضافة الى رواية مشاهداته في البلدان

---

(١) « جب » ، ص ١٢ .

(٢) كراتشكوفسكي ص ٤٢٧ .

(٣) كراتشكوفسكي ص ٤٢٨

ولقاءاته مع الشيوخ والسلاطين والاولياء على سرد لبعض الاحـــداث التاريخية . ومثال ذلك حديثة عن بناء مسجد الرسول (ص) (١) ، وحديثة عن فتوحات جنكيزخان (٢) ، وحديثة المفصل عن تاريخ الهند المعاصر منذ استولى المسلمون على مدينة دلهي سنة ٥٨٤ هـ حتى عهد محمد طغرل شاه (٣) ، وهو حديث حافل بالاسماء والتواريخ والاحداث وحديثه عن المتلبين على الملك في العراق العربي والعجمي بعد موت السلطان أبي سعيد ، وغير ذلك من الاشارات المفصلة أو الموجزة الى أحداث العصر . فكيف أمكنه أن يذكر كل تلك الاحداث من دون الرجوع الى ملاحظات مدونة أو الى المراجع التأريخية ؟ !

وهكذا نجد أنفسنا أمام افتراضين : فأما أن تكون الكثير من المعلومات التي وردت في « الرحلة » مختلفة ، ولا سيما ما يتعلق بأسماء الاشخاص الذين تجاوز عددهم الآلاف بين سلطان ووزير وشيخ وولي وتاجر ، أو أن تكون تلك الاسماء والاحداث ، وخاصة التأريخية منها ، وقد نقلت عن أوراق مدونة واستشيرت فيها مراجع معينة ، وهو الافتراض الارجح لاسيما وقد امتحنت بعض المعلومات التأريخية والاسماء الواردة في « الرحلة » من قبل الباحثين فثبتت صحتها . وفي جميع الاحوال فان عدداً غير قليل من أسماء الاشخاص قد اختلف اختلافاً ، كما ان كثيراً من التواريخ قد وضعت اعتباطاً ولا يمكننا بالطبع أن نتثبت من مسألة اختلاف أسماء الاشخاص لان أغلبهم غير معروف ، وخصوصاً أسماء الاولياء والشيوخ والولاة . أما مسألة التواريخ فقـــد لاحظ

---

(١) « الرحلة » ، ص ٧٠ - ٧١ ج ١

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٧

(٣) « الرحلة » ، ص ٢٠ - ٣٤ ، ج ٢

كراتشكوفسكي أن أكثر رحلات ابن بطوطة المهمة تبدأ في غرة محرم من كل عام مما يبدو أمراً غير معقول (١) . كذلك أورد جب نفس الملاحظة حيث قال : (ولعل أصعب الامور قبولاً هي تلك المتعلقة بتواريخ رحلاته إذ أنها تكاد تكون مستحيلة ، وكثير من تلك التواريخ تعطي انطباعاً بأنها قد ذكرت كيفما اتفق ، ولعلها حددت بطلب من كاتب الرحلة) (٢) كذلك لاحظ جب أن ابن بطوطة قد وضع تواريخ غير صائبة لبعض الأحداث ، ومثال ذلك رحلته الى القسطنطينة وأحداث شيراز وغيرها .

أما ما يتعلق باسماء المدن فلا شك أن العربية منهـــا ، وبعض الأعجمية ، لاسيما الايرانية قد استشيرت المراجع في ضبط ألفاظها كما سنبين فيما بعد . أما الأسماء الصعبة غير المألوفة كمدن بلاد الصين فلم يتذكر منها ابن بطوطة سوى أربع مدن ، بالرغم من زعمه بأنه قد زار الصين من أقصى جنوبه الى أقصى شماله .

وإذا سلمنا بأن « الرحلة » قد استشارت مراجع معينـة فسنجد أنفسنا مرة اخرى أمام معضلة جديدة ، وهي تحديد دور ابن بطوطة في تلك الاستشارة . فلقـد أشرنا في بداية هذا الفصل أن ابن بطوطة قد أملى « رحلته » أولاً على محمد بن جزي الذي قام بدوره بتنقيحها والواقع أن دور ابن جزي غير واضح تماماً ، فهو يزعم أن دوره محدود للغاية ، ويوضحه بهذه الكلمات : (ونقلت معاني الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موحية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها ، وربما اوردت لفظه على وضعـــه فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٧

(٢) « جب » ص ١٢

ويخطىء في فك معماها معهود القياس) (١) .

ويحاول ابن جزي أثناء استطرادات « الرحلة » أن يحافظ على وعده فيشير الى اضافاته الشخصية محدداً اياها بوضوح . فكلما شارك في اضافة شيء من عنديا ته الى « الرحلة » استدرك قائلاً : (قال ابن جزي كذا وكذا) . ومثال ذلك ان ابن بطوطة كان يتحدث عن عمره عند ارتحاله عن وطنه فأضاف ابن جزي الى ذلك قوله : (قال ابن جزي : أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة) (٢) . وعند العودة الى حديث ابن بطوطة يكتب (رجع) . ومن الأمثلة الاخرى على تدخله وصفه لمدينة صفاقس (٣) ، ولمدينة قابس (٤) ، ولمدينة تنيس (٥) ولمدينة حماة (٦) ولمدينة القاهرة (٧) ، ولمدينة حلب (٨) ، ولمدينة دمشق (٩) ، ولمدينة عبادان (١٠) ، ولمدينه بغداد (١١) ، ولمدينة نصيبين ، ولقلعة ماردين (١٢)

---

(١) « الرحلة » ، ص ٤ ج ١

(٢) « الرحلة » ص ٥

(٣) المصدر السابق ، ص ٧

(٤) المصدر السابق ، ص ٨

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦ ـ ١٧

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٨

(٧) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٤٠ ـ ٤٢

(٩) المصدر السابق ، ٥٠ ـ ٥٢ و ص ٥٩

(١٠) المصدر السابق ، ص ١١٨

(١١) المصدر السابق ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٥٠

ولمدينة مالقة (١) ، ولمدينة مراكش (٢) ، وكذلك تفسيره لتسمية معرة النعمان (٣) ، وتفسيره لصعوبة دخول غار جبل ثور (٤) ، وتصحيحه لبعض الأحداث التاريخية (٥) ، وتعليقه على هواء مدينة البصرة وسبب اصفرار لون سكانها (٦) ، واشارته الى قضية سابور ذي الأكتاف ملك الفرس حينما دخل بلاد الروم متنكراً (٧) ، واشارته الى عادات رسول سلطان مالي منسي سليمان عند حضوره لمقابلة السلطان أبي عنان (٨) ، ووصفه للنهر الأزرق بمدينة تستر في ايران (٩) ، وتعليقاته الطويلة في امتداح السلطان أبي عنان (١٠) وتعليقه على جبل الفتح (جبل طارق) (١١) وتعليقه على حديث ابن بطوطة بشأن غرناطة (١٢) ، وتعليقه على شجر القسطل (١٣) ، وتعليقه على النجيري (١٤) .

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٨٩ ج ٢
(٢) « الرحلة » ، ص ١٩١
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩
(٤) « الرحلة » ، ص ٩٠
(٥) « ص ١٢٦
(٦) « ص ١١٧
(٧) « ص ١٦١ ، ج ٢
(٨) « ص ٢٠٠
(٩) « ص ١١٩ ج ١
(١٠) « ص٢٨٢ - ١٨٥ ج٢
(١١) « ص ١٨٦ – ١٨٨
(١٢) « ص ١٩٠
(١٣) « ص ١٩٥
(١٤) « ص ٢٠١ ج ١

وتكاد تقتصر جميع تعليقات ابن جزي على استشهادات شعرية ينقلها عن شعراء آخرين ، كما أنها جميعاً تتعلق بوصف مدن أو مواضع عربية . لهذا يمكن القول أن دور ابن جزي دور محدود لا يتجاوز الصياغة الأدبية ، وربما كانت السجعات التي تتقدم وصف البلدان من صنعه أيضاً (١) أما اعتقاد البعض بأنه قام باستشارة المراجع وكتب الرحلات المعروفة وذلك لتحقيق بعض أجزاء « الرحلة » فيبدو أنه بعيد الاحتمال (٢) ، كذلك لا يبدو أنه تدخل في « الرحله » تدخلاً جوهرياً بحيث يدعو الأمر إلى الأخذ برأي كراتشكوفسكي القائل بأن كثيراً من اللوم الموجه الى ابن بطوطة على ما في « رحلته » من نقائص قد يكون ناشئاً عن ابن جزي نفسه (٣) ويمكن أن نقرر باطمئنان أن ابن بطوطة نفسه كان مسؤولاً بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ أي بالاستعانة بابن جزي ـ عن الاطلاع على المراجع واستشارتها . صحيح أنه لم يكن ينتحي الى طبقة الجغرافيين والادباء أو العلماء وانه كان مجرد رحالة ، وصحيح أنه لم يكن يحفل بلقاء العلماء والمتأدبين إلا أنه في الواقع لم يكن يجهل عالمهم ، فالكتاب حافل بالاستشارات الجغرافية والتأريخية ، ومن غير المعقول أن يتكفل ابن جزي بهذا الجهد من دون أن يشير اليه كما فعل في اضافاته الاخرى . ومما يدلنا على تولي ابن بطوطة هذه المهمة قول ابن جزي : (على أنه سلك في اسناد صحاحها أقوم المسالك) (٤) . فماذا يعني هذا القول ان لم يكن المقصود به استشارة المراجع المعروفة ؟ !

---

(١) « الرحلات » للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦ ص ٩٨

(٢) « ابن بطوطة » بقلم فؤاد بدوي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٣ ص ١١

(٣) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٦

(٤) « الرحلة » ص ٤ ج ١

ومن الأمثلة على اهتمامه باستشارة المراجع قوله أثناء الحديث عن مدينة دمياط : (ثم سافرت في أرض رملية الى مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة الأقطار متنوعة الثمار عجيبة التركيب آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون اسمها باعجام الذال . وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبدالله بن علي الرشاطي . وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي يضبطها باهمال الدال) (١) .

وفي موضع آخر قال متحدثاً عن بحيرة البرلس : (والبرلس بباء موحدة وراء مهملة وآخره سين مهملة . وقيّده بعضهم بضم حروفه الأُول الثلاث وتشديد اللام . وقيّده أبو بكر بن نقطة بفتح الاولين) (٢) .

وفي أثناء حديثه عن الاسكندرية قال مشيداً بمحاسنها : (وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنفوا في عجائبها فأغربوا . وحسب المشوق الى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك) (٣) .

وفضلاً عن ذلك فأنه كان يرغب بلا شك في اخراج « رحلته » بثوب قشيب ، لامن أجل العلم فحسب ، فربما لم يكن معنياً بذلك كثيراً ، ولكن من أجل ترسيخ مكانته في بلاط السلطان أبي عنان . وكانت « الرحلات » السابقة ، وتلك التي قام بها الرحالة الأندلسيون معروفة لدى المتأوبين وذوي العلم ، ولعل ابن بطوطة قد حلم أن تنال « رحلته » ما نالته تلك « الرحلات » من حظوة علمية . ولهذا فقد كان يعتمد إضفاء الصفة العلمية على « رحلته » ، (فتقيد المشكل من

---

(١) « الرحلة » ص ١٧

(٢) « الرحلة » ص ١٦

(٣) « الرحلة » ص ٩

اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط) (١) . وقد بالغ في هذه الناحية بكل ملحوظ . فقد راح يحاول ضبط الفاظ مدن هندية وتركية وصينية كان يعلم هو قبل غيره انه ان لم يكن يتذكر نطقها الصحيح . أما الأسماء العربية والايرانية وغيرها من الاسماء المالوفة للمتأدبين العرب فقد حافظ بالفعل على نطقها الصحيح ، ولعل الفضل في ذلك يعود الى استشارته للقواميس وكتب الاختصاص .

وهناك مسألة أخرى لابد من بحثها وهي مدى استفادة ابن بطوطة من مؤلفات الرحالة السابقين . فمن الأمور المعروفة للباحثين ، استفادته من « رحلة ابن جبير » بالذات . وقد اعتاد الدارسون أن يشيروا الى اقتباسه وصف مدينة حلب ودمشق وبغداد عن ابن جبير . وقد أشار هو نفسه الى ذلك الاقتباس صراحة فيما يتعلق بتلك المدن ، ولكن الواقع أنه لم يقتصر في اقتباساته عن ابن جبير على وصف تلك المدن الثلاث فحسب بل نقل عنه أجزاء كثيرة ، وكان هناك تعمد واضح في إخفاء ذلك النقل عن طريق التلاعب بالألفاظ . ويمكن القول أنه اعتمد في وصف أغلب المدن العربية في الحجاز ونجد والعراق ومصر وبلاد الشام على ابن جبير . وبالنظر لأهمية هذه الناحية فسنطيل الوقوف عندها ونثبت في الصفحات التالية مواضع تلك الاقتباسات قال ابن جبير يصف الطريق بين المدينة والنجف :

(وفي ضحوة يوم السبت لمحرم المذكور والحادي والعشرين من شهر ابريل كان رحيلنا من المدينة المكرمة الى العراق قرب الله لنا المرام وسهل علينا السبيل . واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام ، فنزلنا ثالث يوم رحلينا المذكور بوادي العروس فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه في الأرض

---

(١) « الرحلة » ص ٤

بئراً فينبع ماء عذب معين . وصعدنا من وادي العروس الى أرض نجد وخلفنا تهامة وراءنا . ومشينا في بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ولا يبلغ مداها ، وتنسمنا نسيم نجد وهواءها المضروب به المثل . . ونزلنا يوم الثلاثاء رابع يوم رحيلنا عل ماء يعرف بماء العسيلة . ثم نزلنا يوم الأربعاء خامس يوم رحيلنا بموضع يعرف بالنقرة وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام . . ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم وسادس يوم رحيلنا على ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر وهذا الموضع هو وسط أرض نجـــد . وما أرى أن في المعمور أرضاً أفسح بسيطاً ولا أوسع أنفاً ولا أطيب نسيماً ولا أصح هواءً ولا أمد استواءً ولا أصفى جوّاً ولا أنقى تربة ولا أنعش للنفوس والأبدان ولا أحسن امتداداً في كل الأزمان من أرض نجد . ووصف محاسنها يطول والقول فيها يتسع . وفي يوم الخميس المذكور مع ضحوة النهار نزلنا بالحاجر ، والماء فيه في مصانع وربما حفروا عليـه حفراً قريبـة العمق يسمونها أحفاراً واحدها حفر . . وفي يوم الجمعة بعده نزلنـا ضحوة النهار سميرة ، وهي موضع معمور وفي بسيطها شبه حصن يطيف به حلق كبير مسكون والماء فيه في آبار كثيرة إلا أنها زعاق ومستنقعات وبرك . وتبايع العرب فيهـا مع الحاج فيمـا أخرجوه من لحم وسمن ولبن . ووقع الناس على قرم وعيمة فبادروا الابتياع لذلك بشقق الخام التي يستصحبونها لمشاراة الأعراب لأنهم لا يبايعونهم إلا بها .

وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل المخروق وهو جبل في بيداء من الأرض ، وفي سفحه الأعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح . ثم رحلنـا من ذلك الموضع وبتنا بوادي الكروش على غير ماء . ثم اسرينا منـه واصبحنا على فَيْد يوم الأحد وهي حصن كبير مبرّح مشرف في بسيط

من الأرض يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان ، وهو معمور بسكان من الأعراب ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات ، وغير ذلك من المرافق . وهناك يترك الحاج زادهم اعداداً للارمال من الزاد عند انصرافهم ، ولهم بها معارف يتركون بهـا ازودتهم عندهم . وهذا نصف الطريق من بغداد الى مكة على المدينة شرفها الله او أقل يسيراً . ومنها الى الكوفة اثنى عشر يوماً في طريق سهلة طيبة والمياه فيها بحمد الله موجودة في مصانع كثيرة . ودخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على تعبئة وأهبة ارهاباً للمجتمعين به من الأعراب لئلا يداخلهم الطمع من الحاج . منهم يلحظونهم مستشرفين الى مكانهم لكنهم لا يجدون اليهم سبيلاً والحمد لله . والماء بهذا الموضع كثير في آبار تمدها عيون تحت الأرض . ووجد الحاج مصنعاً قد اجتمع فيه المـاء من المطر فانتزف للحين ، وامتلأ ايدي الحاج القرمين من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة

وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها الى ظهر يوم الاثنين بعده ثم اسروا نصف الليل ترتيب سيرهم المذكور قبـــل . ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم وهو أول يوم من ماية بموضع يعرف بالأجفر وهو مشتهر عندهم بموضع جميل وبثينة العذريين . ثم اقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة ونزلنا بالبيداء مع العشـــاء الآخرة . ثم اسرينا منها ونزلنا ضحوة يوم الاربعاء بزرود وهي وهدة في بسيط من الأرض فيها رمال منهالة ، وبها حلق كبير داخله دويرات صغـار وهو شبيه الحصن يعرف بهذه الجهات بالقصر ، والماء بهذا الموضع في آبار غير عذبة . فنزلنا ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين لمحرم والثالث لماية بموضع يعرف بالثعلبية ولها مبنى شبه الحصن خرب لم يبق منه إلا الحلق ، وبازائه مصنع عظيم كبير الدور من اوسع ما يكون من الصهاريج

واعلاها ، والمهبط اليه على ادراج كثيرة من ثلاث جهات . وكان فيه من ماء المطر ما عمّ جميع المحلة . ووصل الى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساء واتخذوا به سوقاً عظيمة حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل ، فكان يوم السوق نافقة .

وبقي من هذا الموضع الى الكوفة من المناهل التي تعم جميع المحلة ثلاثة ، أحدها زبالة والثاني واقصة والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة .

وفي ضحوة يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم وهي مصنع . . ولهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق وقد علا كأنه هضبة شماء ، وكل مجتاز عليه لابد أن يلقي عليه حجراً . وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب . وبادروا للحين بما لديهم من مرافق الأدم يبيعونها من الحاج . وكان هذا مملوءاً من ماء المطر فغمر الناس وعمهم والحمد لله . وهذه المصانع والبرك والمنازل التي من بغداد الى مكة هي آثار زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمّه . انتدبت لذلك مدة حياتها فابقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها الى الآن . ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق . والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها .

وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق وفيه مصنعان الفيناهما مملوئين ماء عذباً صافيا . فأراق الناس مياههم وجددوا مياهاً طيبة . . ورحنا في ذلك الموضع المذكور وبتنا بموضع يعرف بالتنانير وكان فيه أيضاً مصنع مملوء ماءاً . وأسرينا منه ليله الأحد الثالث والعشرين لمحرم واجتزنا سحراً بزبالة وهي قرية معمورة وفيها قصر مشيد من قصور الاعراب ومصنعان للماء وآبار وهي من مناهل الطريق

الشهيرة . ونزلنا عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور بالهيثمين وفيها مصنعان للماء . وبتنا ليلة الاثنين الرابع والعشرين لمحرم المذكور على مصنع مملوء ماء فسقى الناس بالليل واستقوا ، وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان . ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدنا العقبـــة وليست بالطويلة الكثور ، ولكن ليس بالطريق وعر غيرها فهي شهيرة بهذا السبب . ونزلنـــا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء . وأجزنا مصانع كثيرة ربما منها مصنع إلا والى جانبه قصر مبنى من قصور الأعراب ، والطريق كلها مصانع . . ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعده بواقصة ، وهي وهدة من الأرض منفسحة فيها مصانع للماء مملوءة ، وقصر كبير وبازائه أثر بناء وهي معمورة بالأعراب وهي آخر مناهل الطريق ، وليس بعدها الى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات ، ومنها الى الكوفة ثلاثه أيام . وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة وهم مستجلبون اليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه الى ضرة في ذلك الوقت . ويهنيء الناس بعضهم بعضاً بالسلامة . . وبتنا ليلة الأربعاء السادس والعشرين بموضع يعرف بـ (بلورة) وفيها مصنع كبير . وأجزنا سحر يوم الاربعاء المذكور بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء ، وفيه أيضاً مصنع ماء . . وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها . . وبتنا ليلـــة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوء ماء . ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة تعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض لا بناء حولها . . واجتزنا عشي يوم الخميس المذكور على العذيب ، وهو واد خصيب وعليه بناء وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح للعيون وفرجة ، ووصلنا منه الى الرحبة وهي بمقربة منه وفيها بناء وعمارة ويجري الماء فيها من عين نابعة في اعلى القريـة

المذكورة . وبتنا امامها بمقدار فرسخ . ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل واجزنا على القادسية وهي قرية كبيرة فيها حدائق النخيل ومشارع من ماء الفرات واصبحنا بالنجف وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينهما وبين الصحراء ، وهو صلب من الارض منفسح متسع ، للعين فيه مراد استحسان وانشراح . .) (١) .

وقال ابن بطوطة يصف الطريق نفسه بين المدينة والنجف .

(ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله (ص) ثانياً ، وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام . واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث . ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس فتزودنا منه الماء من حسيان يحفرون عليها في الارض فينبطون ماءاً عذباً معيناً . ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الأرض مد البصر فتنسمنا نسيمه الطيب الارج . ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالغسيلة . ثم رحلنا عنه ونزلنا ماءاً يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة . ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة وهي مصابيح مملوءة بماء المطر ، مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها . وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في كل فصل . ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فحفر عن الماء في الحفار . ثم رحلنا ونزلنا سميرة ، وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار إلا أنه زعاق . ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب والخام ولا يبيعون بسوى ذلك ، ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخردق وهو في بيداء من الأرض

(١) « رحلة ابن جبير » تحقيق حسين نصار ، ص ١٨٩ - ١٩٧

وفي أعلاه ثقب نافذة تخرقه الريح . ثم رحلنا منه إلى وادي الكروش ولا ماء به . ثم أسرينا ليلاً وصبحنا حصن فَيْد ، وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة . وهنـــاك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى ، فاذا عادوا وجدوه ، وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوماً في طريق سهل به المياه في المصانع . ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبه ارهاباً للعرب المجتمعين هناك ، وقطعاً لاطماعهم عن الركب . . وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه . ثم رحلنا ونزلنا الموضع الآخر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة . ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء . ثم نزلنا بزرود وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن ، وهناك آبار ماء ليست بالعذبة . ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولهـا حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج ، وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل . ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيمة من الحجارة ، وكل من مر به رجمه . وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك ، وبه مصنع كبير يعم جميع الركب ممـا بنته زبيدة رحمة الله عليها ، وكل مصنع أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيراً ووفى لها أجرها ، ولولا عنايتها بهذا الطريق ما سلكها أحد ، ثم رحلنا ونزلنـا موضعاً يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء ، وتزودوا منهما . ثم رحلنـا

ونزلنا موضعاً يعرف بالتنانير وفيه مصانع ممتلئة بالماء . ثم اسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق . ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء . ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان . وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على أنها ليست بصعبة ولا طائلة . ثم نزلنا موضعاً يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق ، وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات . وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهنىء الناس بعضهم بعضاً بالسلامة . ثم نزلنا موضعاً يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء . ثم نزلنا موضعاً يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع . ثم نزلنا موضعاً يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الأرض باثنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها . ثم نزلنا موضعاً يعرف بالعذيب ، وهو واد منخسب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر . ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي اظهر فيها الله دين الاسلام وأذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم ، وكان أمير المسلمين يومذاك سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وكانت القادسية مدينة عظيمة . افتتحها سعد رضي الله عنه ، وخربت فلم يبق منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من الماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف) (١) .

وقال ابن جبير يصف الطريق بين بغداد والموصل :

---

(١) « الرحلة » ص ١٠٧ - ١٠٩ ج١

(وأسرينا الليل كله فصبحنا تكريت مع الفجر في يوم الجمعة التاسع من الشهر وهو أول يوم من يونيه فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم . وهي مدينة كبيرة واسعة الارجاء فسيحة الساحة حفيلة الاسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق . أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً في الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها في جوفيها . ولها قلعة خصبة على الشط هي قصبتها المنيعة . ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه وهي من المدن العتيقة المذكورة .

وتمادى سيرنا الى ان ارتفع النهار من يوم الاحد بعده ، فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف بالجديدة ، وبمقربة منها قريه كبيرة اجتزنا عليها تعرف بالعقر وعلى رأسها ربوة مرتقة كانت حصناً لها . وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف حفيل البنيان وثيقه . والقرى والعمائر من هذا الموضع الى الموصل متصلة . ومن هنا ينتثر انتظام الحجاج في المشي فينبسط كل من طريقه متقدماً ومتأخراً وبطيئاً ومستعجلاً آمناً مطمئناً .

. . وفي ضحوة هذا اليوم وهو يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر والرابع ليونيه مررنا بموضع يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة ، وبالجانب الشرقي منها وعن يمين الطريق الى الموصل فيه وهدة في الارض سوداء كأنها سحابة قد انبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار ، وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنه الغليان . ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الارض أسود أملس صقيلاً رطباً عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالاصابع لاول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه الى جوانبها فيرسب قاراً . . وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة

عين اخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقيل لنا ان النار تشعل فيه وإذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه . . ولا شك أن على هذه الصفة هي العين التي ذكر أنها بين الكوفة والبصرة وقد ذكرنا أمرها فى هذا التقييد . ومن هذا الموضع الى الموصل مرحلتان) (١) .

وقال ابن بطوطة يصف الطريق نفسه بين بغداد والموصل :

(ووصلنا الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارجاء مليحة الاسواق كثيرة الجوامع وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة فى الجهة الشمالية منها ، ولها قلعة حصينة على شط الدجلة ، والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها . ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة ، وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها خان معروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل . ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلاً رطباً وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضاً قاراً . وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا فنقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعاً وينقلونه . وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو . ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما الى الموصل) (٢) .

---

(١) « رحلة ابن جبير » ص ٢١٩ - ٢٢٠

(٢) « الرحلة » ص ١٤٨ ج ١

ولقد اقتبس ابن بطوطة أيضاً من ابن جبير وصف مدينة الكوفة (١) والحلة (٢) ، والموصل (٣) ، ووصف الطريق بين الموصل وسنجار (٤) .

أما ما يتعلق ببلاد الشام فمن المعروف ان ابن بطوطة قد اقتبس عن ابن جبير وصف حلب ودمشق ، ولكنه في الواقع لم يقتبس وصف مدينة دمشق فحسب ، بل نقل أيضاً مشاهد كثيرة اخرى تتعلق بالمدينة ومثال ذلك وصفه للمسجد الأموي (٥) ، ووصف جبل قاسيون ومشاهده المباركة (٦) ، وكذلك وصف الربوة والقرى التي تواليها (٨) كذلك اقتبس عنه وصف مدينة عكا (٨) ومدينة صور (٩) .

تلك هي المواضع التي اقتبس منها ابن بطوطة عن ابن جبير . وقد قدم أو أخر في بعض العبارات أحياناً ، كما أدخل على البعض الآخر منها تغييراً طفيفاً في أحيان اخرى . وإن دل ذلك على شيء فانما يدل على محاولته تغطية مواضع الاقتباس ، ولسنا ندري ان كان ابن بطوطة قد اقتبس أيضاً عن كاتب آخر أم انه اكتفى بالاقتباس عن ابن جبير

---

(١) راجع « رحلة ابن بطوطة » ص ١٣٧ - ١٣٨ ج ١ و « رحلة ابن جبير » ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) راجع « ابن بطوطة » ص ١٣٨ ج ١ ، و « ابن جبير ص ١٩٩ .

(٣) راجع « ابن بطوطة » ص ١٤٨ - ١٤٩ ج ١ ، و « ابن جبير » ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٤) راجع « ابن بطوطة » ص ١٤٩ - ١٥٠ ج ١ ، و « ابن جبير » ص ٢٢٤ - ٢٢٧

(٥) راجع « ابن بطوطة » ص ٥٥ ج ١ ، و « ابن جبير » ص ٢٤٩ - ٢٦٢

(٦) راجع « ابن بطوطة » ص ٦١ ج ١ ، و « ابن جبير » ص ٢٦٣

(٧) راجع « ابن بطوطة » ص ٦٢ ج ١ ، و « ابن جبير » ص ٢٦٤ - ٢٦٥

(٨) راجع « ابن بطوطة » ص ٣٥ ج ١ ، . « ابن جبير » ص ٢٣٩

(٩) راجع « ابن بطوطة » ص ٣٥ - ٣٦ ج ٩ ، و « ابن جبير » ص ٢٩٤ - ٢٩٥

فقط بسبب شهرة « رحلته » . وما دام قد سمح لنفسه أن يقتبس عن كاتب معين ، فليس هناك مانع أن يقتبس عن كاتب آخر أيضاً ، وفي هذه النقطة بالذات مجال متسع للباحثين للكشف عن حقائق جديدة حول « الرحلة » ولا يعنينا بالطبع إن كان ابن جزي كاتب « الرحلة » هو المسؤول عن هذا الاقتباس ، أم ابن بطوطة تولى ذلك بنفسه والمهم في الأمر أن صاحب الرحلة على علم بالأمر . ولا يفوتنا أخيراً أن نشير الى أن هذه الاقتباسات ـ وان لم تمس جوهر « الرحلة » ـ إلا أنها تدل على أن معلومات « الرحلة » ليست أصيلة دائماً .

ثمار الرحلة

يمثل هذا الفصل وجهة النظر الجغرافية في « رحلة ابن بطوطة » وقد حاولنا أن نستعرض فيه أبرز معلوماته عن البلدان المذكورة . ومن الملاحظ أن ثمة تفاوتاً كبيراً في قيمة تلك المعلومات . فالبعض منها عامة وسطحية ولا تضيف شيئاً جديداً إلى المعلومات السابقة ، في حين يتميز البعض الآخر منها بدقة وأصالة وجدة . ويمكن القول أن معلوماته عن البلاد العربية موجزة وثانوية الأهمية على العموم ، بينما تكتسب اخباره عن بلدان آسيا الوسطى والشرق الأقصى أهمية عظيمة . ولابد لنا أن نلفت الأنظار إلى أمرين يرتبطان بقيمة معلوماته . الأول هو ان اختلاف الكتاب حول زيارته لبعض البلدان لايقلل من شأن معلوماته ومثال ذلك أخباره عن الصين وسيبريا . فبالرغم من اعتقاد طائفة من البحاثين بأن ابن بطوطة لم يزر الصين أو سيبريا ، لكن معلوماته عن هذين البلدين صحيحة وقيمة . وهذا يعني انه استقاها من مصادر موثوق بها .

والأمر الثاني هو عدم ارتباط أهمية معلوماته عن البلدان بما أمضاه من زمن فيها . فقد أنفق مثلاً بضعة أشهر في زيارة أقطار آسيا الوسطى ، وحوالي العامين في زيارة أفريقيا الغربية ، لكن معلوماته عن تلك الجهات فاقت في أهميتها اخباره عن الهند التي عاش فيها ما يقرب من ثمان سنوات . وسيحاول هذا الفصل أن يوضح مدى مساهمته في الجغرافية العربية على وجه العموم .

(١)

العالم العربي

تتصف ملاحظات ابن بطوطة عن أقطار العالم العربي بالايجاز والسطحية عموماً ، بالرغم من انه زار أغلب تلك الأقطار مرات ومكث فيها شهوراً طويلة ، والواقع أنه لم يضف جديداً الى المعلومات عن تلك الاقطار بالقياس لما قدمه الرحالة والجغرافيون السابقون . واذا كان لوصفه الجغرافي لعدد من مدن العالم العربي قيمة ما ، فان تلك القيمة تتضاءل بعد أن ثبت لنا أن قسماً كبيراً منها قد اقتبس من « رحلة ابن جبير » أو ربما من « رحلات » اخرى . ولو قارنا ملاحظاته الجغرافيـــة بملاحظات ابن جبير الذي سبقه بما يقرب من قرن في التجوال بين اقطار العالم العربي لتبين لنا أن ملاحظات ابن جبير اكثر دقة ونفاذاً فقد أشار ابن جبير الى ظاهرات هامة ـ جغرافية وأثرية ـ كانت تغيب عن ابن بطوطة . وقد يكون لبعد الشقة الزمنية بين وقت زيارته للاقطار العربية وبين تسجيله « للرحلة » اثر في ذلك ، لكن من الواضح أيضاً أن ما يتمتع به ابن بطوطة من حس جغرافي وعلمي كان أدنى مرتبة مما يتمتع به ابن جبير ولعل مرجع ذلك أيضاً الى عناية ابن بطوطة بالاشخاص واخبارهم اكثر من عنايته بتسجيل الأوضاع الجغرافية للمدن والأقطار المعينة .

ويمكن القول أن أقل ملاحظات « الرحلة » قيمة هي التي تتعلق ببلدان شبه الجزيرة العربية. فلم يذكر ابن بطوطة من مدنها سوى عدد محدود ، كما أنه لم يسجل عنها أية ملاحظات اقتصادية أو اجتماعية جديرة بالاهتمام .

وتأتي كتابته عن العراق بالدرجة الثانية بعد شبه الجزيرة في ايجازها وسطحيتها . هذا فضلاً عن ان ملاحظاته ـ لا سيما الاجتماعية منها ـ يعوزها الوضوح والدقة في كثير من الاحيان ومما لا ريب فيه أنه لم يأتي جديد عن هذه البلاد . والمعروف أن الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين قد مسحوا العراق جغرافياً اكثر من أي قطر اسلامي آخر ، باعتباره مركز الخلافة الاسلامي . وكانت كتابات اليعقوبي وابن خرواذبة والمقدسي والاصطخري وغيرهم شاملة لشتى النواحي الجغرافية من طبيعية واقتصادية وبشرية ولم يصنف الرحالة والجغرافيون المتأخرن أية معلومات هامة الى المعلومات المبكرة . وبالرغم من أن ابن بطوطة كان قد زار العراق مراراً عديدة ، لكنه لم يحاول التعمق في طبيعة الحياة الاجتماعية ، كما أنه لم يسجل أية ملاحظات اقتصاديـــة ذات قيمة تذكر . ويمكن أن يعزى اهماله للعراق الى حالـــة النفور التى تملكته تجاه البلاد ، والتي تتجلى في ثنايا حديثه عن مدن وسط وجنوب العراق وعن سكانها الشيعة ، وربما كانت غزارة المعلومات الجغرافية عن العراق وسهولة تداولها سبباً اضافياً آخر لذلك الاهمال .

وتعتبر أحاديثه عن بلاد الشام افضل ماورد في الرحلة من معلومات عن أقطار العالم العربي . وبالرغم من أنه اقتبس الكثير من أوصـاف المدن عن ابن جبير كما ذكرنا ـ لا سيمـــا مايتعلق بدمشق ـ الا ملاحظاته عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية قيمة وأصيله . وقد أمدنا

بصور دقيقة واضحة عن عادات السكان في حياتهم اليوميـــة ، وعن نشاطهم الاقتصادي ومستواهم الثقافي . كذلك قدم لنا صوراً واضحة عن نوع الحكم السائد في البلاد . وتعزى جودة ملاحظاته عن بلاد الشام وسعتها وشمولها الى تكرار زيارته لهذه البلاد والى اقامته الطويلة نسبياً فيها . فقد أقام في دمشق ـ كما اخبرنا ـ ما يزيد على عام يدرس على ايدي علمائها في الجامع الأموي ، إضافة الى زياراته المتعددة وكان قد أحب البلاد وطابت نفسه للاقامة فيها . كل ذلك قد لون احاديثه عن بلاد الشام بلون خاص واكسبها نكهة طيبة ، وجعل (رحلتـه) من المراجع الهامة لدراسة أحوال البلاد الاجتماعية والفكرية والسياسيـة والاقتصادية في ذلك العهد .

أما أحاديثه عن مصر فلم تشتمل على ملاحظات قيمة سوى ما أورده عن نهر النيل وطريقة فيضانه . وقد اقتصرت بقية المعلومات على حكايات عن الأولياء والسلاطين . ويجدر بالذكر أن كتب الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين حافلة بالمعلومات عن نهر النيل ، وقد اسهبوا في وصف مجراه وطريقة فيضانه .

أما ملاحظاته عن بلدان المغرب العربي والاندلس فهي أقل ملاحظات « الرحلة » قيمة من وجهة النظر الجغرافية . ومما يزيد في ضآلة قيمتها ماكتب من أدب جغرافي غزير عن تلك البلدان . فقد قام عدد كبير من المغاربة برحلات الى اقطار العـــالم العربي والاسلامي ، ودونوا مشاهداتهم عن بلدان المغرب العربي بالذات ، كابن سعيد التجاني ، والعبدري وابن جبير ، فضلاً عن الكتابات الجغرافية القيمة للادريسي والبكري .

وهكذا يتضح لنا أن اضافات ابن بطوطة الجغرافيـــة عن أقطار

العالم العربي محدودة عموماً ، وهي أقل قيمة من اضافاته عن الاقطار الاسلامية الأخرى ، وسنسلطالضوء في الصفحات التالية ، على ملاحظاته الجغرافية عن تلك الاقطار في مختلف جوانبها الطبيعيـة ، والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

الحجـــاز

اشتملت أحاديث ابن بطوطة عن الحجاز على معلومات عابرة مع أنه أقام في مكة مايقرب من ثلاثة اعوام . ففي الجانب البشري مثلاً اقتصرت ملاحظاته على تصوير عادات اهل مكة الغذائية ، حيث ذكر أنهم يأكلون وجبة رئيسية واحدة في اليوم بعد صلاة العصر ، بينمـا تقتصر الوجبات الاخرى على التمر . وقد أشار أيضاً الى ميلهم الى النظافة وعطفهم عل الضعفاء والغرباء . كذلك صور بالتفصيل مناسك الحج وشعائره ، ولون صوره بالحيوية والواقعية .

أما في الجانب الطبيعي فقد شرح باسهاب طوبوغرافية المواضع الدينية في مكة والمدينة . وقد وصف طريق الحج الصحراوي بين بلاد الشام ومكة ماراً بتبوك والمدينة وصفاً دقيقاً ، وذكر جميع المواضع والقرى التي تقع عليه .

نجـــد

تكاد تقتصر ملاحظات ابن بطوطة الجغرافية عن نجد على وصف طريق الحج الصحراوي بين النجف وحائل والمدينة ، وهو الطريق الذي

يطلق عليه اسم « درب زبيدة » نسبة الى زبيدة زوجة هارون الرشيد . ويجدر بالذكر ان زبيدة قد اقامت على امتداد هذا الطريق عدداً من الصهاريج لجمع مياه الامطار وحفرت عدداً من الآبار فأنقذت حجاج العراق من اخطار العطش ، كما اتخذ الطريق حدوداً واضحة عبر متاهات النفوذ الكبرى والهضبة النجدية . وقد وصف ابن بطوطة أيضاً الهضبة النجدية وصفاً عاماً غير ذي قيمة جغرافية ، فقد ذكر أنهـــا (فسيحة ، طيبة النسيم ، صحيحة الهواء ، نقية التربة) ، وهو وصف كان الجغرافيون يتناقلونه واحداً عن الآخر ، وقد سبق لابن جبير أن سجله في « رحلته » أيضاً .

ولعل اهم ملاحظاته الجغرافية عن الهضبة النجدية مايتعلق بالجانب البشري فقد أشار الى ممارسة بدوها لتجارة « المقايضة » مع الحجاج ، وقد أورد مراكز عديدة من مراكز المقايضة مثل « سميرة » و «الثعلبية » و « حصن فيد » . وكان البدو والاعراب يبادلون الحجاج الغنم والسمن واللبن بالثياب الخام وما شابهها من بضائع . وفي بعض الاحيان كانوا يستعيضون عن تجارة « المقايضة » بالسلب والنهب ، فكان الحجاج يعمدون ـ تلافياً لمثل تلك الهجمات المفاجئة ـ الى التهيؤ للحرب والظهور بمظهر القوة الحربية عند الوصول الى مناطق معينة من الصحراء النجدية

ساحل الخليج العربي

اهتم ابن بطوطة بثلاث مراكز على هذا الساحل ، هي البحرين والقطيف والاحساء ، وأورد ملاحظات عابرة عن جغرافيتها الاقتصادية والطبيعية والبشرية ، وقد أكد بشكل خاص على البحرين ، فاشار الى تميز مناخها

بالحرارة الشديدة ، والى هبوب الرياح الشمالية الشرقية عليها باستمرار حيث تحمل اليها الرمال من الصحراء المجاورة . وتحدث عن الحياة الاقتصادية فيها ، فذكر ان صيد اللؤلؤ يمثل دعامة هامة من دعامات اقتصاد البلاد . وقد اسهب في طريقة صيده ونظام بيعه وتصديره . كذلك أكد على انتعاش الزراعة وعلى كثرة بساتين النخيل والرمان ، واتساع زراعة القطن . وقد أشار الى ازدهار العلاقات التجاريه بينها وبين عمان في عهود سابقة ، فكان هناك طريق بري يربط بينهما ، لكن ضعف الصلات بين القطرين أدى الى اهمال ذلك الطريق فطمرته الرمال . وقد استعيض عنه بالطريق البحري ، وهو طريق طويل جداً لكنه يربط بين جميع المدن الواقعة على ساحل الخليج . وقد أشار ابن بطوطة أيضاً الى طريق آخر يخترق شبه الجزيرة من شرقها الى غربها . ويصل ما بين ساحل الخليج العربي وساحل البحر الاحمر . ويربط ذلك الطريق ما بين الاحساء واليمامة ومكة .

الساحل للعماني والعدني

لقد مر ابن بطوطة بموانىء متعددة تقع على ساحل البحر الأحمر وهي ظفار والأحقاف ومرسى حائل ومرسى صور وقلهان وعمان ، وقد لاحظ أن هذا الساحل فقير بسكانه على العموم نظراً لفقره في الموارد الاقتصادية ، وتشتمل مواطن السكنى فيه على قرى صغيرة عدا ظفار وعمان وقلهان . إلا ان بعض موانئه كانت على صلات تجارية نشطة مع الشرق وخصوصاً الهند ، لاسيما ميناء ظفار الذي كان ميناء تجارياً مزدهراً ، وكان هذا الميناء قاعدة الصلة بين الشرق الاقصى والبلاد

العربية وايران . كذلك كان لميناء قلهان أهمية تجارية عظيمة حيث كان أول نقطة تصلها السفن من الهند .

وقد تحدث ابن بطوطة عن الحاصلات الزراعية في هذا الساحل ، واوضح أوجه الشبه بينها وبين حاصلات الهند ، وأهمها اشجار النارجيل والتنبول والموز . ويبدو أن زراعة الموز تجود في مدينة الاحقاف بشكل خاص ، فقد بالغ في ضخامه الموز المنتج فيها . كذلك أشار الى انتشار الاشجار التي يستخرج منها الصمغ واللبان . وقد استرعى اهتمامه ايضاً الصيد البحري في الساحل العماني الذي يكاد يكون قوام الحياة الاقتصادية . فذكر أن الاسماك تعتبر غذاء رئيسياً في تلك المناطق ، وهي تجفف وتحفظ خلال أيام السنة . كما أنها تستخدم غذاءاً للحيوانات .

ولم يسجل ابن بطوطة ملاحظات هامة عن النظام الاجتماعي في تلك الجهات ، لكنه أشار الى تمتع المرأة بحرية كبيرة في عمان بالقياس الى الجهات المجاورة .

اليمن

كانت جولات ابن بطوطة في اليمن على نطاق واسع نسبياً ، فقد زار معظم مدنها الكبرى ، مثل تعز وصنعاء وزابد وعدن ، فضلاً عن موانىء صغيرة اخرى تقع على ساحل البحر الاحمر . وينم حديثه عن المدن الكبرى عن تحسن الوضع الاقتصادي في البلاد . فاذا كان من الطبيعي أن تتسع العاصمة تعز ويرتفع مستواها ، فان اتساع صنعاء وزابد وغيرها من المدن يعود الى ازدهار الوضع الاقتصادي في كافة انحاء البلاد . والواقع أن اليمن كانت تعتمد في اقتصادها على موردين رئيسيين :

هما الزراعة والتجارة . فليس من المستغرب اذن أن تزدهر الزراعة في اليمن ، فقد كان هذا شأنها من زمن بعيد . ويرجع الفضل في ذلك الى كمية الأمطار الموسمية التي تتلقاها جبال اليمن ، كما يعود الى الجهد البشري الذي يبذله سكان هذا القطر منذ آلاف السنين ، حيث اقاموا الخزانات والسدود للاحتفاظ بمياه الامطار . وقد أشار ابن بطوطة الى هذا التقليد الذي ظل سائداً منذ القدم ، فذكر ان مدينة عدن تشتمل على صهاريج ضخمه تجتمع فيها المياه أوقات المطر .

أما الازدهار التجاري في البلاد فيرتبط بموقع بعض موانئها على مدخل البحر الاحمر الجنوبي مما جعلها قاعدة للاتصال بين الشرق والغرب . وقد اطلق ابن بطوطة على عدن اسم (مرسى أهل الهند) وذكر ان البضائع ترد اليها من مدن الهند الكبرى مثل كالكوت وكولم وسندابور . ومن أدلة النشاط التجاري في هذا الميناء تجمع عدد غير قليل من التجار الغرباء فيه ـ كما اشار ابن بطوطة ـ من هنود ومصريين وشوام . وما يزال ميناء عدن يحتفظ باهمية التجارة كقاعدة هامة فى الطريق الواصل بين الشرق والغرب . ويبدو أن هذا الازدهار التجاري لم يكن يشمل مدينة عدن فحسب ، بل كان يمتد تأثيره الى المدن اليمنية الكبرى أيضاً . فقد ذكر ابن بطوطة أن الناس فى اليمن يربحون اموالا كثيرة . وان هناك عدداً كبيراً من التجار الذين يمتلكون مراكب بأكملها ويتباهون بضخامتها وحمولتها .

ولعل من أهم الملاحظات التي سجلها ابن بطوطة عن الجغرافية الطبيعية لليمن تلك التي تتعلق بالملاحة في البحر الاحمر وبمناخ البلاد . فقد ذكر ان الملاحين يتجنبون السفر ليلاً في البحر الأحمر توقياً لخطر الصخور المرجانية الساحلية . ومن المعلوم أن الملاحة في

البحر الاحمر تنطوي على صعوبات متعددة أهمها الصخور المرجانيـــة الساحلية ، وخطر الرياح العاصفية التجارية الشمالية الشرقية .

أما ملاحظاته عن مناخ اليمن فقد حدد فيها صفاتة الموسمية ، وقرنه بشكل صحيح مع مناخ الحبشة والهند . ومن المعروف ان هذه الاقطار جميعاً تتأثر بالامطار الموسمية التي تسببها الرياح الموسمية . وقد وصف ابن بطوطة أمطار اليمن بأنها وابلة متدفقة ، وهي تسقط وقت الظهيرة مما يدعو السكان الى إنهاء أعمالهم قبل موعد بدء سقوطها .

ولم يبحث ابن بطوطة في الجغرافية الاجتماعية لليمن ، لكنـــه اطرى بشكل خاص على المرأة اليمنية التي وصفها بأنها زوجة ممتازة ، وهو وصف قد أجمع عليه الرحالة القدماء والمعاصرون .

العراق

اتصفت ملاحظات ابن بطوطة عن جغرافية العراق بالسطحيـــة عموماً ، فضلاً عن أنها لم تكن ملاحظات أصيلة . وقد اوضحنا في فصل سابق أنه وصف أغلب المدن العراقية من (رحلة ابن جبير) ، لاسيما المدن الكبرى ، كبغداد والبصرة والموصل والكوفة والنجف والحلـــة وسامراء ، بالرغم من أنه تجول على نطاق واسع جداً في العراق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . ثم أن اوصافه لم تكن تخلو من أخطاء جغرافية واضحة . ومثال ذلك اشارته الى رحلته بين الحويزاء والكوفة . فقد ذكر أنه قطع المسافة بين الكوفة والحويزاء في برية لا ماء فيهـا سوى بموضع واحد يعرف بـ (الطرفاوي) (١) ، وهذا أمر مخالف للحقيقة

(١) « الرحلة » ، ص ١٣٧ ج ١

فمن المعروف أن المنطقة الممتدة بين الحويزاء التي تقع في جنوب العراق بالقرب من شاطىء دجلة ، والكوفة التي تقوم في وسط العراق بجوار شاطىء الفرات هي منطقه غنية بالمياه ، ويجري فيها دجلة والفرات وفروعهما المختلفة بالاضافة الى انتشار المسطحات المائية الواسعة في جنوب ووسط العراق .

ويبدو لنا أن ملاحظاته عن ازدهار الطريق بين الأنبار وعانة وبين سامراء والموصل (١) لم تكن دقيقة أيضاً ، ولعله استقاها من مراجع تأريخية سابقة . فمن المعروف أن المصادر التأريخية قد أشارت بالفعل الى تقدم الزراعة إبان الحكم العباسي فى بعض المدن الواقعة على وادي الفرات الشمالي ، ولا سيما هيت التي اشتهرت بكثافه سكانها وبساتينها المكتظة بفواكهها ، والأنبار التي كانت تقع على رأس قناة عيسى (وكانت تربط بين الفرات ودجلة) . لكن من المعروف ايضا أن مدن وادي الفرات الاعلى تحتاج الى بذل جهد بشري خاص لتنشط الزراعة فيها ، لأن ضفاف النهر أعلى من مستوى الوادي عموما ، ولا بد من الاستعانة بالواسطة لرفع المياه الى الاراضي المجاورة . وقد اهتم الخلفاء العباسيون بمشاريع الري وأحييت جهات واسعة على الفرات الأعلى وازدحمت على ضفافه القرى والبساتين . ومنذ أن اجتاحت جيوش هولاكو أراضي العراق أصاب الزراعة الاهمال والخراب ودمرت مشاريع الري القديمة . وقد لحق الضرر بالقرى والبساتين الواقعة على وادي الفرات الأعلى اكثر من غيرها وفقدت ازدهارها القديم . لذلك لايمكننا أن نقبل قول ابن بطوطة بأن وادي الفرات ابتداءاً من

---

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٥ ج٢

الأنبار حتى عانة كان يمثل قرى متزاحمة وأنه أقرب الى بستان متصلة (١) ولعلنا نستطيع أن نحكم على وضع المنطقة في عهده مما نلمسه من تخلف الزراعة فيها في الوقت الحاضر .

وينطبق هذا الحكم أيضاً على وادي دجلة بين سامراء والموصل ، فضفاف النهر في هذه الجهات مرتفعة ، واستقاء المياه من النهر يتطلب استخدام الواسطة . وقد عني العباسيون باقامة مشاريع الري على نهر دجلة لا سيما في المنطقة ما بين سامراء وبغداد ، لكن التخريب الذي أصاب البلاد على ايدي التتار قد دمر مشاريع الري في تلك الجهات أيضاً فانطمرت القنوات والنهيرات . ولا يمكن في مثل هذه الحال أن تتصل العمارة على نهر دجلة ما بين تكريت والموصل في وقت زيارة ابن بطوطة .

ويكشف لنا حديث ابن بطوطة عن العراق من جهة أخرى ما أصاب البلاد من تدمير على أيدي المغول . وكانت أبرز آثار الاحتلال المغولي ظاهرة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وقد لاحظ ابن بطوطة أنها مدينة خربة وكأنها أطلال دارسة بعد أن كانت أعظم المدن الاسلامية قاطبة . كذلك لاحظ بأن الأمن مفقود في البلاد لا سيما خارج المدن الكبرى ، وان القبائل الأعرابية كانت تهدد المدن بغاراتها دوماً . وحينما رغب في الارتحال من النجف الى البصرة صحب ركباً لعشائر خفاجة ليأمن على نفسه ، نظراً لانهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر في تلك الاقطار إلا بصحبتهم (٢) . وقد أوضح تأثير تلك الغارات الأعرابية المستمرة على المدن ، فأورد مثالاً من مدينة الكوفة التي جعلتها تلك الغارات مدينة قليلة الشأن خربة ،

---

(١) « الرحلة » ص ١٦٩ ج ٢

(٢) المصدر السابق ص ١١٣ ج ١

لا سيما وانها لم تكن محاطة بسور (١) .

أما ملاحظاته عن الجغرافية الاقتصادية للعراق فلا تنم عن وجود ازدهار اقتصادي في البلاد . فلم يستلفت نظره من المزروعات ، سوى النخيل التي ذكر أنها تستخدم في صناعة عسل طيب يسمى (السيلان) . والمعروف أن النخيل نباتات معمرة لا تتطلب عناية خاصة ، وأن العراق الجنوبي موطن زراعتها منذ أقدم الازمان . أما الحاصلات الاخرى من الحبوب والفواكه فلم يشر اليها مما يدل على كونها في حاله متخلفة . ولقد اكد ابن بطوطة ايضا أن المتاجرة داخل البلاد كانت تشمل على الغنم والسمن واللبن . وهذا يعني أن سكان المناطق الريفية كانوا اكثر اهتماما بالحيوان منهم بالزراعة ، أي انهم كانوا أدنى الى طباع العشائر البدوية .

وتدل ملاحظات ابن بطوطة عن الوضع الاجتماعي في البلاد على ما أصاب الناس من خنوع تحت حكم السلاطين المغول ، ويبدو أن ذلك الحكم قد جعل الناس اكثر انصرافا الى شؤون الدين ، وبالتالي اكثر اهتماما بالخلافات المذهبية . ومن المعلوم أن العراق كان قد انقسم منذ خلافة الامويين الى طائفتين رئيسيتين هما أهل السنة ، والشيعة . وكان هذا الانقسام يزداد حدة ووضوحا كلما تقدم الزمن ، وكلما حمل الحكام على تعميقه . وقد انعكست الخصومات المذهبية والخلافات الطائفية بين السكان في احاديث ابن بطوطة ، كما انعكست ايضا نزعاتهم الدينية القوية . فقد ذكر أن سكان بغداد كانوا يزورون كل ليلة شيخا من شيوخ المدينة الكثيرين ، وأن أهالي الحلة كانوا يخرجون عصر كل يوم في موكب تتقدمة الرايات والطبول ويقصدون

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٣٧

الى مشهد صاحب الزمان فيتضرعون اليه لكي يظهر من جديد ويطهر الارض مما عمها من ظلم وفساد .

والخلاصة أن أحاديث ابن بطوطة عن العراق تدل على أنه كان يمر في ذلك العهد بطور من أطوار التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

بلاد الشام

تحدث ابن بطوطة عن بلاد الشام كوحدة جغرافية كبرى تشمل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن . ومن المعلوم ان الاقسام الحالية نشأت من اعقاب الحرب الكبرى الأولى . وبما أنه قد تجول في ربوع هذه الاقطار مراراً عديدة وفي أوقات مختلفة ، فقد حدث نوع من الخلط في ذاكرته بين المدن المختلفة مما جعل خط سيره ضمن بلاد الشام غامضا أحيانا ومفتقراً الى الدقة في احيان اخرى . فقد كان يتنقل من مدينة الى اخرى في بعض أجزاء « الرحلة » من دون أن يخضع للتسلسل الجغرافي لهذه المدن (١) .

وقد وقع أيضاً في بعض الأخطاء الجغرافية البارزة . ومثال ذلك قوله بأن النهر الذي يمر بمدينة حلب هو نهر العاصي ، بينما هو في حقيقته نهر قويق (٢) . وقد أهمل الاشارة الى آثار بارزة كآثار بعلبك .

أما الوصف الجغرافي لمدن بلاد الشام فقد اقتبس أغلبه عن (رحلة ابن جبير) كما أشرنا في موضع سابق ، لا سيما ما يتعلق

---

(١) « الرحلة » ص ٤٣ - ٤٤

(٢) « الرحلة » ص ٤١

بمدينة دمشق . والغريب أنه كان قد أقام في هذه المدينة ما يزيد على عام ، ولم يكن مضطراً لاقتباس وصفها من مصدر آخر .

ولعل اهم ملاحظاته الجغرافية مايتعلق بوصف طريق الحج الصحراوي بين بلاد الشام والحجاز . فقد وصفه وصفاً دقيقاً وبين أهمية الخانات التي تقع عليه . كذلك تكتسب ملاحظاته الاقتصادية والاجتماعيـــة - لا سيما عن دمشق - أهمية خاصة نظراً لأصالتها .

وتدل ملاحظاته عن الاحوال الاقتصادية في بلاد الشام أنها كانت في وضع مزدهر . فقد كانت الصناعة والتجارة والزراعة فيها نشطة ، وكانت المدن الكبرى تشتهر بالتخصص في صناعة معينة والاتجار بهـــا وتصديرها الى خارج البلاد . فمدينة نابلس تختص بزراعة الزيتون وصناعة الزيت الذي يحمل الى مصر ودمشق ، كما تصنع فيها حلواء الخروب التي تصدر الى دمشق . ومدينة صيدا تشتهر بفواكهها، وهي تصدر التين والزبيب والزيت الى مصر . وتصدر بيروت الفواكه الى مصر . وتختص مدينه المعرة بزراعة التين والفستق الذي يحمل الى مصر والشام . أما بلدة سرمين فتختص بصناعة انواع متعددة من الصابون تصدرها الى مصر والشام ، كما تختص أيضاً بصناعة الأنسجة القطنيـــة . وتشتهر بعلبك بصناعات عديدة كصناعة الادوات والأواني الخشبية وصناعـــة الانسجة الخاصة المسماة بالثياب البعلبكية ، كما تصنع فيها أيضاً أنواع عديدة من الحلواء التي يطلق عليها اسم (الملبن) أو (جلد الفرس) أما دمشق فتتنوع فيها الصناعات وأهمها صناعة الانسجة على اختلافهـا وصناعه الحلواء المتنوعة . وهي تصدر كثيراً من مصنوعاتها ومنتجاتها الى مصر وغيرها من الاقطار . ويبدو أن الحركة الصناعية والتجارية في دمشق كانت على درجة عالية من النشاط ، ممـــا أدى الى كثرة

الأسواق فيها ذات الاختصاصات المتنوعة . فقد كان هناك سوق خاص بالوراقين أيضاً .

ولقد امتدح ابن بطوطة أسواق أغلب المدن التي شهدها ولاحظ أنها واسعة وعامرة ونشطه حتى في المدن الصغيرة وبعض القرى . ومما لا ريب فيه أن تلك الاسواق النشطة دليل على تقدم الزراعة وعلى ارتفاع القوة الشرائية لدى الفلاحين .

ولقد أشار ابن بطوطة أيضاً الى النشاط التجاري المزدهر في بلاد الشام ، والى الصلات التجارية القوية بينها وبين مصر خصوصاً والبلاد العربية عموماً . ومن المعلوم أن نشاط التجارة في بلاد الشام ظاهرة قديمة ساعد عليها موقع البلاد وحيوية السكان .

أما ملاحظاته عن الوضع الاجتماعي في البلاد فقد كانت حافلة بالمعلومات المفيدة . فقد أوضح أن السلطة الأجنبية المتمثلة بالسلاطين المغول كانت تحكم البلاد حكماً تعسفياً تلتف حولها طبقة منتفعة من الاقرباء ورجال الجيش وكان رجال الدين يلعبون دوراً رئيسياً في الحياة الاجتماعية وهم يتمتعون بنفوذ واسع . وأبرز - بأحاديثه المفصلة عن المدارس الدينية - مدى ما بلغته علوم القرآن والحديث والفقه والعلوم الاسلامية المختلفة الاخرى من تقدم ، كما أشار الى كثرة عدد المتعيشين من ورائها . ولم يكن هؤلاء من السوريين فحسب ، بل كان العديد منهم من أقطار عربية أو اسلامية اخرى .

وقد ذكر ابن بطوطة أن نظام الوقف الذي يطبق في دمشق خصوصاً وبلاد الشام عموماً كان يتكفل بتجهيز الفتيات من بنات الاسر المحتاجة للزواج ، كما يتعهد بتخصيص أموال لفك من يقع في الاسر من المسلمين

بل وكانت تخصص بعض المبالغ لتمهيد الطرق وتعديلها (١) . ولا ريب أن نظام الوقف هذا كان يمثل نوعاً من التأمين .

وأورد ابن بطوطة أيضاً بعض عادات أبناء دمشق ، ومثال ذلك انهم كانوا يتعطلون عن أعمالهم يوم السبت ويخرجون إلى المتنزهات والبساتين يمضون فيها عطلتهم الاسبوعية ، وأنهم كانوا يفضلون تناول طعامهم خارج بيوتهم وأن أصحاب الحوانيت والمصالح يتناولون طعامهم في السوق .

وعلى العموم فقد نمّت أحاديث ابن بطوطه عن أهالي بلاد الشام أنهم كانوا ينعمون بدرجة طيبة من الرفاهية ، وأن مستواهم الاجتماعي والاقتصادي كان مرتفعاً عموماً .

مصر

تركزت أحاديث ابن بطوطة عن مصر على رواية أخبار الشيوخ والقضاة ورجال الدين وكراماتهم ، وعلى تفقد الزوايا والتكايا والجوامع والمساجد . أما الملاحظات الجغرافية بشتى أنواعها فقد وردت بشكل ثانوي ، بل وفي أشارات موجزة جداً في غالب الأحيان . وقد عزا بعض الكتّاب هذه الظاهرة الى تقادم العهد على زيارة ابن بطوطة الاولى لمصر حتى لم يعد يذكر من تفصيلاتها شيئاً . ولهذا التفسير أساس من الصحة لكن عاملاً آخر أثّر في توجيه ابن بطوطة في الحقيقة نحو هذه الوجهة وهو حماسه الديني كما أوضحنا سابقاً . والواقع أن ابن بطوطة قد برهن في ثنايا (رحلته) على اهتمامه الشديد بكل ما يتصل بالدين . وكانت

(١) « الرحلة » ، ص ٦٣ ج ١ .

مصر بالذات موئلاً للشيوخ والمتعبدين ذوي الزوايا والتكايا ، وكانت تفوق في ذلك أي بلـــد عربي أو اسلامي آخر . فلا عجب أن تغص أحاديث ابن بطوطة المستفيضة عن مصر بحكايات الشيوخ والأولياء وكراماتهم بدرجة تطغى على الجوانب الاخرى . ولهذا وردت ملاحظاته الجغرافية عن المدن المصرية بصورة موجزة ومتيسرة حتى بالنسبـــة للاسكندرية والقاهرة التي أفاض الرحالون في الحديث عنهما ، وقد فاته تسجيل ملاحظات هامة عن هاتين المدينتين ففيما يتعلق بمدينـــة الاسكندرية مثلاً أورد تفصيلات تاريخية وحكايات دينية ذات قيمـة ضئيلة ولم يتناول بالبحث جوانبهـا الجغرافية . واهتم في أحاديثه عن القاهرة بتعداد الزوايا والتكايا والمساجد ، بينما وصف الأهرام وصفاً موجزاً لا يكشف عن أهميتها ، ولم يذكر أبا الهول على الاطلاق بالرغم من أنه أحد الظواهر الأثرية الهامة في المدينة . وإذا كان لابن بطوطة عذرة في عدم الاهتمام بالآثار القديمة ، فلسنا ندري كيف يفسر عدم اشارته نهائياً الى (الأزهر) وهو المركز الديني الأعلى في مصر ، وفي رحابه يجتمع علماء الدين وفقهائه الكبار .

وإذا كان وصفه للمدن المصرية الكبرى موجزاً ، فقد كان حديثة عن المدن الصغرى أشد ايجازاً . وقد عني عناية خاصة بوصف مدن الوجه البحري .

ولعل أهم ملاحظاته في الجغرافية الطبيعية لمصر ما يتعلق منهـا بوصف نهر النيل وطريقة فيضانه . فقد اجتذبت انتباهه طريقة جريان النهر من الجنوب الى الشمال ، كما أثار اهتمامه حدوث الفيضان وقت الصيف . وقد وصف فيضان النهر على النحو التالي :

(ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار

وجفافها ، وابتداء نقصه حين زيارة الأنهر وفيضانها وهو يشبه بهذه الصفة نهر السند . وان أول ابتـــداء زيادته في حزيران (يونيه) فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً ثم خراج السلطان . فان زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصلاح التام . فان بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء ، وان نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد) (١)

وقد قرن كذلك فيضان النيل بفيضان نهر السنـد ، ومن المعلوم أن السند يفيض وقت الصيف أيضاً . وقد أكد ابن بطوطة أيضاً أهمية النهر الاقتصادية للبلاد وأثره في ازدهار الزراعة والاستيطان على ضفافه وقد قال في ذلك : (انه يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة ، والقرى والمدن بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلهـــا ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل) (٢) .

أما معلوماته عن مجرى النيل الأعلى فلم تكن واضحة ولابد أنـه استقاها من أحد الجغرافيين العرب ، وربما كان مصدره الادريسي . فقد أشار في موضع آخر من « رحلته » ـ لدى حديثه عن جولاته في السودان الغربي ـ الى نهر النيجر باسم النيل ، واعتبره أحد فروع أو روافد نهر النيل ، كما ذكر أن هذا الفرع المنيل ينحدر الى بلاد النوبة ثم الى دنقلة ، ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالـة السودان وأول عمالة اسوان من صعيد مصر (٣) . وهكذا افترض أن نهر النيل ينعطف غرباً في بلاد النوبة فينبع من أراضي السودان الغربي . وقـــد نادى

---

(١) « الرحلة » ، ص ٢٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٦ ج٢

الادريسي بهذه الفكرة وظل يتداولها من بعده الجغرافيون العرب والمسلمون المتأخرون .

وقد وقع ابن بطوطة في بعض الأخطاء الجغرافية الاخرى كخلطه مثلاً بين بحيرتي البرلس وتنيس واعتبارهما بحيرة واحدة (١) .

أما الأوضاع الاجتماعية في البلاد فقد صورها ابن بطوطة تصويراً عابراً عن طريق اشاراته الى الروح الدينية المتصوفة الغالبة على الشعب المصري . وكانت هـذه الروح تبرز بشكل خاص في كثرة الزوايا التي يعتكف بها الشيوخ ورجال الدين وفي تبجيل الناس لهم وايمانهم بمالهم من كرامات وما يمكن أن يقوموا به من معجزات .

وقد أوضح أن رجال الدين كانوا يمثلون طبقة متنفذة في طبقات المجتمع المصري تتمتع باحترام الامراء والحكام . غير أن بقيـة أفراد الشعب كانوا يرزحون تحت وطأة حكم مستبد يستأثر بخيرات البلاد ويتركهم على حافة الجوع . ومع ذلك فان أفراد هـذا الشعب البائس قد تمسكوا بحبهم للحياة ، فنجد ابن بطوطة يصف المصريين بأنهم ذوو لهو وطرب وسرور (٢) .

ويمكن القول أن أهم ملاحظات ابن بطوطة عن مصر هي تلك التي تمس الحياة الاقتصادية في البلاد . والواقع أنه كان يولي النواحي الاقتصادية عند مروره بالمدن المصرية أهمية خاصة ، وقد سجل ملاحظات ذكية تصور الواقع الاقتصادي في البلاد تصويراً واضحاً . وتنم ملاحظاته على ازدهار الوضع الاقتصادي في البلاد في جميـع الميادين لاسيما في الميدان الزراعي . ولقد أثارت دهشة ابن بطوطة انتظام القرى والمزارع

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٦ ج ١

(٢) المصدر السابق ص ٢٠

على نهر النيل من مدخله في الحدود المصرية لغاية مصبه في البحر المتوسط حتى لقد خيّل إليه أنه لا يوجد مثيل لها فى العالم (١) . ومن المعروف أن ازدهار الزراعة فى مصر ظاهرة قديمة تدين بوجودها لطريقة فيضان النيل فى فصل الصيف مما دعا الفلاح المصري منذ أقدم الأزمان الى اتباع الطريقة التي يطلق عليها اسم (ري الحياض) . ومن الجدير بالذكر أن أهم المزروعات النقدية التي عني المصريون بزراعتها يومذاك هو الكتان الذي كان يصدر الى بقيـــة الأقطار الأفريقية ، وكانت أهم مراكزه بوش ودلاص .

ولقد أدى التقدم الزراعي فى البلاد الى ازدهار السكن والعمران لذلك اكتظت ضفاف النيل بالقرى والمدن . ولقد أكد ابن بطوطة على هذه الظاهرة أثناء حديثه عن تنقلاته بين المدن المصرية عن طريق نهر النيل إذ قال :

(ومن هذه المدينة [سمنود] ركبت النيل مصعـداً الى مصر [القاهرة] ما بين حدائق وقرى متصلة بعضها ببعض ، ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للصلاة ولشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من الاسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى مدينة أسوان) (٢) .

وقد انعكس هذا الازدهار الزراعي الذي صاحبـــه ازدهار صناعي وتجاري أيضاً على اتساع العمران وازدحام السكان فى عاصمة البلاد والقاهرة ، وكذلك على نشاط النقل فى نهر النيل . وقد أخذ العجب من ابن بطوطة مأخذه لسعة المدينة وكثرة سكانها ، فذكر أن

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٩ و ٢١ ج ١

(٢) المصدر السابق ص ١٩ ج ٢

أرضها مسير شهر لمجد السير ، وأنها تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها (١) . وقد يكون فى وصفه للمدينة شيء من المبالغة ، وألا أنه يدل على كل حال على ارتفاع شأن المدينة وازدهار الحياة الاقتصادية فيها . ولعل مبالغة ابن بطوطة تتجلى فى زعمه بأن البعض يقدر ما فيها من سقائين على الجمال باثني عشر ألف سقاء ، وما فيها من مكارين بثلاثمائة الف مكار ، وما فى نيلهـا من المراكب بستة وثلاثين الف مركب (٢) . وكانت النقطة الأخيرة بالذات مدعاة لاتهام بالكذب والمبالغـة ، لكن الرحالة الايطالي فريسكو بالدي Frisco Ba'di الذي مر بمصر بعده بحوالي نصف قرن أورد للمراكب العابرة لنهر النيل رقماً مقارباً لرقمه (٣) . وعلى اية حال فقد تكررت اشارات ابن بطوطة الى النقل المائي بواسطة نهر النيل بين المدن المصرية المختلفة ، وهي ظاهرة تدل على ازدهار الحياة الاقتصاديـة . وكانت مصر على صلات تجارية طيبة مع الأقطار العربية (لا سيما بلاد الشام) وكذلك مع الاقطار الافريقية على اختلافها . وقد أشار ابن بطوطة الى حديثه عن جولته فى بلدان السودان الغربي الى تنقل القوافل عبر الصحراء الكبرى بين مصر وجهات السودان الغربي حاملة الانسجـة المصرية (٤) . ومما يدل على أهمية النشاط التجاري فى البلاد اهتمام السلطان بالمراكز الكمركية على حدود البلاد . فقد اشار ابن بطوطة الى مراكز التفتيش الكمركي على الطريق المؤدية الى الشام ، لا سيما مركز (قطيا)التي تعتبر ثغر الحدود . وقد ذكر أن مجي هـذا المركز

---

(١) ، (٢) « الرحلة » ص ١٩

(٣) « دائرة المعارف » للمقدسي ص ٣٦٩

(٤) « الرحلة » ص ٢١٠ ج ٢

يبلغ حوالي الف دينار من الذهب كل يوم ، وأنه لا يمكن لأحد من الشام أن يجوز عليها إلا ببراءة من مصر وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود . بل أن السلطات المصرية احتاطت لما يمكن أن يجرى من عمليات التهريب الى البلاد أو خارجها فوكلت القبائل العربية بحفظ هذا الطريق . وذلك بأن يمسحوا على الرمل وقت الليل حتى لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الامير صباحاً فينظر الى الرمل فان وجـــدوا أثراً طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم (١) .

وهكذا نجح ابن بطوطة الى حد غير قليل في تصوير الأحوال الاقتصادية في مصر في ذلك العهد .

المغرب العربي والأندلس

كانت أحاديث ابن بطوطة عن مدن أقطار المغرب العربي ، وكذلك عن مدن الأندلس موجزة للغاية ، بل هي أشد ما في الرحلة إيجازاً . ويمكن أن نعلل ذلك بأن أحوال تلك البلدان ومدنها معروفة لمواطنيه ولم يكن في وسعه أن يضيف الى معلوماتهم ما يبهرهم . ومن المعروف أن كتابات الادريسي المفصلة عن المنطقة في مؤلفة (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وكتابات البكري عنها في كتابه (المسالك والممالك) كانت مألوفة لدى جمهرة المتعلمين من مواطنيه . ولعل أهم اضافاتـه عن احوال تلك الأقطار ما يتعلق بجغرافيتها السياسية . فقد أوضح لنا انعدام الحكم الراسخ فيها وضعف السيطرة الحكومية خارج المـدن . وكانت القبائل البدوية التي تجوب الصحراء العربية الكبرى تهدد المدن

(١) « الرحلة » ص ٣١ ج ١

تهديداً دائماً وتقطع طريق المواصلات البري الذي يربط فيما بينها . لذلك كان المسافرون يفضلون الطريق البحري ما أمكن ذلك ، بالرغم من أنه أشد بعداً واكثر طولاً ، وبالرغم من تعرضهم لمخاطر لصوص البحر ومراكب الدول المسيحية . ويبدو أن هـذا الوضع القلق قد أثر تأثيراً سيئاً على نشاط الحياة الاقتصادية في أقطار المغرب العربي لاسيما فى تونس وليبيا ، فران طابع الخمول على تلك البلدان . لكن مراكش بالذات كانت تتمتع بحكم قوي على أيدي سلاطين الموحدين مما جعلها بمنأى عن القلاقل والفوضى .

أما حديثـه عن الأندلس فلم يشغل من « رحلته » سوى بضع صفحات ، لكنه أوضح في تلك الصفحات الموجزة حالة القلق التي كانت تعيشها الامارات الاسلامية المتبقية في شبه جزيرة إيبريا بعد أن سقط اكثرها بأيدي الافرنج . فقد كان القتال قائماً بين المسلمين والمسيحيين ، وكان السكان يعيشون حالة حرب دائمة ، وان لم تؤثر تلك الحالة على سير الحياة اليومية . وقد اكد ابن بطوطة على ما تتميز به الزراعة في البلاد الاندلسية من تقدم ، وخصوصاً زراعة الفواكه على اختلافها . كذلك اكد على تخصص بعض المدن بصناعات معينة كصناعة الفخار المذهب في مدينة مالقة . وقد دهش لاتساع مدينـة غرناطة وازدهارها ، وذكر أن مرابعها لا نظير لها في الدنيا من حيث جماله وبساتينه وحقوله ، وأنه يبلغ مسيرة أربعين ميلاً يقطعـه نهر شنل الذي يخترق انواعاً رائعة من البساتين والرياض والقصور (١) .

(١) « الرحلة » ، ص ١٨٩ ج ٢

(٢)

جنوب غربي آسيا

إن أهمية جولات ابن بطوطة في بلدان جنوبي غربي آسيا تنطوي على ما احتوته من معلومات جديدة عن بلاد الاناضول والقسطنطينة . أما ما ورد في (الرحلة) عن ايران فيكاد يخلو من أية أهمية علمية لا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأدب الجغرافي العربي الغزير الذي ألف عن هذه البلاد منذ القرن الثامن الميلادي حتى عصر ابن بطوطة . وفضلاً عن ذلك فان خط سير ابن بطوطة بين المدن الايرانية كان متلفعاً بالغموض والارتباك ، كما أن ملاحظاتـــه عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لم تكن قيّمة بشكل خاص .

أما كتاباته عن بلاد الأناضول فعلاوة على ما احتوته من معلومات أصيلة لم ترد في كتب معاصريه أو سابقيه من الجغرافيين المسلمين ، وإضافة الى ما حفلت به من حكايات طريفة ، فانها ذات أهمية تأريخية خاصة . فمن المعلوم أن رحمان عثمان مؤسس الدولة العثمانيـــة على جهات آسيا الصغرى كان قد بدأ منذ أوئل القرن الرابع عشر . وحينما توفي في نهاية الربع الأول من القرن نفسه كان قد نجح في الاستيلاء على مدينة بروسة (حوالي عام ١٦٢٩) (١) . وقد تولى ابنه اورخـان

---

(١) العدوي ، ص ٥٩

مقاليد الحكم وأتم الزحف على جهات بلاد الأناضول . وكان هـذا الزحف ما يزال مستمراً في وقت زيارة ابن بطوطة لهذه البلاد . وكانت عملية قيام الدولة العثمانية آخذة في التبلور . ويقول جب بهذا الصدد : (تعتبر قصص ابن بطوطة عن تركيا من التقارير الأولية القليلة التي نمتلكها عن الايام الأولى للامبراطورية العثمانية) (١) .

إيران

اجتاز ابن بطوطة ايران ثلاث مرات ، سافر اليها في المرة الأولى عن طريق جنوبي العراق (من منطقة الاهواز) ، ودخلها في المرة الثانية عن طريق البحر قادماً من عمان ، وعبرها في المرة الثالثة عن طريق البحر قادماً من عمان . وقد استطاع خلال هذ الرحلات الثلاثة أن يشهد معظم البلاد الايرانية المعمورة وأن يزور اكبر المدن الايرانية وأهمها مثل اصفهان وشيراز وعبادان وهرمز ومشهد . لكن خط سيره وتنقلاته بين تلك المدن كان ـ كما لاحظ جب ـ يفتقر الى الدقة والضبط في بعض الاحيان . فقد أخطأ مثلاً في طريق مروره بالمدن الايرانية بعد عودته من الهند ، فذكر أنه مر بمدينة كاورستان (خورستان) قبل مروره بشيراز ، بينما العكس هو الصحيح . ولاحظ جب أيضاً أن الاضطراب يسود تنقلاته بين مدن طوس والمشهد وشيخ جام ، وأن هناك فجوات واضحة في تنقلاته في المنطقة الشمالية الشرقية ، فقد قفز من من بحر قزوين الى شمال افغانستان حيث تقع مدينة قندر على النهر

---

(١) « جب » ص ٣٥٦

المسمى بنفس الاسم (١) . غير أنه غطى على أية حال مساحات من البلاد الايرانية خلال جولاته . وقد أوضح لنا في سياق أحاديثه أنه كان يهدف في كل مرة الى زيارة بعض الشيوخ والأولياء . وقد شغل الكلام عنهم وعن زهدهم وكراماتهم جزءاً هاماً من اخباره عن البلاد الايرانية ، إضافة الى أخبار الملوك والامراء . لذلك يمكن القول أن ملاحظاته في الجغرافية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد الايرانية كانت عابرة وإن كانت قيمة في بابها . وقد انصبت ملاحظاته الاجتماعية على أيضاح أثر الدين على سلوك الناس ، حيث بين لنا أنه كان يسيطر على تصرفاتهم سيطرة تامة . كذلك أوضح لنا نتائج الانقسام الطائفي في غربي ايران وآثاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد صور باسهاب بعض العادات الاجتماعية السائدة لا سيما ما يتعلق بالبذخ على الأطعمة والأشربة التي اصبحت جزءاً أساسياً من النظام الاجتماعي . وقد خص سكان اصفهان بالذات بالكرم العظيم والتنافس فيما بينهم في تنوع الاطعمة وجودتها .

أما ملاحظاته الاقتصادية فتكشف عن ازدهار زراعة الفواكه في ايران التي كانت عصب الحياة الاقتصادية في البلاد ، وابرزها المشمش والسفرجل والعنب والبطيخ . وقد ذكر بأن مشمش أصفهان بالذات لا نظير له في بقية البلاد . وتقوم بعض الصناعات على الفواكه كصناعة قمر الدين من المشمش والتي تختص بها اصفهان .

وقد أشار ابن بطوطة الى صيد اللؤلؤ كمورد اقتصادي هام للبلاد ووصف بأسهاب طريقة صيده . وكان فيائي هرمز وقيس (سيراف) اللذان يقعان على الخليج العربي اهم مراكز استخراج اللؤلؤ . وتتميز

---

(١) « جب » ص ٣٦٠

أوصافه الجغرافية والطوبوغرافية للمدن والبلاد الايرانية بايجاز عموماً ـ عدا اصفهان وشيراز ـ ، كما وأنها تفتقر الى الوضوح والدقة احياناً . وفي أمثلة أهتمامه بالتفصيلات الطوبوغرافية إشارته الى الصحراء الممتدة بين بلدة ماجول ومدينة رامز ، وقد ذكر أنها موطناً للعشائر الكردية الرحالة التي تقيم في خيام الشعر . وقد وصف أيضاً منطقة الجبـــال في اقليم اللور وبيّن أن الطرق قد نحتت في تلك الجبـال الشاهقة ، وسويت ووسعت بحيث تصعدها الدوب بأحمالها ، وذكر أن طول تلك الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة ، وهي شاهقة متصل بعضهـا ببعض تشقها الانهار وتنبت على سفوحها اشجـــار البلوط الذي يصنع السكان محلياً من دقيقه الخبز .

بلاد الأناضول

تكتسب أحاديث ابن بطوطة عن بلاد الاناضول أهمية خاصة نظراً لأنها حدثت في وقت نشوء الدولة العثمانية . وقد حفلت بمعلومات قيمة عن الاوضاع الاجتماعيه والاقتصادية في البلاد . بالاضـــافة الى أوصافها الجغرافية الهامة . إلا أن بعض جوانبهـــا كان ـ مع ذلك ـ هدفاً لنقد طائفة من الباحثين . وقـد انصب النقد بشكل خـاص على الوصف الجغرافي للمدن وعلى المعلوماف المتعلقة بنظام « الأُخيّ » .

فأما وصف المدن فبالرغم من أنه كان جيداً على العموم إلا أنه لم يخل من الغموض ، كما أن خط تنقلاته بين تلك المدن كان يفتقر الى الدقة أحيانا ويقول كراتشكوفسكي في تعليل ذلك : (أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى فيمكن رده الى ابن جزي الذي

حاول بلا شك أن يستخلص صورة متكاملة الجوانب بازاء العدد الكبير من أسماء الاماكن التي يذكرها ابن بطوطة . وكان ابن بطوطة قد قطع على نفسه عهداً بألا يأخذ طريقا ما اكثر من مرة . ومن ثم فأن تحديد طريق سيره بدقة قد يستلزم معرفة جيدة بالأقطار التي سلكها) (١)

ولاريب أن وجهة نظر كراتشكوفسكي مقبولة الى حد كبير ، فجهل ابن بطوطة بلغة القوم قد أدى الى الخلط بين اسماء المواضع الكثيرة التي مر بها ، كما سبب نوعاً من الارتباك في ذكرها بشكل منظم ومرتب ، لكن القاء اللوم على ابن جزي لا مبرر له . ولقد أدى هذا الارتباك والخلط بنفر من الدارسين الى الاختلاف حول بعض اسماء المدن المذكورة . وقد بذل الاستاذ « جب » جهود مثمرة في تصحيح أسماء بعض تلك المدن وفي تقريبها الى المدن المعروفة وتحديد مواضعها الحالية .

أما نظام « الأخيّ » الذي تعرض بدوره المنتقد ، فقد شرحه ابن بطوطة على النحو التالي :

(واحد الأوخية أخي على لفظ الأخ إذا اضافه المتكلم الى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية وفي كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد أحتفالاً بالغرباء من الناس واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن ألحق بهم من أهل الشر . والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على انفسهم . وتلك هي الفتوة أيضاً . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩

يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم حتى ينصرف . وأن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو واتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأُخيّ) (١) .

ويبدو هذا النظام بشكله البسيط على أنه نوع من الكرم المفرط والضيافة المنظمة ، أي أنه صفة من الصفات الخلقية الكريمة التي يتحلى بها سكان بلاد الأناضول . لكن بعض الكتاب ذهب إلى مدى أبعد في تفسيرة . فقد شبهه العدوي بنظام النقابات الاقتصادية (٢) . وزعم كاتب آخر أنه نوع من أنواع نظام الفتوة الاسلامي الذي اشتق من نظام الفروسية العربي . كذلك عزا باحثون آخرون نشوء هـذا النظام الى انعدام الحكم المركزي في أنحاء بلاد الأناضول يومذاك ، مما أدى الى تكون مثل هذه الجماعات التي تتولى بنفسهـــا الهيمنة والاشراف على الامور (٣) .

وقد لا يكون موضوع تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية مهماً بقدر أهمية التحقق من وجودها بالفعل ، فهنالك من ينكر وجود هذه الظاهرة ويعتقد أنها نموذج من مبالغات ابن بطوطة . والحقيقية أن اسراف ابن بطوطة في تصوير الخدمات التي يؤديهـا (الأُخيّ) الى الضيف تثير الشكوك في صحة حكاياته ، غير أن تلك المبالغات حرية ألا تدعو الباحث الى رفض الظاهرة رفضاً تاماً ، ويلوح لنا أن ابن بطوطة لم يختلق حكاياته

---

(١) « الرحلة » ص ١٨١ ج ١

(٢) العدوي ، ص ٦٠

(٣) العدوي ، ص ٦١

من الخيال المحض ، إلا أنه سمح لمخيلته بأن تلعب دوراً رئيسياً فيها ، ففي مدينة العلايا كان النساء يبكين أسفاً لمفارقة الضيوف الغرباء (١) وعند دخوله وأصحابه الى مدينة لاذق (دون غزله) كاد يقع بين سكان المدينة شجار بالسكاكين تنافساً على ضيافهم (٢) . وهناك مبالغات كثيرة من هذا النوع . وإذا سلمنا بواقعية تلك المبالغات فاننا نجابه بصعوبة اخرى تتمثل في اختفاء آثار هذه الظاهرة بين السكان الحاليين اختفاءاً تاماً . ومن المعلوم أن أمثال هذه التقاليد التي يتوارثها السكان أباً عن جد تصبح تراثاً ذا شخصية واضحة ، ولا يمكن أن تمحى آثارها كلياً ومما يزيد في شكوك الباحثين أن المؤرخين الذين عاصروا ابن بطوطة أو جاؤا بعده لم يشيروا الى وجود تلك الظاهرة وقد ذكر الاستاذ محمود الشرقاوي فى كتابه عن ابن بطوطة أن آثار تلك الظاهرة الاجتماعية تتمثل في تقاليد طائفة يطلق عليها اسم (الكاكائية) (٣) . ويقطن هؤلاء القوم - وهم من أصل تركي - في بعض قرى لواء كركوك في العراق . وتلك ملاحظة جديرة بالاهتمام . فكلمة « الكاكائية » تعني « الأخوة » بالفعل . ويتخذ النظام المطبق بين هؤلاء الجماعات شكلاً من أشكال النظام الاشتراكي بأبسط تبعاته الاجتماعية ، ويدين أبناء القرية بالولاء لزعيم يتولى تنظيم حياتهم الاقتصادية . لكن الصفة التي يؤكدها ابن بطوطة وهي صفة الضيافة ، لا تتمثل بمجتمع الكاكائيين لأنه مجتمع مغلق لا يرحب بالغرباء .

ولقد سجل ابن بطوطة ملاحظات اجتماعية هامة اخرى تكشف

---

(١) « الرحلة » ص ١٨٠ ج ١

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤

(٣) الشرقاوي ، ص ١٠٧

عن الوضع الاجتماعي قبل تبلور الدولة العثمانية ، ومثال ذلك انتشار تعاطي « الحشيش » انتشاراً واسعاً بين مختلف طبقات السكان (١) . كذلك سجل ملاحظة اخرى تنم عن تحلل النظام الاجتماعي وهي انتشار البغاء العلني على نطاق واسع . وقد قال في ذلك : (وأهل هذه المدينة - مدينة لاذق - لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كلهم . وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتركوهن للفساد . وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له . . وذكر لي أن القاضي له جوار على هذه الصورة) (٢) .

وكان يقابل هذا التحلل الاجتماعي اغراق من الدين لدى طائفة من الناس ، مما أدى الى انتشار الطرق الصوفية التي كان يحظى أتباعها بمنزلة عالية في المجتمع . وكانت من أكثر الطرق الصوفية انتشاراً طريقة (الجلالية) المنسوبة الى جلال الدين الرومي و « الرفاعية » المنسوبة الى الشيخ أحمد الرفاعي .

وعني ابن بطوطة أيضاً بأحوال المرأة التركية وبمكانتها في المجتمع وأوضح انها تتمتع بمكانة طيبة . وبالرغم من أنه أشار بصورة عابرة إلى عدم تحجب النساء التركيات إلا أن تلك الظاهرة كانت كما يبدو قاصرة على طبقة خاصة من النساء هن زوجات السلاطين والامراء والحكام وكذلك الجواري . وقد ذكر أيضاً أن بعض النساء كن يشتهرن بالفروسية كما كان بعض زوجات السلاطين يتقلدن مقاليد الحكم بدلاً من أزواجهن .

أما ملاحظاته عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد فقد كانت مفيدة ووافية . فقد أوضح أن زراعة الفواكه بشكل خاص مزدهرة في البلاد

---

(١) « الرحلة » ص ١٨٠ ج ١

(٢) « الرحلة » ص ١٨٤ ج ١

لاسيما زراعة الكروم والجوز والمشمش والقسطل ، وهي في الغالب جبلية كما أشار الى أهمية الرعي في اقتصاد البلاد . ومن المعلوم أن هضبة الأناضول كانت وما تزال من أفضل مواطن الرعاة في بلدان الشرق الأوسط . ولا شك أنها كانت أفضل حالاً حينما كانت مساحات واسعة من الأرض تترك بوراً . وهناك ملاحظة لابن بطوطة تنم عن هذا المعنى فقد ذكر أن البهائم عندهم لم تكن تأكل العشب اليابس بل تجد على الدوام ما يشبعها من الحشيش الأخضر .

وأبدى ابن بطوطة اهتماماً خاصاً بالصناعة ، وأوضح أنها تقوم أساساً على الانتاج الزراعي والرعوي . ومما زاد في ازدهار الصناعة العلاقات التجارية الواسعة التي كانت قائمة بين بلاد الأناضول والبلدان المجاورة لاسيما مع مصر وبلاد الشام وكانت بلاد الأناضول تصدر عديداً من انتاجها الى تلك الأقطار . فقد كانت تصدر الأخشاب إلى مصر . وشراب قمر الدين الى مصر وبلاد الشام ، وبسط أقصرا التي تصنع في مدينة أقصرا من صوف الغنم الى الشام ومصر والعراق والهند والصين .

وكان يصنع في البلاد مختلف أنواع الأنسجة ، ولعل من أشهرها صناعة الأنسجة القطنية المقلمة بالذهب ، وهي صناعة كان يقوم بها النساء بشكل خاص لاسيما في مدينة لاذق . ويذكر ابن بطوطة أن هذه الأنسجة لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها (١) . وكانت مدينة ارزنجان تشتهر أيضاً بصناعة ثياب جيدة تنسب إليها .

وكان استثمار موارد الثروة الاخرى نشطاً أيضاً . فقد كانت الأخشاب تقطع من الغابات الكثيرة وتصدر الى مصر والبلاد الاخرى ،

---

(١) الرحلة ص ١٨٤

وكان معدن النحاس يستثمر في ارزنجان وتصنع منه الأواني ، ومعدن الفضة يستثمر في جوار كمش .

القسطنطينية

بالرغم من ان القسطنطينة جزء من آسيا الصغرى ، إلا أننا أفردنا ، لها موضعاً خاصاً نظراً لما أثارته زيارة ابن بطوطة لهذه المدينة من جدل بين الدارسين . وكانت القسطنطينة تمثل وقت زيارة ابن بطوطة - مع بعض المناطق المحيطة بها - آخر ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية .

ولقد قص ابن بطوطة باسهاب أخبار زيارته لهذه المدينة والطريق الذي سلكه إليها ، وتحدث عن معالم المدينة بالتفصيل . وبالرغم من أن أوصافه للمدينة وللحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية فيها تنم عن دقة وأصالة ، فان بعض الأخطاء والتأريخية التي وقع فيها ، اضافة الى شطحات خيالية ، قد أثارت جدلاً عظيماً بين الباحثين . ومن الجدير بالذكر أن ابن بطوطة كان الرحالة المسلم الوحيد في عصره الذي استطاع زيارة القسطنطينة . وتبدو القصة التي روى فيها طريقة زيارته للقسطنطينة أقرب الى الخيال منها الى الواقع . فقد ذكر أنه طلب من السلطان محمد اوزبك الذي كانت بلاد الأناضول خاضعة له أن يرافق احدى زوجاته أثناء زيارتها لوالدها امبراطور القسطنطينة فوافق السلطان على ذلك . ويقول جب ، وهو من المتحمسين في تصديق ابن بطوطة ، أن المؤرخين البيزنطيين لا يوردون أي ذكر لوجود مصاهرة بين أي خان من خانات القرن الذهبي (محمد أوزبك أو غـــيره) وبين الامبراطور اندرونيكس الثالث . هذا فضلاً عن أن الامبراطور المذكور ، كان وقت

زيارة ابن بطوطة أي في عام ١٣٣١ م في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره (١) . وكانت هذه النقطة بالذات من النقاط المهمة التي استند إليها المتشككون في رفض حكاية ابن بطوطة .

وهناك نقطة اخرى تبعد الحكاية عن الواقع وتقربها من الخيال وهو تأكيده على اهتمام الخاتون بيلون به ، مع أنها كانت في قرارة نفسها تكره الاسلام ، والدليل على ذلك أنها ارتدت حالما وصلت الى القسطنطينة

ثم انه يشير الى استقبال السلطان محمد أوزبك للوفد لدى عودته من القسطنطينة بقوله : (فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه) (٢) فكيف يعقل ألا يسألهم عن زوجته الخاتون بيلون التي رفضت العودة معهم وارتدت عن الأسلام ؟ ! .

وهناك نقطة ثالثة تتعلق بمقابلة ابن بطوطة لوالد الامبراطور أندونيكس الثالث الصغير وكان قد هجر الحكم وسلم المقاليد لولده . فالمؤرخون يذكرون بأن الامبراطور المذكور كان قد توفي قبل تأريخ المقابلة المشار اليها بما يزيد عن عام .

وأخيراً فقد استند المتشككون ايضاً في رفض حكاية ابن بطوطة عن القسطنطينية الى غموض الطريق الذي وصفه للوصول إليها . وتكون معظم المواضيع التي ذكر أسماءها غير معروفة للمؤرخين أو المختصين بالجغرافية التأريخيه . (٣)

---

(١) « جب » ، ص ٣٥٧

(٢) « الرحلة » ص ٢٣٠ ج ١

(٣) لقد وصف ابن بطوطة طريقه الى القسطنطينة كما يلي :

(ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق : وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك ، بينها وبين -

لكن رفض زيارة ابن بطوطة للقسطنطينية استناداً الى المبررات المذكورة أعلاه تنطوي على تعسف واضح ، لا سيما أذا استعرضنا معلوماته الصحيحة عن المدينة وملاحظاته الدقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية فيها . والواقع أن وصفه للقسطنطينية لايمكن أن يكون من أبتكار الخيال بأي حال من الاحوال لأنه لم يكن وصفاً عاماً ينطبق على أي مدينة كانت - شأن وصفه لأغلب المدن الأخرى - كما أننا لا يمكن بالمثل أن نتهمه بأستعارة معلوماته من أحد المراجع العربية لأنه كان أول رحال عربي يشاهد القسنطيطنية في ذلك العصر . وقد يجوز اتهامه بنقل معلوماته من أحد الاسرى العرب الذي أمضى في القسطنطينية فترة أسره . وكان يحدث أن يحمل الاسرى المسلمين الى القسطنطينية ثم يفتدون بالمال أو يبادلون بالأسرى الروم . لكن هذا الاتهام ينطوي على التعسف أيضاً ، لأن حكاية الاسير لايمكن أن تنطبع في ذهن ابن بطوطة بمثل تلك التفصيلات الدقيقة . فحديثه عن قسمي المدينة الشرقي والغربي ، ووصفه لخليج القسطنطينية (بحر مرمرة) ولسور المدينة ، وكذلك وصفه المسهب لكنيسه أيا صوفيا (وأن كان قد أكتفى برصفها من الخارج لأنه لم يستطيع الدخول اليها) ، وأخيراً ملاحظاته الدقيقة عن طبيعة الحياة الدينية في القسطنطينية وعن أهمية الأديرة وعددها الكبير ونمط الحياة فيهـا ، كل ذلك لا يمكن ان يكون من

- أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات. ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرنا يوم فارقنا السلطان الى أول البرية تسعة عشر يوماً واقامتنا خمسة . ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوماً مضحى ومعشى ، ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولي وهو أول عمالة الروم) « الرحلة ج ١ ص ٢٢٢ » .

ابتكار الخيال ، كما لا يمكن أن يكون منقولاً عن حكاية مروية .

ولقد أيّد المستشرقون الذين درسوا « الرحلة » بعناية وترو زيارته للقسطنطينية وعلى رأسهم الاستاذان جب وكراتشكوفسكي . ويعتقد أن غموض الطريق الذي سلكـــه ابن بطوطة نحو القسطنطينة وعدم ضبطه للمدن لا يستدعي انكار الزيارة كلياً . ويبرز ذلك بأن عدم الفة ابن بطوطة للأسماء وجهله بلغة القوم قد أدى الى تحريف شديد في بعض الأسماء ، لاسيما وأنه حاول تذكرها بعد مضى ما يقرب من ربع قرن (١) . كذلك يعتقد جب أن مقابلة ابن بطوطة للامبراطور اندرونيكس الثالث قد لا تكون مختلقة كما يخيل لبعض المؤرخين نظراً لوفاة الامبراطور قبل التأريخ المذكور بعام واحد ، والأرجح أن يكون ابن بطوطة قد أخطأ في تأريخ زيارته ، وانها ربما وقعت ما بين عام ١٣٣١ ـ ١٣٣٢ م (٢) . ويستطرد جب الى القول بأن وصف المدينة بتلك الدقة والشمول لا يمكن أن يكون صادراً إلا من شخص شاهدها بنفسه وتمتع بتسهيلات كتلك التي تمتع بها ابن بطوطة . وفضلاً عن ذالك فأن ملاحظاته عن الحياة الدينية فيها ، لا سيما عن عدد الأديرة والرهبان تأيدت من قبل كتاب غربيين زاروا القسطنطينية في نفس الفترة فقد ذكر برتراندون دي لابلوكير Bertrandon de Bloquiere بأن عدد الكنائس في المدينة يبلغ حوالي (٣٠٠٠) كنيسة وأن أغلب السكان يعيشون في الأديرة (وذلك حوالي عام ١٤٣٢ ـ ١٤٣٣) (٣) .

ولقد أيد كراتشكوفسكي ايضاً جب في رأيه ، وذكر بأنـه على

---

(١) « جب » ص ١٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٨

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥٨

الرغم من أن أضطراب التواريخ كان سبباً في حدوث بعض الخلط لدى ابن بطوطة ، إلا أن من المعترف به بأن وصفه للمدينة نفسها يتسم بطابع الصحة ولا يمكن أن ينتج إلا عن معرفة مباشرة (١) .

ومن الممكن القول بأن معلومات ابن بطوطة عن الامبراطورية البيزنطينة ومدينة القسطنطينة بالذات كانت معلومات أصيلة وعلى جانب كبير من الاهمية ، ولا يقلل من أهميتها ما تضمنته من شطحات الخيال ومن ادعاءات زائفة .

(١) كراتشكوفسكي ص ٤٢٩

(٣)

آسيا الوسطى

شملت جولات ابن بطوطة في آسيا الوسطى بلاد القرم وجنوبي روسيا وتركستان ، وهي مناطق كان يحكمها السلطان محمد أوزبك خان القبيلة الذهبية . والسلطان محمد أوزبك هو أحد سلاطين القرن الذهبي وقد حكم بين عام ١٣١١ ـ ١٣٢٠ م ، وكانت مملكته تمتد من كيف والقوقاز الى بحر أورال وخيفا . وهو حفيد أحد خانات المغول الأربع الذين قسمت فيما بينهم امبراطورية جنكيز خان . وكان جنكيز خان قد استطاع في عام ١١٨٩ م أن يوحد تحت زعامته قبائل المغول التي تنتشر في صحاري منغوليا ثم يزحف على الصين ويستولي عليها عام ١٢١٩ م . ثم اتجه غرباً وأخذ يجتاح بلاد المسلمين فدمر مدن بلاد ما وراء النهر لا سيما بخارى والعاصمة سمرقند ، كما استولى على بلادفارس وسيطر على جميع مناطق اواسط آسيا . وبعد وفاته انقسمت امبراطوريته الى أربعة اقسام بين أبنائه الأربعة فاستقل أحدهم بالصين وتولى الثاني حكم المنطقة الوسطى ، ونال الثالث وهو هولاكو بلاد فارس وأخذ الرابع الجزء الغربي ولقب بـ (خان القبيلة الذهبية) ومن المعروف أن هولاكو كان قد زحف على بغداد فيما بعد واسقطها ودمرها عام ٦٥٦ هـ . واستمر في زحفه عابراً نهر الفرات متجهاً نحو بلاد الشام ، لكن السلطان

الظاهر بيبرس تصدى له في عين جالوت وأوقع في جيشه هزيمة منكرة في عام ٦٥٨ هـ فتراجع عن بلاد الشام .

وكان خان أور رئيس القبيلة الذهبية المسمى بركة خان والذي يحكم تركستان والأراضي الواقعة وراء النهر أول من أسلم من أمراء المغول . أما السلطان محمد أوزبك فهو أحد أحفاده . وهكذا يتضح لنا أن ابن بطوطة قد صور أوضاع المغول وحياتهم الاجتماعية في أول عهدهم بالاسلام . وتبرز هنا أهمية المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي وردت في (الرحلة) ، فهي تعتبر معلومات أصيلة لم يسبق ابن بطوطة اليها أحد . إلا أن معلوماته واوصافه الجغرافية للمنطقة لا ترقى الى مستوى المعلومات الاجتماعية والتاريخية عنها لا سيما وأن كتب الجغرافية العربية السابقة قد حفلت بالمعلومات الجغرافية القيمة عن تلك الجهات .

بلاد تركستان

لقد دخل ابن بطوطة بلاد السلطان محمد أوزبك حينما رست به السفينة في ميناء كافا الواقع على الساحل الشمالي للبحر الأسود . وكان معظم سكان هذا الثغر من التجار الجنوبيين . ثم رحل عنه الى مدينة القرم . ثم تنقل بين مدن عديدة في مناطق القفقاس وجنوبي روسيا قاصداً مدينة السرا عاصمة السلطان محمد اوزبك والتي كانت تقع قرب مدينة استراخان .

ولقد كانت أحاديث ابن بطوطة عن القبائل التركستانية التي تتجول في هذه الجهات ذات قيمة خاصة لأنها اشتملت على ملاحظات قيمة

في النواحي الاجتماعيه والاقتصادية والادارية . ويعتبر ابن بطوطة أول رحاله مسلم صور النظام الأُسري لدى تلك القبائل وأوضح مكانة المرأة فيه . وقد بهرته تلك المكانة العالية ، ولاحظ أنها أعلى شأناً من مكانة الرجل (١) . فقد كانت الأوامر السلطانية تصدر باسم السلطان وزوجه الخاتون (٢) . وكان السلطان في مجلسه الرسمي يستقبل الخاتون الكبرى عند باب القبة ، وكانت تجلس الى يمينه ، بينما تجلس الخاتون الصغرى إلى يساره (٣) . وكان نساء الطبقة العامة من الباعة والسوق يتمتعن بنفس المكانة ، فقد لاحظ انهن لا يحتجبن ، وان احداهن قد تأتي الى السوق بالغنم واللبن فتبيعه الى الناس بالسلع العطرية ، وربما كان معها زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها (٤) ويبدو أن النظام السائد لدى هذه القبائل هو النظام الامي Matriarchal الذي تحتل فيه المرأة المكانة الاولى في الاسرة .

وقد أفاض ابن بطوطة أيضاً فى وصف الجوانب الاخرى من حياة القبائل التركستانية ، وتحدث عنها فى حلها وترحالها وفى مأكلها وملبسها ومشربها مما هيأ لنا صورة ودقيقة عن نمط حياة تلك القبائل ويمكن القول أن ملاحظاته فى هذا الباب تعتبر من أفضل الكتابات الانثروبولوجية العربية القديمة . ومن نماذج تلك الملاحظات وصفه لطريقة ترحّل تلك القبائل الذي سجله على النحو التالي :

(وارتحلنا الى موضع المحلة [محلة السلطان] فوصلنا أول يوم

---

(١) « الرحلة » ص ٢٢١

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ .

(٣) « الرحلة » ص ٢١٣

(٤) المصدر السابق ص ٢١٢

من رمضان فوجدنا المحلة قد حلت فعدنا الى الموضع الذي رحلنا منه لأن المحلة تنزل بالقرب منه . فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت ، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك . وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأُرد فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعداً في الهواء وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم . فاذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهي خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت) (١)

وقد تحدث ابن بطوطة أيضاً عن غذاء هذه القبائل فذكر أنهم لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاماً من شيء شبه الانلي يسمونه (الدوفي) . ثم يسخنون الماء ويصبون عليه شيئاً من الدوفي ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً صغاراً وطبخوه ، ثم جعلوا لكل رجل نصيبه في صحفة وصبوا عليه اللبن الرائب وشربوا عليه الخل وهم يسمونه (القمز) . وقد يستعملون في بعض الاوقات طعاماً يسمونه (البورخاني) وهو عجين يقطعونه قطيعات صغاراً ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدر ، فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها ، ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوفي ، أما الحلواء فيرون أكلها عيباً (٢) .

وأفاض ابن بطوطة أيضاً في وصف احتفالات الاعياد الدينية لدى القبائل التركمانية ، وهي احتفالات يشترك فيها السلطان والامراء وأفراد الشعب ويبالغون في الاحتفاء بها وبمراسيمها مبالغة عظيمة . وقد صوّر ابن بطوطة تلك الاحتفالات تصويراً خلاباً حياً . واتخمها بتفصيلات

---

(١) « الرحلة » ص ٢٠٨

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٨

دقيقة قد يكون من الصعب أن تحتفظ الذاكرة بكل دقائقها (١) .

أما وصفه لعادات بلاط السلطان محمـــد اوزبك وللمراسيم والبروتوكول والاحتفالات التي تتم فيه فكانت على قدر عظيم من الاطناب والتفصيل ، لاسيما ما يتعلق منها بالحديث عن نساء السلطان ومراتبهن وطريقة حياتهن (٢) . ومن المتعذر على الباحث الاقتنـاع بأن ذاكرة ابن بطوطة قد احتفظت بكل تلك التفصيلات ما يقرب من ربع قرن والظاهر أن خياله قد لعب دوراً في تنميق تلك الأوصاف . ومهما يكن الأمر فقد اشتملت على حقائق كثيرة ، وهي ذات قيمة كبيرة باعتبارها أقدم الأوصاف المسجلة في الكتب العربية عن بلاط السلطان التركستاني المسلم ، ولهذا فهي تعتبر مرجعاً أولياً هاماً في بابها .

أما ملاحظاته عن الأوضاع الاقتصاديـة للقبائل التركستانية فلم تكن ضافية شأن ملاحظاته الاجتماعية ، إلا أنه أوضح فيهـا ناحيتين هامتين : الاولى أن تجارتها تقوم عموماً على المقايضـة ، وهو الاسلوب المعهود في تجارة القبائل المترحلة . والثانية اعتماد اقتصاد تلك القبائل على تجارة الخيول . وهذا أمر ليس بالمستغرب ، فمن المعروف ان أراضي تركستان هي الموطن الأصلي للحصان ، ومنها انتشر الى مناطق العـالم الاخرى . ويبدو أن تجارة الخيول في تلك البلاد كانت رائجة جداً ، بالنظر لكثرة عددها وضآلة أثمانها (٣) . وقد سجل لنا ابن بطوطة وصفاً طريفاً لطريقة تصديرها الى الخارج (الهند) ، على النحو التالي :

(وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند ، فيكون في الرفقة منها الستة

---

(١) « الرحلة » ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٤ ـ ٢١٧

(٣) المصدر السابق ص ٢١٠

آلاف وما فوقها وما دونها . لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه . ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعياً يقوم عليها ويرعاها كالغنم ، ويسمى عندهم القشي . ويركب احدها وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي . وإذا وصلوا إلى أرض السند أطعموها العلف . ويموت لهم منها الكثير ويسرق) (١) .

أما ملاحظات ابن بطوطة الاخرى عن بلاد ما وراء النهر وتركستان فلم تكن ذات قيمة تذكر على العموم ، ولكنه صوّر بنجاح ما لحق مدنها - لا سيما بخارى وسمرقند - من تخريب وتدمير على أيدي المغول . وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالحديث عن امرائها السابقين وعن كرامات شيوخها المشهورين ، كما روى بعض الأحداث التأريخية التي يبدو أنها لم تكن دقيقة دائماً . أما ملاحظاته الجغرافية عن تلك البلاد فلم تشمل سوى مظاهر طبيعية محدودة . فقد أشار مثلاً إلى تجمد مياه نهر جيحون في فصل الشتاء كما وصف طريقة عبوره (٢) . كذلك صوّر قسوة الشتاء في صحراء تركستان وبالغ في ذلك مبالغة واضحة . ومن أمثلة مبالغاته وصفه لعبور دشت قفجق ، حيث قال :

(وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين أحدهما مبطن ، وفي رجلي خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب . وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها وإذا غسلت وجهي بالماء فينحدر إلى لحيتي فيجمد فأحركها فيسقط شبه

---

(١) « الرحلة » ، ص ٢١٠

(٢) « الرحلة » ص ٢٣٢

الثلج . والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب . وكنت لاأستطيع الركوب لكثرة ما علي من الثياب حتى يركبني أصحابي) (١) .

بلاد البلغار

إن زيارة ابن بطوطة لبلاد البلغار أو مدينة البلغار قد اثارت شكوك نفر من دارسي « الرحلة » وتنصب تلك الشكوك على ناحيتين: الاولى عدم تحديده لموضع مدينة البلغار بوضوح ، والثانية وصفه لتجارة بلاد الظلمة وصفاً قريباً من الخيال .

فأما مدينة البلغار فقد حدد ابن بطوطة موضعها بأنها تبعد عن محلة السلطان في بشدغ الواقعة قرب مدينة الماجر بمسيرة عشر (٢) . وهذا التحديد كما يتضح ينقصه الوضوح . لكن الأدب الجغرافي الاسلامي في الواقع كان على معرفة بهذه المدينة . وقد تحدث عنها أحمد بن فضلان في رسالته المعروفة ووصف طريق الوصول اليها بالتفصيل . وقد اعتمد ياقوت الحموي على وصف ابن فضلان في تعيين موضعها ، وحددها على النحو التالي :

(بلغار بالضم والغين معجمة مدينه الصقالبة ضاربة في الشمال لايكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفاً ولا شتاءاً ، وقلما يرى اهلها أرض ناشفة وبناؤهم بالخشب ، وبين أتل مدينة الخزر وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد اليها في نهر أتل نحو شهرين وفي الحدود نحو عشرين

---

(١) « الرحلة » ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٢١٧

يوماً ومن بلغار الى بشجر خمس وعشرين مرحلة) (١) .

ومن الواضح أن موقع مدينة البلغار المذكورة لا علاقة له ببلاد البلغار الحديثة التي تقع على الضفه الغربية للبحر الأسود . وقد حدد أحد المصادر الحديثة مدينة البلغار على خط عرض ٥٤° ٥٤' شمالاً (٢) . أما الاستاذ جب فيقول إن آثار مدينة البلغار تقع على الضفة اليسرى لنهر الفولغا تحت التقائه بنهر كاما Kama . ويضيف الى ذلك قوله بأن هذه المدينة كانت عاصمة لمملكة بلغاريا الكبرى وانها كانت مركزاً رئيسياً لتوزيع تجارة روسيا وسيبريا ، وقد استولى عليها المغول في القرن الثالث عشر (٣) .

ولقد دعا موقع المدينة هذا الاستاذ جب الى التساؤل - ونحن بدورنا نتساءل معه - عن كيفية قطع ابن بطوطة للمسافة بين مدينة الماجر ومدينة البلغار بمسيرة عشرة أيام مع العلم أن بين المدينتين ما يقرب من (٨٠٠) ميلاً ؟ .

ومع أن هدف ابن بطوطة من رحلته الى مدينة البلغار كان - كما اوضحه - التأكد من قصر النهار أو الليل ، إلا أنه مع ذلك أشار الى هذا الموضع اشارة عابرة ، بينما تحدث في موضع ثانوي حديثاً مسهباً ولم تنم إشارته تلك عن استيعاب للموضوع . فلقد قال : (ووصلتها في رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في اثناء افطارنا فصلينا وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر إثر ذلك ، وكذلك

---

(١) « معجم البلدان » لياقوت الحموي ج ١ ص ٤٨٥ - ٤٩٠ ، منشورات دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٥٥ .

(٢) « الانسكلوبيديا البريطانية » - ابن بطوطة

(٣) « جب » ، ص ٣٧٥

يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً) (١) . ومن الواضح أن في إمكان اي شخص سمع بتلك الظاهرة أن يصفها كما فعل ابن بطوطة من دون أن يكون قد شاهدها بنفسه ، فضلاً عن ان هذا الوصف يفتقر الى الدقة إذ لا يبلغ قصر الليل في تلك الجهات الى ذلك الحد فى الحقيقـــة . وتتجلى سذاجة هذا الوصف بمقارنته بوصف ابن فضلان الذي زار المنطقة بنفسه وسجله على النحو التالي :

ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً . إذ أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار . فلمـــا كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة . وإذا الشفق الاحمر الذي قبل المغرب لا يغيب البتة وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من اكثر من غلوة السهم . . ورأيت القمر لا يتوسط السماء بل يطلع فى ارجائها ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر . .

ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الانسان اليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى ، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وعرفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل حتى أن الرجل منا ليخرج الى موضع يقال له أتل بيننا وبينه مسيرة أقل من فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه الى القمة الى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء . فما برحنا من البلدة حتى امتد الليل

---

(١) « الرحلة » ص ٢١٧ ج ١

وقصر النهار) (١) .

وهكذا فان تحديد ابن بطوطة اللامنطقي للمسافة بين ماجار وبلغار وكذلك حديثه الموجز الغامض عن ظاهرة قصر الليل والنهار يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يزر مدينة البلغار بنفسه ، بل نقل ما تناهى اليه من معلومات عنها .

أما ما يتعلق بوصفه لطريق التجارة في بلاد الظلمة والذي اثار بالمثل الشكوك حول رحلته فلا يمكن ان يتخذ عاملاً ضده . فهو لم يدع زيارة تلك البلاد . وقد قال في ذلك : (وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة والدخول اليها فى بلغار ، ثم اضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى) (٢) . ولا ريب أنه نقل معلومات عن التجار الذين التقى بهم فى عاصمة السلطان محمد أوزبك خان . وكان قد ذكر لدى حديثه عن عاصمة محمد أوزبك أنها تشتمل على حي خاص بالتجار الاجانب الذين يفدون عليها من جميع الجهات ، وفيهم العراقي والمصري والشامي (٣) . وكان نفر منهم يغامر بالسفر الى بلاد الظلمة (سيبريا) للاتجار بالفراء . ويبدو أن تجارة الفراء كانت رائجة جداً بالرغم من غلاء اسعارها . وقد ذكر ابن بطوطة أن بعض انواعها تباع فى الهند بحوالي مائتين وخمسين ديناراً ذهباً ، وقد يصل سعر بعضها الى اربعمائة ديناراً ذهباً (٤) . ولقد صور ابن بطوطة طريقة التجارة فى بلاد الظلمة

---

(١) « رسالة ابن فضلان » ـ حققها الدكتور سامي الدهان . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٩ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

(٢) « الرحلة » ص ٢١٧ ج ١

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٠

(٤) المصدر السابق ص ٢١٨

على النحو التالي :

(فاذا اكملت للمسافرين بهذه الغلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد . فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمّور والسنجاب والقاقم . فان أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه ، وإن لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم اعني أهل الظلمة ، وتركوا امتاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من ببايعهم ويشاريهم أمن الجنس هو أم الانس ولا يرون أحداً) (١) .

ولقد اعتبر كراتشكوفسكي حديث ابن بطوطة هذا عن بلاد الظلمة يعود إلى فكرة غير موثوق بها أو الى مصدر أدبي أساء فهم روايته (٢) لكن الواقع أن كتب الجغرافية العربية التي يمكن أن يستقي منهـا ابن بطوطة أو ابن جزي معلوماتهما لا تشتمل على أي وصف من هذا النوع لبلاد الظلمة . ومن المعلوم أن أهم رحلتين زار صاحباهما منطقة الفولجا هما رحلة ابن فضلان ورحلة أبي حامد الغرناطي ، وهاتان الرحلتان تخلوا من مثل هذه المعلومات ومع أن وصفه لطريقة التجارة في بلاد الظلمة يبدو غريباً فعلاً وأقرب الى الخيال ، إلا أنه لا يخلو من جذور واقعية . فقد نقل الدكتور زكي محمد حسن ـ بصدد دفاعه عن حكاية ابن بطوطة هذه ـ حديثاً للاستاذ الونشير في كتابـه : La Decouverte de L,Afrique Moyen Age يذكر فيه أن الأوربيين قد عرفوا هذا الاسلوب في التجارة مع الهنود الحمر في امريكا ، كما

---

(١) « الرحلة » ص ٢١٨

(٢) كراتشكوفسكي ص ٤٢١

عرفه الفرطاجنيون مع بعض الامم في العصور القديمة ، وعرفه الأحباش مع بعض القبائل الافريقية في القرن السادس الميلادي (١) . ومن المعروف أيضاً ان الأقزام الافريقيين يتبادلون التجارة مع جيرانهم الزنوج على هذا التحديد وهو ما يطلق عليه اسم (التجارة الصامتة) (٢) .

وإذا كان حديث ابن بطوطة عن التجارة في بلاد الظلمة مثيراً للشكوك ، فان وصفه لطريقة السفر في تلك البلاد دقيقاً وصادقاً . ولقد سجله على النحو التالي :

(والسفر إليها - أي إلى سيبيريا - لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها . والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها في الجليد . ولا يدخلها إلا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة ، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها . وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات الخ) (٣)

وهكذا يتبين لنا أن معلومات ابن بطوطة عن تلك الجهات مفيدة وصحيحة عموماً بالرغم من أن وصوله الى بلاد البلغار أمر مشكوك فيه

---

(١) « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » للدكتور زكي محمد حسين ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٤٥ .

2 - page , J . W , « primitive races of to - day » london 1938 , p . 15 .

(٣) « الرحلة » ص ٢١٧ ج ١

(٤)

الشرق الاقصى

تشمل جولات ابن بطوطة في الشرق الاقصى الهند وجزر المحيط الهندي والصين ، ويشغل حديثه عن هذه الجولات ما يقرب من نصف « الرحلة » . ويعود سبب هذا الاهتمام الى كونه قد أمضى قرابة عشرة أعوام من غربته فى تلك الجهات . فامتلأت جعبته بالحكايات عنها . وقد بلغت بعض تلك الحكايات حداً من الغرابة أثار الشكوك في نفوس السامعين من معاصريه ، كما أثار ظنون بعض دارسي « الرحلة » وقبل أن نتناول ثمار مشاهداته وملاحظاته فى تلك البلدان لابد لنا أن نوضح الظروف والملابسات التي أثارت عاصفة الشك حول هذا الجزء من « رحلتـه » لدى معاصريه ولدى المستشرقين .

لقد كانت حكاياته عن الهند وملكها محمد طغرل شاه أشد الحكايات غرابة بالنسبة لمعاصريه . فقد روى من القصص عن بذخه وترفه وكرمه ما يغرق الخيال ، كما حكى عن قسوته وبطشه ما يتجاوز التصور . ومما لا ريب فيه أن خياله قد لعب دوراً هاماً فى تلك الحكايات ، إلا أنـه بالتأكيد لم يختلقها اختلاقاً . فلقد تهيأت له فرصة للعيش فى معية الملك محمد شاه قرابة ثماني سنين ، وقد خالط أثناء تلك المدة رجال بلاطه

والمقربين منه وسمع منهم كثيراً من القصص ، ولكنه لم يمحصها وقد أثبت ابن بطوطة خلال « رحلته » بأكملها أنه مستعد لتصديق كل ما يسمع من حكايات وأخبار مهما بلغت غرابتها وندر ما حاول محاكمتها محاكمة منطقية . ويمكن أن يعزى موقفه هذا إلى كثرة ما شاهد وسمع من حكايات يفوق بعضها الخيال بالرغم من واقعيتها . اضافة إلى طبيعة ثقافته الضحلة . فهو اذن لم يتعمد الكذب في رواية اخبار ملك الهند أو فى تصوير ما جرى له من حوادث وغرائب ، لكن خياله الحي زوق بعض تلك الأحداث . وإذا كانت حكاياته عن الهند قد بدت غريبة لمعاصريه بما اشتملت عليه من قصص البذخ المفرط والفقر المدقع والطبقية الحادة والشعوذة والسحر ، فان تلك الحكايات لم تعد غريبة على مسمعنا فى الزمن الحاضر . فنحن نعرف اليوم أن شبه القارة الهندية بأرضهـــا الواسعة المتنوعة وغاباتها الكثيفة وجبالها الشاهقة وطبقاتها الاجتماعية المتنافرة بثرائها الباذخ وفقرها المدقع حافلة بكل عجيب وغريب .

أما حكاياته عن جزر المحيط الهندي ، لاسيما جزر الملديف التي أقام فيها ما ينيف على عام ونصف ، فقد أثارت الريبة في نفوس سامعيه بما اشتملته من معلومات غريبة عن الحياة الاجتماعية لتلك الاقطـار النائية ، وخصوصاً عن الحياة العائلية . وبما أن سكان تلك الجزر كانوا يدينون بالاسلام فقد بدت بعض عاداتهم شاذة متنافية مع طبيعة التعاليم الدينية . ومهما قيل عن غرابة تلك الحكايات ، فانها تعتبر مصدراً أولياً عن الحياة الاجتماعية لتلك الجزر في ذلك العهد ، ويعتبر ابن بطوطة أول كاتب بدون الملاحظات عنها .

أما ما يتعلق بأخباره عن الصين فلم تشتمل على أيـة غرائب ، بل كانت تصويراً أميناً لأهم معالم الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية

في تلك البلاد . وتُعزى شكوك البحاثة المعاصرين عن زيارته للصين الى غموض وصفه للطريق الذي سلكه إلى تلك البلاد ، وإلى اضطراب أسماء المدن والبقاع التي تحدث عنها وسنناقش هذه النقاط في الصفحات التالية تفصيلاً .

الهنـــد

لابد أن نوضح منذ البداية بأن معلومات ابن بطوطه عن الهند لا تتناسب في أهميتها مع طول الفترة التي مكثها في البلاد ، وهي كما ذكرنا حوالي ثماني سنوات ، كما لا تتناسب مع المنصب الذي تقلده لفترة طويلة ، وهو قضاء مدينة دلهي . فقد تيسرت له فرص الاختلاط بأكبر عدد ممكن من حاشية الملك محمد شاه ومن رجال الدين ومن بقية أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم . ومع ذلك فلم تنعكس تلك التجارب الحافلة على معلوماته عن الهند . والواقع أنه قد عني عناية خاصة بالجوانب التاريخية والسياسية دون الجوانب الاجتماعيـة والاقتصادية . ولذلك يمكن أن تعتبر أحاديثه عن البلاد الهندية في ذلك العصر ، ولا سيما عن الامارات الاسلامية ، مرجعاً هاماً وأصيلاً للمؤرخين ولدارسي تاريخ الهند في العصور الوسطى . ويمكن الحكم بأن الصورة التاريخية التي رسمها ابن بطوطة لأحوال الهند السياسية أثنـــاء القرن الرابع عشر وايضاحه لطبيعة الصراع الذي كان يدور بين ملوك وامراء الولايات الاسلامية الهنديه كانت على جانب عظيم من الأهمية ، وهي توضح العوامل التي يسرت للبرتغاليين خلال القرن الخامس عشر الاستيلاء على البلاد والقضاء على حكم الملوك والامراء المسلمين وتتميز روايتـه للأحداث

التاريخية التي سبقت ورافقت وأعقبت حكم السلطان محمد شاه بأمانة واضحة ، كما يتصف موقفه من الملك محمد شاه بموضوعية عالية ، فقد روى أخبار قسوته الوحشية وحكايات بذخه المفرط بحياد واضح . لكن المرء لا يسعه وهو يقرأ تلك الحكايات إلا الاعتقاد بأن خياله قد ساهم في تزويقها بالرغم من أنه يقسم ايماناً غليظة بين الحين والحين أنه لم يرو سوى ما شاهده بنفسه .

أما ملاحظاته في الجغرافية الطبيعية للهند فكانت موجزة وذات أهمية ثانوية جداً . ولعل أبرزها تلك التي تناولت بصورة عابرة الحديث عن نهر السند والمناخ الموسمي وجبال هملايا . ولا يمكن الاستفادة من معلوماتها نظراً لايجازها وعمومها . فقد ذكر مثلاً أن نهر السند المعروف بپنج آب ومعناه المياه الخمسة هو من أعظم أودية الدنيا ، وهو يفيض في أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية بالنسبة لنهر النيل (١) .

وتكتسب أوصافه للمدن الهندية أهمية خاصة بالرغم مما يعتورها من أخطاء في التسميات وتحريف في المنطق ، مما أوقع الباحثين في حيرة وجدل بالنسبة لكثير منهـــا . ومما زاد في صعوبة تمييز المدن الهندية المذكورة اضطراب الطرق التي سلكها ابن بطوطة أثناء سفراته وعدم انتظامها في خط معين فهو يقفز قفزات غير طبيعية بين موضع وآخر . وهذا أمر يمكن أن يُعذر عليه ، فقد قام بجولات بين المدن الهندية منذ سنوات طويلة ، وفضلاً عن أنـــه قام بتلك الجولات على فترات متقطعة .

وهنالك نقطة هامة تتعلق بالطريق الذي سلكه الى الهند . فقد

---

(١) « الرحلة » ص ٢ ج ٢

ذكر أنه دخل الهند عن طريق افغانستان . والطريق الافغاني الى الهند يعبر جبال سليمان ويخترق ممر خيبر ، وهو الباب الشمالي الغربي الى الهند منذ أقدم الأزمان . لكن وصف ابن بطوطة لمدخل الهند لا ينطبق على هذا الطريق . ويعتقد الدكتور العدوي أن مرور ابن بطوطة بغزنة التي تقع فوق هضبة مرتفعة تشرف على سهول الهند والتي يمكن الوصول اليها عن طريق وادي كابل يدل على أنه قد سلك ذلك الوادي لدى دخوله الى الهند (١) . أما جب فيعتقد أن من المتعذر الحكم بشكل نهائي على الطريق الذي سلكه ابن بطوطة الى الهند . فقصته حول قطاع الطرق الافغانيين الذين اعترضوه في الطريق تدل على كونه قد سلك الطريق المألوف الى الهند - أي طريق ممر خيبر - لا سيما وأن مدينة شاشنغار التي ذكرها قد قرنت بمدينة هاشتناغار Hashtnagar التي تقع بالقرب من بشاور . إلا أن حديثه عن الصحراء التي قطعها قبل دخوله الى الهند والتي امتدت خمسة عشر يوماً ، وكذلك اشارته الى مروره بمدينة غزنة تدل على طريق غامض آخر من خلال جبال سليمان يؤدي إلى المجرى الاسفل لنهر السند (٢) . ومن الجدير بالذكر أنه كان أول من أطلق على جبال هندكوش اسمها الحالي (٣) .

وتتناول ملاحظات ابن بطوطة عن الحياة الاقتصادية في الهند جوانب متعددة ، إلا أنه عني عناية خاصة بالنواحي الزراعية . وقد شرح بأسهاب الفصول الزراعية فذكرها بانها تنقسم الى فصلين رئيسيين يشتمل الاول منهما على الزراعة الخريفية ، ويشتمل الثاني على الزراعة

---

(١) العدوي ، ص ٨١

(٢) « جب » ، ص ٣٦٠

(٣) الانسكلوبيدا البريطانية حرف ق

الربيعية ، ويزرع الفلاحون المزروعات الخريفية فى أوان القيظ عند نزول المطر ويحصدونها بعد مرور حوالي شهرين . وأهم مزروعاتهم الخريفية الكذر وهو نوع من الحبوب يشبه الدخن ، وكذلك الماش ، واللوبيا ، وانواع اخرى من الحبوب هي (الشاماخ) و (الموت) و (القال) . وتمثل حبوب القال طعام الفقراء ويقتاتون عليها أغلب أيام السنة :

أما المزروعات الربيعية فيباشر الفلاحون بزراعتها بعد حصاد المحاصيل الخريفية ، وتزرع فى نفس الحقول التي كانت مزروعة بالحبوب الخريفية ، وعزا ابن بطوطة ذلك الى طيب التربة وجودتهـــا . واهم الزراعات الربيعية القمح والشعير والحمص والعدس . ويزرع الفلاحون الهنود ايضاً بالاضافة الى المحاصيل الخريفية والربيعية المذكورة أعلاه السمسم وقصب السكر والرز ، وهم يزرعون الرز ثلاث مرات فى العام (١) .

وفصل ابن بطوطة ايضاً فى الحديث عن الفواكه التي تزرع فى الهند ، ووصف اشجارها وثمارها باسهاب . وذكر منها العنبة التي تشبه أشجار النارنج ، والشكي والبركي ، وهما خير فاكهة ببلاد الهند واشجارها عادية تشبه فى اوراقها شجر الجوز ، كما تشبه فى ثمارها القرع الكبار ، وكذلك التند وهو ثمر يشبه الابنوس وحباته قـــدر حبات المشمش ، والنارنج الحلو ، والمهو وثمره مثل الاجاص الصغير والجوز يشبه ثمرة الزيتون . وقد ذكر بأن النارنج الحامض غزير الوجود وكذلك العنب الذي لا يوجد إلا فى دلهي وبعض البلاد الاخرى . ويزرع الرمان بكميات قليلة أيضاً ، أما التين فلا وجود له في الهند (١)

---

(١) « الرحلة » ص ١٢ ـ ١٣ ، ج ٢

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ ـ ١٢

وتحدث ابن بطوطة أيضاً عن أهمية الثروة الحيوانية في البلاد . فذكر بأن الثيران تستخدم في الفلاحة ، بينما تستخدم الابقار في المواصلات . والنقل استخداماً واسعاً نظراً لأن الهنود يستعيبون ركوب الحمير ويحرم غير المسلمين ذبح الابقار واكل لحومها . أما الخيول فهي قليلة وغالية الثمن وتستورد من الخارج ولا يقتنيهـــا سوى ذوو الثروة والنفوذ .

وشرح ابن بطوطة الطريقة المتبعة في تغذية الحيوانات ، فقال بأن الهنود لا يطعمون حيواناتهم التبن بل يوفرون لها العشب . وبالاضافة الى العشب، تطعم أيضاً الحمص الذي يخرشونة ويبلونه بالماء وهناك طريقة لتسمينها وهي أن تطعم أوراق الماش لمدة شهر بعـد أن تسقى السمن عشرة ايام ، يقدم لها في كل يوم ثلاثة أو أربعة أرطال ، ولا تستخدم للركوب في تلك الفترة . وتطعم كذلك نوعاً من الحبوب تسمى (موت) وهي تزيد من سمنتها ، ولا تطعم الشعير بتاتاً (١) .

وتناول ابن بطوطة الحديث عن الصناعات في الهند ، لكن حديثه عنها كان موجزاً نظراً لأن أهميتها كـانت ثانوية . وقد أوضح بأن الصناعات في الهند كانت قليلة ومنها صناعة الخيام من الاعشاب وصناعة ثياب الكتان وصناعة نسيج القطن الرقيق الذي قد يبلغ ثمن الثوب منه مائة دينار ، وصناعة الانسجة الحريرية التي يسمونها (الجز) والتي يخرجونها في خمسة ألوان . وهنالك صناعات محلية شائعة وهي صناعة استخراج الزيت من نوى بعض الثمار واستعماله وقوداً للمصابيح .

ولم يسجل ابن بطوطة عن النشاط التجاري في الهند سوى ملاحظات عابرة ، إلا أن من الممكن ان ندرك أهمية هذا الجانب الاقتصادي في

---

(١) « الرحلة » ص ١٢ - ١٣

البلاد . فقد أشار الى ازدحام موانيء الهند الرئيسيـــة بمئات السفن والقوارب التي تقصد الى الصين والى البحر العربي والى خليج البصرة والبحر الأحمر . وقد ذكر أن لميناء لاهري التي تقع على ساحل البحر الكبير مرسى عظيماً يأتي اليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم فعظمت جبايتها وكثرت اموالها (١) . وقد لاحظ عند مروره بميناء كاليكوت أن مرساها من أعظم مراسي الدنيا يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل (المالديف) وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق (٢). وقد أخبرنا أيضاً أن ميناء منجرور الذي يقع على ساحل المليبار ذا أهمية تجارية بالغه ، وبه ينزل معظم تجار فارس واليمن (٣) . ولعل من أبرز الدلائل على أهمية النشاط التجاري في الهنـــد نظام المكوس الذي كان يطبق في البلاد تطبيقاً صارماً . فقد كان يبحث في مدن الحدود عن امتعة المجتازين أشد البحث وتفتيش رحالهم تفتيشاً دقيقاً وكانوا يتقاضون الربع من كل ما يجلبه التجار (٤) .

أما ملاحظات ابن بطوطه عن الاوضاع السياسية والادارية فهي من أهم الوثائق التى تؤرخ لاوضاع الهند في ذلك العهد . وقد لخص لنا فى موضوع من مواضع « رحلته » وضع الهند السيـاسي بقولـه : (وأهل الهند أكثرهم كفـار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية فى اقطاعه ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويطقعون

---

(١) « الرحلة » ص ٧ ج ٢

(٢) « الرحلة » ، ص ١١٥

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٢

(٤) المصدر السابق ، ص ٨

الطريق (١) .

ولقد صور لنا ابن بطوطة تصويراً شيقاً بلاد السلطان محمد شاه وتحدث باسهاب عن طاقم حكومته وعن طريق تصريفه لشؤون الدولة (٢) كذلك سجل لنا بعض الجوانب الادارية الهامه التي عنيت بها الدولة كتنظيم طرق المواصلات . وكانت توضع على الطرق بين المدن الرئيسية الكبرى اعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين ، كما كانت تنشأ دور الاستراحة التي تزود بكل ما يحتاج اليه المسافر . وعنيت الدولة أيضاً بالبريد ونظمته تنظيماً ممتازاً ، وقد صوره ابن بطوطة على النحو التالي :

(والبريد ببلاد الهند صنفان ، فأما بريد الخيل فيسمونه الولاق (اولاق) وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال . وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة ، والداوة هي ثلث ميل . والميل عندهم يسمى الكروة وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة فقد شدوا أوساطهم وعند كل واحد مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الاخرى يشتد بمنتهى جهده . فأذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا ، فأذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه . وهذا البريد أسرع من بريد

---

(١) « الرحلة » ص ١٣

(٢) المصدر السابق ص ٣٥ - ٣٦

الخيل . وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة للسلطان وكذلك يحملون الكبار من ذوي الرتب يجعلون الرجل على سرير ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شدا وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان من نهر الكنك) (١) .

أما ملاحظات ابن بطوطة عن الأوضاع والعادات الاجتماعية للسكان الهنود فقد تناثرت بين ثنايا « الرحلة » من دون تركيز . وقد وردت في اغلب الاحوال بشكل عرضي مما أفقد القارىء الاحساس بأهميتها . والواقع أن ابن بطوطة لم يعن بالحديث عن افراد الشعب البسطاء قدر عنايته بالحديث عن السلاطين والامراء ، ولم يرد ذكرهم إلا عرضاً . وتكشف تلك الاشارات العرضية عن الفوارق العظيمة بين طبقات السكان . فقد كان هنالك طبقة من الحكام وحاشيتهم تنعم بالثراء الباذخ والنعيم المقيم الذي يتمثل في حياتها المترفة الناعمة ومأكلها ومشربها ومسكنها وما تقتنيه من ذهب وجوهرات ، وهي طبقة تتألف من عدد محدود من الناس . وتقابلها طبقة تؤلف الغالبية الساحقة من الشعب وهي تعيش على حافة الجوع ، وكثيراً ما تعرضت الى مجاعات ابتلعت الملايين من افرادها .

والمعروف أن الهند تعاني - بالاضافة الى التمايز في الثروة - من طبيعة دينية حادة ، لكن هذا التمايز والطبقية لم يظهر في أحاديث ابن بطوطة . ولعل الملاحظة الوحيدة التي وردت حول هذا الموضوع هي اشارته الى طائفة السامرة التي تدين بالاسلام والتي قال عن أفرادها أنهم يسكنون مدينة جناني على مقربة من نهر السند ، وهم لا يتزوجون من خارج طائفتهم ، كما لا يتزوج منهم أحد .

---

(١) « الرحلة » ص ٢ - ٣

وقد أشار ابن بطوطه أيضاً إلى بعض العادات الاجتماعية التي تسود بين البراهمة ، ومنها عادة حرق الزوجة بعد وفات زوجها . وقد صور لنا مشهداً شيقاً لهذه الظاهرة كان قد عاينه بنفسه . وقد أوضح أن احراق المرأة بعد زوجها أمر مستحب وليس واجباً ، إلا أن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ونسبوا الى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفاتها ، ولكنها لاتكره على احراق نفسها (١) .

وأشار ابن بطوطه أيضاً الى عادة البراهمة في اغراق انفسهم في نهر الكنج ، وذكر أن الكثير منهم يغرقون أنفسهم في نهر الكنك وهو الذي اليه يحجون وفيه يرمى برماد المحروقين ، ويقولون أنه في الجنة وروى ابن بطوطة أنه إذا أتى احدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره : لا تظنوا أني أغرق نفسي لأجل شيء من امور الدنيا أو لقلة مال إنما قصدي التقرب الى كساي (اي الله) ، ثم يغرق نفسه فأذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في النهر المذكور (٢) .

وسجل ابن بطوطة أيضاً عادة اخرى من عادات البراهمة وهي تحريم ذبح البقر وذكر أن جزاء من يذبحها عندهم أن يخاط في جلدها ويحرق . وهم يقطمون البقر ويشربون ابوالها للبركة وللاستشفاء اذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها (٣) .

وتناول ابن بطوطة جوانب كثيرة من الحياة اليومية والاجتماعية للسكان الهنود المسلمين فوصف ملابسهم وذكر أنهم يشتركون جمعياً في

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٤

(٢) المصدر السابق ص ١٥

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠

لبس الثياب البيض كما وصف افرشتهم وذكر انها تتكون من سرير خفيف الحمل وهو عبارة عن أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر الحرير والقطن (١) .

وأسهب ابن بطوطة في وصف مجالس الطرب والغناء لدى أثرياء الهنود ، ويمكن أن نستدل منها على ولع الهنود عموماً بالرقص والغناء كذلك أسهب في وصف حفلات الطعام لدى الأغنياء والامراء وما يقدم فيها من أصناف المآكل وما يتبع فيها من تقاليد (٢) أما طعام أبناء الشعب فقد ذكر أنه يتألف على الأغلب من حب الشاماخ الذي يجمع وينشر في الشمس ثم يدق في مهارس الخشب حتى يطير قشره ويبقى لبه أبيضاً ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس كما ذكر أنهم يفطرون كل يوم على أكلة يطلق عليها اسم كشري وهي تصنع من طبخ حبوب كالماش يسمونها المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن (٣) .

كذلك صوّر بصورة شيقة أخاذة احتفالات الهنود المسلمين في الأعياد والزواج وفي الوفاة والدفن . ولم ينس أن يخصص اهتماماً واضحاً في المرأة الهندية ، فوصف شكلها وموقفها من الرجل وتناول كل دقائق حياتها ، وقد وردت تلك الأحاديث بشكل عرضي ومتناثر في « الرحلة » .

وهكذا يتضح لنا أن ملاحظات ابن بطوطة عن الهند تتناول شتى الجوانب ويمكن القول أنه لم يترك ناحية دون أن يطرقها ، لكن ملاحظاته كما ذكرنا متناثرة بين مئات الحكايات حتى ليصعب غربلتها وتقدير

---

(١) « الرحلة » ، ص ٧٦

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢

أهميتها . غير أننا يمكن أن نحكم باطمئنان أن تلك الملاحظات ـ لاسيما الاجتماعية منها ـ لم تضف شيئاً جديداً ذا أهمية إلى معلومات الجغرافيين المسلمين السابقين . وتتجلى هذه الحقيقة بمقارنة ملاحظاته بكتابات الجغرافيين الأوائل . فلقد اهتم الجغرافيون المسلمون في وقت مبكر بأخبار الهند ، وسجلوا معلومات طيبة عنها ، لا سيما في النواحي الاجتماعية . فقد تحدث ابن رسته مثلاً في كتابه (الأعلاق النفسية) [حوالي ٢٩٠ هـ ـ ٩٠٣ م] عن الديانة البرهمية ، وعن الصنم الذي يحج إليه البراهمة في مدينة ملتان (١) . كذلك أشار الى بعض العادات والتقاليد الاجتماعية الهندية . وقد ذكر أن تجار الهنود وسائرهم لا يشربون الشراب لا قليله ولا كثيره ويعافون الخل من الأشربة . ومن رأوا من أهل الاسلام من يشرب الشراب اعتبروه خسيساً واحتقروه (٢) .

ومن أوائل كتب الجغرافيين العربية التي تحدثت عن الهند أيضاً كتاب (مختصر كتاب البلدان) لابن الفقيه ويبدو انه قد اقتبس معلوماته عن كتاب أبي زيد السيرافي (٣) .

أما الاصطخري فقد تحدث باسهاب عن صنم البراهمة في مؤلفه (كتاب الاقاليم) [منتصف القرن الرابع الهجري] ومما ذكره :

(والملتان مدينة نحو نصف المنصورة وبها صنم يعظمه الهند وتحج إليه من أقاصي بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم في كل سنة بمال عظيم

---

(١) « الأعلاق النفسية » المجلد الرابع ، تصنيف أبي علي أحمد بن علي بن رستة ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام ١٨٩١ ، ص ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٢

(٣) « مختصر كتاب البلدان » لابن الفقيه الهمذاني ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن عام ١٨٨٥ ، ص ١٣ ـ ١٥

ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به . وصورته على خلقة انسان متربع على كرسي من جص وآجر . والصنم قد البس جميع بدنه جلداً يشبه السجستان الأحمر لا يتبين من جثته إلا عيناه . فمنهم من يزعم أن جسده خشب ، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب إلا أنه لا يترك بدنه ينكشف وعينـــاه جوهرتان وعلى رأسه اكليل ذهب متربع على ذلك الكرسي قد جعل ذراعيه على ركبتيه وقد قبض أصابع كل يديه كأنما يحسب أربعة . .) (١) .

وقد نقل هـذا الوصف حرفياً أبو القاسم ابن حوقل النصيبي في كتابة (صورة الارض) الذي ربما كان نسخه منقحة لكتاب (الأقاليم) (٢) والغريب أن ابن بطوطة لم يشر إلى وجود هذا الصنم بالرغم من أهميته العظيمة لدى البراهمة ، مع أنه كان يُعنى بذكر امور تافهة وعارضة .

وقد اهتم الادريسي أيضاً في كتابـه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) بالحديث عن الهند ، ولا ريب أنه قد اعتمد في معلوماته على المراجع العربية المبكرة . ومن أهم ما ذكره عن عادات الهنود ما يلي :

(وبسط العدل فى أهل الهند طبيعة لا يعولون على شيء سواه . . وطعام أهل الهند الارز والحمص والباقلاء واللوبياء والعـــدس والماش والسمك والحيوانات التي تموت موتاً طبيعياً . ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً لا كبيراً ولا صغيراً . وأما البقر فانها محرمة عليهم البتة ، فاذا ماتت دفنت ، وهـذا فعلهم فى البقر خاصة دون سائر البهائم . وإذا ضعفت البقر عن الخدمة والتصرف رفعت عن التعب وأمر بالنظر إليها

---

(١) « كتاب الأقاليم » للشيخ أبي اسحاق الفارسي المعروف بالاصطخري . منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ميلر ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) « صورة الأرض » لابن حوقل النصيبي ـ القسم الثاني طبع في ليدن عام ١٩٣٨ ص٣٢٢

وبالعلف من غير أن تستخدم على ظهورها إلى أن تموت . وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم وإذا مات الملك صنعت له عجلة على قدر عريضة . . وتوضع على العجلة قبة مكللة ويوضع الملك بحلية كفنه على تلك العجلة ويطاف على تلك المدينة كلها يجره عبيده . .

وأهل الهند لا يحزنون كثيراً ولا يقولون بالهموم جملة . وجملة البلاد الهندية المجاورة للسند الذين قد مازجهم المسلمون يدفنون موتاهم في بيوتهم بالليل تستراً ويسوون التراب عليهم ولا يبكون ميتاً ولا يحزنون عليه كثيراً) (١) .

وقال في موضع آخر يصف عناصر السكان :

ولعل الهند سبعة اجناس أحدهم الساكهرية وهم الاشراف منهم ثم البراهمة وهم عباد الهنود ، ثم الكستية وهم يشربون من الخمور ثلاثة أصناف ، ثم الشودية وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة ، ثم ثم الغشية وهم أصحاب المهن والصناعات ، ثم السندالية وهم أصحاب اللحون وفي نسائهم جمال مشهور ، ومنهم الركبة وهم سمر أصحاب لهو ولعب ومعارف) (٢) .

ولعل اقدم كتب الجغرافية والرحلات العربية التي تحدثت عن الهند هو كتاب أبي زيد السيرافي المنقول عن رحلة التاجر سليمان . ويبدو أن كثيراً من الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الأوائل قد اعتمد على هذا المصدر فى أحاديثهم عن بلدان الشرق الاقصى . ونظراً لأهمية معلومات هذا الكتاب فسنثبت المقتطفات المشهبة التالية عنه .

---

(١) « وصف الهند وما جاورها من البلاد » من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الادريسي ، منشورات الجامعة الاسلامية في مليكزة ، ١٩٥٤ ، ص ٦٠ ـ ٦٢ .

(٢) « وصف الهند وما جاورها » ، ص ٢٢ .

قال متحدثاً عن أهل الهند :

(والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار . وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه ، وإن شئن لم يفعلن . .

وببلاد الهند من ينسب الى السياحة فى الفياض والجبال وقل ما يعاشر الناس . يأكل احياناً الحشيش وثمر الفياض ويجعل فى احليله حلقة حديد لئلا يعاشر النساء . ومنهم العريان ، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عرياناً إلا أن عليه شيئاً من جلود النمور .

وفي كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك ولهم ولاة عهود . وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلا فيهم . وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل ملك ببلاد . .

وأهل الهند يعيبون الملاهي ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب ، وليس ذلك دين ولكن أنفة . ويقول : أي ملك شرب الشراب فليس بملك) (١) .

وقال في موضع آخر يقارن بين عادات أهل الهند وأهل الصين :

(وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم ثم تهادوا ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول . وهديتهم من المالي على قدر الامكان . وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند . وأن زنا رجـــل بأمرأة على رضى منها قتلا جميعاً .

والسرق في جميع بلاد الصين والهند القليل منه والكثير القتل . فأما الهند فاذا سرق السارق فلساً فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيحد طرفها ثم يقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقه .

---

(١) « أخبار الهند والصين » لأبي زيد السيرافي ص ٢٢ ـ ٢٣ .

وحيطان أهل الصين الخشب وبناء أهل الهند حجارة وجص وآجر وطين . وكذلك ربما كان بالصين أيضاً .

وليس الهند ولا الصين بأصحاب فرش ، ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء .

وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز ، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة .

والهند يطولون لحاهم ، وربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع ولا يأخذون شواربهم . وأكثر أهل الصين لا لحية لهم خلقة لأكثرهم . وإذا مات لاحدهم ميت حلق رأسه ولحيته .

والهند إذا أحبوا رحلاً أو لازموه منعوه الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون ، ويقتل قاطع الطريق . ولاهل الصين قضاة يحكمون بينهم دون العمال وكذلك أهل الهند .

والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه فيضربون هامته حتى يموت . . وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل وليس يفعل ذلك أهل الصين .

وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر وثمر ليس عندنا . والهند لا عنب لهم ، وهو بالصين قليل . وسائر الفواكه عندهم كثرة ، والرمان بالهند أكثر .

وليس لأهل الصين علم وانما أصل ديانتهم من الهند . وأهل كلا البلدين يرجعون الى التناسخ . ويختلفون في فروع دينهم . والطب بالهند والفلسفة ، ولأهل الصين أيضاً طب وأكثر طبهم الكي . ولهم علم النجوم ، وذلك بالهند أكثر .

وجنود ملوك الهند كثيرة ولا يرزقون وانما يدعوهم الملك الى

الجهاد فيخرجون ينفقون من أموالهم ليس على الملك شيء . فأما الصين فعطاؤهم كعطاء العرب .

وبلاد الصين أنزه واحسن ، وأكثر الهند لا مدائن لها . وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمه . وبلاد الصين اصح وأقل امراضاً واطيب هواء لا يكاد يرى بها اعمى ولا اعور ولا من عاهة . وهذا اكثر ببلاد الهند . وانهار البلدين جميعاً عظام ، فيها ما هو اعظم من انهارنا . والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة . وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة ، والصين كلها عمارة . واهل الصين أجمل من اهل الهند واشبه بالعرب في اللباس والدواب . وهم في هيئتهم ومواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الاقبية والمناطق ، واهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر ، الرجال والنساء) (١) .

وهكذا يتضح مما اقتطفناه من كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين الاوائل ان ابن بطوطة لم يضف معلومات جديدة عن الهند ، بل لقد تغاضى عن تسجيل ملاحظات هامة عن البلاد بالرغم من اقامته فيها سنين طويلة . ولابد ان نؤكد هنا بأن الكتابات المشار اليها اعلاه لا تمثل سوى مراجع ثانوية عن الهند . ولاريب ان اهم مؤلف في الجغرافية العربية تناول دراسة الهند هو كتاب البيروني المسمى (تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل او مرذولة) . فتلك الدراسة الشاملة العميقة عن الهند قد تناولت مختلف جوانب الحياة فيها من سياسية وفكرية واجتماعية واقتصادية ، كما استعرضت جغرافية الهند استعراضاً علمياً دقيقاً ، هذا فضلاً عن استعراضها الشامل للفلسفة والعلوم الهندية المختلفة . ويعتبر هذا الكتاب من افضل ما الف في الدراسات الاقليمية في جغرافية العصور

---

(١) « أخبار الهند والصين » ص ٢٢ ـ ٢٦ .

الوسطى ، وما يزال حتى اليوم مرجعاً هاماً لدراسة الهند والعلوم الهندية في عصورها الوسطى ولا يمكننا بالطبع ان نقارن ما ورد في الدراسة من معلومات عن الهند بما ذكره ابن بطوطة في احاديثه عن الهند ، فالبيروني قد درس الهند دراسة العالم الباحث ، بينما درسها ابن بطوطة دراسة الرحالة المستطلع لا اكثر ، وعلى اية حال فقد كانت احاديث ابن بطوطة عن الهند حافلة بالحكايات الممتعة والاخبار الطريفة بالاضافة الى معلوماتها الطيبة عن الاحوال الاجتماعية في البلاد ، مما يمكن أعتبارها أدباً ممتعاً . غير أن اثمن معلوماتها هي تلك التي تتعلق بتأريخ الهند في النصف الأول من القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي ولا سيما عن الملك طغرل شاه .

جزر المحيط الهندي

تجول ابن بطوطة في عديد من جزر المحيط الهندي وزار أهمها . فقد استقر زمناً بجزر المليف ، ومر بجزيرة سيلان وجزيرة جاوة ، وربما وصل الى شبه جزيرة الملايو . ولكن من الملاحظ أن الفوضى تسيطر على تلك الجولات ، ولا يمكن للقارىء أن يتتبع خط سيره اثناءها وبالرغم من انه قد ذكر بأنه كان يرغب أصلاً في السفر الى بلاد المعبر ثم الى الصين ، إلا أنه لم يوضح بشكل مقنع أسباب جولاته المتكررة بين تلك الجزر . ومهما يكن الأمر فقد سجل لنا معلومات طيبة عن تلك الجزر لا سيما في النواحي الاجتماعية والاقتصادية .

جزر الملديف :

يطلق العرب على الجزر الواقعة بجوار الساحل الجنوبي الغربي لشبه جزيرة الهند اسم جزر ذيبة المهل . وقد تيسر لابن بطوطة أن يقيم فيها حوالي عام ونصف العام ، وقد تزوج أثناء إقامته مرتين ، وعمل قاضياً في احدى تلك الجزر طيلة مدة بقائه وقد تهيأت له بذلك فرصة اختبار الحياة في تلك الجزر عن كثب . وتعتبر كتاباته عنها مصدراً أولياً هاماً في الأدب الجغرافي العربي ، فلم يسبقه أي جغرافي او رحالة مسلم الى الكتابة عنها لا سيما وانها كتابة متزنة منزهة عن شطحات الخيال . كذلك تميزت اوصافه للجزر ولمدنها بدقة كبيرة . ويقول الاستاذ جب أن كتاباته هذه تعتبر اقدم المعلومات التي نمتلكها عن تلك الجزر وسكانها ، وأن الكثير من اسماء المدن التي ذكرها ما تزال كما هي في خرائط تلك الجزر (١) . ويمكن الحكم باطمئنان بأن الجانب الانثروبولوجي في ملاحظاته عن جزر الملديف من أهم ما ورد في كتاباته عن اقطار الشرق الاقصى ، وهو يكسب « رحلته » قيمة انثروبولوجية كبيرة وقد شملت تلك الملاحظات جوانب متنوعة من حياة السكان . ونظراً لأهمية تلك الملاحظات من وجهة النظر الانثروبولوجية فسنثبت فيما يلي مقتطفات مسهبة منها . قال يصف عادات سكان الجزر :

(واهل هذه الجزر أهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب ، وإذا رأى الانسان احدهم قال له : « الله ربي ومحمد نبيّ وأنا مسكين » . وابدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال

(١) « جب » ص ٣٦٤

والمحاربة وسلاحهم الدعاء ، ولقد أمر مرة بقطع يد سارق فمشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس . . واكثر عمارتهم بالخشب وهم اهل نظافة وتنزيه عن الأقذار واكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظيفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثرون من الادهان العصرية كالصندلية وغيرها ، ويتلطفون بالغالية المجلوبة من مقدشو . ومن عاداتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة الى زوجها او ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه . ولباسهم فوط يشدون الفوطه منها على اوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب (الولياء) وهي شبه المحاريم ، وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً عنها . . ومن عوائدهم انهم إذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى البيت وشماله وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فأذا وصل اليه رمت عند رجليه ثوباً يأخذه خدامه . وان كانت المرأة هي التي تأتي الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه . وكذلك عاداتهم فى السلام على السلطان عندهم لابد من ثوب يرمى عند ذلك) (١) .

واهتم ابن بطوطة اهتماماً خاصاً بنساء جزر الملديف وتناول مختلف جوانب حياتهن ، ومما ذكره :

(ونساؤهن لا يغطين رؤوسهن ولا سلطانتهن تغطي رأسها ، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا تلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى اسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها . . ولباس بعضهن قمص على الفوطة ، وقمصهن قصار

(١) « الرحلة » ص ١٢٢ - ١٢٣ ج ٢ .

الاكمام عراض . . وحليهن الأساور وتجعل المرأة جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهي من الفضة ، ولا يحمل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه ، ولهن خلاخيل يسمونها (البايل) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها (البسد) . . والتزوج بهذه الجزائر سهل لغزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لايسمي صداقاً وإنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها . . وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فاذا أرادوا السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً . ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ، ولا تكلل المرأة عندهم خدمة زوجها لسواها ، بل هي تأتيه بالطعام وترفعه بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغمر رجليه عند النوم . ومن عوائدهم ألا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة) (١) .

وقال يصف مساكن أهل الجزر :

(وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات لأن أرضهم ندية . وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفاً ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك . ويبنون في اسطوان الدار بيتاً يسمونه (المالم) يجلس الرجل مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها . ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه (الوالج) وهو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يستقون الماء من الآبار لقربها . وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار

(١) « الرحلة » ص ١٢٤ - ١٢٥

فالماشي بها كأنه في بستان . ومع ذلك لابد لكل داخل الى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي فيه الخابية بالمام ويمسحها بحصير غليظ في الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد) (١)

وحظي الجانب الاقتصادي في جزر الملديف باهتمام ابن بطوطة أيضاً فتحدث عن جوانب الحياة الاقتصادية فيها حديثاً مفصلاً . وقد ذكر أن الزراعة تنعدم تقريباً في هذه الجزر ، ويعتمد سكانها في غذائهم على السمك ، لاسيما نوعاً خاصاً يسمونه (قلب الماس) ، وهو ذو لحم أحمر ولا زفر له وريحه كريح لحم الأنعام . كذلك يعتمدون في طعامهم على أشجار النارجيل والجموح والاترج والليمون والقلقاس . وشرح ابن بطوطة أوجه النشاط التجاري في الجزر ومما ذكره :

(ومن عوائدهم إذا قدم مركب أن تخرج إليه الكنادر وهي القوارب الصغار وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والكزنبة وهي جوز النارجيل الأخضر فيعطي الانسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزيله ويحمل امتعته الى داره كأنه بعض أقربائه ، ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلّق المرأة لأنهن لا يخرجن من بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه في مقابل ذلك بأيسر شيء من الاحسان . وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظاً بسعر معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرح البندر . ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه (البجنصار) يجمع به الوالي جميع سلعه ويبيع بها ويشتري . وهم يشترون الفخار إذا جلب لهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٢٣

دجاجات وست . وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والفوط الولياوي والعمائم وهي من القطن ويحملون منها أواني النحاس فهو عندهم كثير ويحملون الودع ويحملون القنبر وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه فى حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازي ثم تغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب ، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لأن ذلك البحر كثير الحجارة ، وان كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر ، وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر . وصرف أهالي الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه من البحر ويضعونه فى حفر هناك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض) (١) .

وهكذا يتبين لنا أن ملاحظاته عن سكان تلك الجزر تنطوي على معلومات انثروبولوجية ذات قيمة كبيرة .

جزيرة سيلان :

كانت معلومات ابن بطوطة عن جزيرة سيلان محدودة جداً . وقد ذكر منذ البداية أن زيارته لها هدفت إلى رؤية قدم آدم . ولعل أهم ملاحظاته عن الجزيرة ما يتعلق بثروتها المعدنية المتمثلة بالياقوت وهو يوجد فى جميع مواضعها . وقد ذكر أنه يوجد فى جوف أحجار بيضاء مشعبة يحكها الحكاكون فتنفلق عن أحجار الياقوت الذي قد يكون أحمر أو أصفر أو أزرق (٢) . كذلك ذكر بأن جميع النساء بجزيرة سيلان

(١) « الرحلة » ، ١٢٣ - ١٢٤

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٧

لهن قلائد الياقوت الملون ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضاً عن الأسورة والخلاخيل (١) .

وأسهب ابن بطوطة في الحديث عن بعض حيوانات الجزيرة ، لاسيما القرود التي ذكر أنها تكثر في جبال الجزيرة بشكل عظيم جداً وأنها سود الألوان ولها أذناب طوال ، ولذكورها لحى كلحى الآدميين ، وقد روى عنها حكايات خرافية . وتحـــدث عن نوع من العلق الطيار قال انهم يسمونه (لزلو) ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من المـاء ، فاذا قرب الانسان منه وثب عليه ، فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير .

وفصل ابن بطوطة الحديث عن الطريق الى (قدم آدم) ووصف مواضعها باسهاب يكاد يكون خيالياً . ولعل هذا الوصف المسهب هو الذي دعا بعض دارسي « الرحلة » إلى الاعتقاد ان حديثه عن هـذا الموضع مختلق وأنه لم يزر (قدم آدم) حقيقة .

ولم تشتمل « الرحلة » ـ فيما عدا المعلومات المشار إليها أعلاه ـ على معلومات هامة عن جزيرة سيلان ، سوى قصص عن سلاطين الجزيرة ولم ترد فيها أية اشارة قيّمة إلى أحوال السكان .

جزر الهند الشرقية :

تحدث ابن بطوطة باسهاب عن زيارتـه لجزيرة سومطرة احدى جزر الهند الشرقية ، وقص علينا أخبار مقابلته لسلطانها وما شاهده في

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٣٨

بلاطه من مراسيم واحتفالات (١) ، لكن بعض دارسي « الرحلة » يعتقد أن حديثه هذا يخص جزيرة جاوة بالذات كما يسميها وليست سومطرة ويعزز هذا الاعتقاد غموض أحاديثه عن هذه الجزيرة وجزر الهند الشرقية الاخرى ، وما اتصفت حكاياته عنها من عموميات . فهو يصف الجزيرة بقوله : (جزيرة الجاوة وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي رأيناها على مسيرة نصف يوم ، وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبة والجمون والنارنج وقصب الكافور ، وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك ، والكثير من أفاويه الطب التي ببلاد الكفار إنما هو منها) (٢) . وقد ذكر أن عاصمة هذه الجزيرة هي مدينة سومطرة .

وبعد اقامة خمسة عشر يوماً في بلاط السلطان استقل المركب وسافر بطول تلك البلاد احدى وعشرين ليلة ، ثم وصل إلى جزيرة (مل جاوة) . وقد وصفها بقوله : (وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري ، وليس ببلاد السلطان الظاهر بجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي ، وإنما معظم ذلك بمل جاوة) (٣) .

ولم يشر ابن بطوطة في حديثه عن هذه الجزيرة إلى السكان سوى اشارات موجزة ، حيث ذكر أنهم يستخدمون الفيلة في تنقلاتهم على نطاق واسع جداً حتى ان كل انسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب

---

(١) الشرقاوي ، ص ٣٠٧

(٢) « الرحلة » ، ص ١٥٢ ج ٢

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٥

حانوت يربط فيله عنده يركبه إلى داره (١) .

ولعل أهم ملاحظاته عنها ما يتعلق باشجارها ألاقتصادية كاللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، وقد وصفها باسهاب . وقد وصف شجرة اللبان بأنها شجرة صغيرة بقدر قامة الانسان واغصانها كاغصان الخرشف وأوراقها صغيرة رقيقة ويوجد اللبان في اغصانها كالصمغ . ووصف شجرة الكافور بأنها تشبه القصب ويكون الكافور داخل انبوبة القصب . أما العود الهندي فيشبه شجرة البلوط لكن قشره رقيق وورقه كورق البلوط ولا ثمر له ، وتوجد الرائحة العطرية في عروقه الطويلة وأما اشجار القرنفل فهي فخمة وشكلها عادي وتنتشر على نطاق واسع (٢)

ولم ترد في أحاديث ابن بطوطة عن هذه الجزر معلومات هامة سوى المعلومات الزراعية المذكورة .

بلاد طوالسي

إن زيارة ابن بطوطة لبلاد طوالسي ما تزال موضع جدل شديد بين دارسي « الرحلة » بل ان البعض منهم اتخذها ذريعة للشك في رحلته الى الصين كليةً ، فلم يتفق الباحثون بعد على تلك البلاد بالضبط وعلى موضعها الحقيقي . فمنهم من يعتقد أنها احدى جزر الهند الشرقية . ومنهم من يعتقد إنها ربما تكون احدى مناطق الهند الصينيه اوشبه جزيرة الملايو ، بل ذهب كاتب ياباني معاصر الى القول أنها احدى

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٥٦

(٢) المصدر السابق ص ١٥٥ - ١٥٦

جزر الفلبيين (١) . ولقد ذكر ابن بطوطة أنه قد مر بطوالسي اثناء رحلته الى الصين ، وحدد مواضعها على النحو التالي :

(وسافرنا - من جزيرة مل جاوة - فى البحر فوصلنا بعد اربعة وثلاثين يوماً الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حمزة زعموا انها من تربة أرض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع الساعة . وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوماً ، وعجبت البحرية من التسهيل فأنهم يقيمون فيه خمسين يوماً الى أربعين وهي انهى ما يكون التيسير عليه . ثم وصلنا الى طوالسي وملكها هو المسمى بطوالسي وهي بلاد عريضة وملكها هو أيضاً ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شيء . واهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصور أشبه الناس بالترك في صورهم والغالب على الوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء) (٢) .

وهكذا يلاحظ أن موضع البلاد لا يمكن تحديده من هذا الوصف

---

(١) يقول جب : (احتار الكتاب في طوالسي . فنهم من اعتبرها جزر سيلز أو تونكين أو كمبوديا أو كوشين أو مقاطعة كوان سي أو جزر الفلبين أو ارجنيل سولو Sulu . ويميل يول yule إلى الاعتقاد بأن الاحتمال الأخير هو أقرب الاحتمالات . لكن الأمر المحير هو اسم أميرة طوالسي التركي (الشبيه باسم الخاتون الرابعة لمحمد اوزبك خان) وكذلك حديثها باللغة التركية . ويعتقد يول وكذلك مجيك Mzik بأن تلك الأميرة ربما كانت ابنة السلطان كايدو المسماة ايجاروك واسمها تركي بالفعل ، وقد حرفه ابن بطوطة إلى اوردجا Urduja ، ولعله سمع قصتهـا من البحارة . ويقول هؤلاء الكتاب ان اسم طوالسي ربما كان محرفاً من اسم كابلوكري وهو اسم مبناء في جنوب شرقي الهند .(جب ص ٣٦٨) .

(٢) « الرحلة » ص ١٥٧ ج ٢

كما ان سكانها لا يمكن تمييز هويتهم . فالمعروف ان سكان المناطق الجنوبية الشرقية من آسيا لا تغلب على الوانهم الحمرة بل الصفرة ، كما انهم لا يشبهون الترك . ومما زاد في شكوك الباحثين حول هذا القطر حديث ابن بطوطة عن مقابلته لملكة البلاد ، وهو حديث أشبه شيء بالحكايات الخيالية . فقد وصف مجلسها وصفاً اسطوريا . وزعم ان محاورته معها قد جرت باللغة التركية ، وهي محاورة ذات طابع قصصي واضح . أمـــا حكايته التي سرد فيها تولي الملكة زمـام الحكم في البلاد فكانت اشبه بالحكايات الاسطورية منها بالتاريخ الحقيقي . وقد علق الدكتور حسين فوزي على تلك الحكاية قائلاً :

(ومهما يكن نصيب هذه الحكاية من الصحة فان بها نغمة أمازونية يشتم منها أريج الاسطورة ، بل واسطورة الواق واق إذا ذكرنا حكاية عيسى بن منير السيرافي عن الملكة دمهرة وقد دخل عليها فوجدها عريانة وما دام ابن بطوطة يذكر البحر الكاهل ويسافر من طوالسي الى الصين فليس ببعيد ان تكون حكاية الملكة أردجا نوعاً من السطو العربي الأدبي البريء على قصة علقت بذهن ابن بطوطة من مطالعاته عن البلاد التي في شرق الصين ونسبها الى نفسه) (١) .

ويعتقد كراتشكوفسكي أن وصف ابن بطوطة لبلاد طوالسي الواقعة في مكان من كوشين صين يضم أساطير سمعها عن بلاد اخرى حتى اختلط عليه الوصف اختلاطاً كلياً (٢) . وينفي فران Ferrand الذي يعتبر خبيراً بالادب الجغرافي الاسلامي عن الشرق الأقصى زيارة ابن بطوطة لهذه المناطق نفياً تاما ، ويؤكد انه لم يزر الهند الصينية ولا الصين بل

---

(١) « حديث السندباد القديم » للدكتور حسين فوزي ، ص ١١٩ .

(٢) كراتشكوفسكي ص ١٣٨

لفق روايته عنهما دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة (١) .

والواقع ان شكوك الكتاب حول هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة مشروعة جداً ، ذلك ان حديثه عن جزر المحيط الهندي (ما عدا جزر الملديف) يلفه الغموض ويتصف بالعموميات . أما طريقه الذي سلكه بين هذه الجزر للوصول الى الصين فقد رسمه بابهام واضطراب حتى لا نكاد نبين منه شيئاً . ويمكن القول أن الكبير من ملاحظاته واوصافه عن هذه المناطق - بما فيها وصفه للبحر الكاهل - قد ورد في الأدب الجغرافي الاسلامي المتقدم ، وربما لم يأت ذلك اتفاقاً . من ذلك مثلاً وصفه لبلاد اطلق عليها اسم (بلاد البرهنكار) التي مر بها في طريقه الى جاوة والتي وصف رجالها بانهم على مثل صورتنا إلا ان افواههم كافواه الكلاب ونساؤهم ذوات جمال بارع(٢) . وقد روى عن هذه البلاد حكايات غريبة يلعب الخيال فيها دوراً هاماً . وتتناثر امثال هذه الحكايات في رحلة أبي زيد السيرافي .

يتضح اذن أن من الصعب الجزم بصحة حكايته عن بلاد طوالسي لا سيما وأن حديثه عن ملكة تلك البلاد يكاد يكون تكراراً لاسطورة تناقلتها شعوب الشرق الاقصى . وتتحدث هذه الاسطورة عن ابنة للأمير كايدو امبراطور الصين كانت تحارب كالرجال في بسالة نادرة . وكانت تشترط على من يخطبها أن يغلبها في المبارزة . وقد أورد هذه القصة في حديثه عن رحلاته فى بلدان الشرق الاقصى (٣) .

---

(١) كراتشكوفسكي ص ٤٢٩

(٢) « الرحلة » ص ١٥١ ج ٢

(٣) « ماركو بولو - مغامراته واستكشافاته » لرتشارد وولش وترجمة حسن حسين الياس منشورات مكتبة النهضة ببغداد ، ص ٣٢ .

ومهما يكن الأمر فان غرابة حكايات ابن بطوطة عن بلاد طوالسي ينبغي ألا تكون مدعاة للشك فى رحلته الى الصين ، لأن مسألة زيارته للصين لا ترتبط ارتباطاً جوهرياً بزيارته لبلاد طوالسي ويجب أن نحاكم كلاً من القضيتين على انفراد .

الصـــين

تعتبر رحلة ابن بطوطة الى الصين من اكثر اجزاء «رحلته» عرضة للجدل بين الدارسين . ويمكن القول ان عدد المنكرين لوقوعها اكثر من عدد المؤيدن لها . ولا يمكن الاستهانة باراء المنكرين منهم من المتخصصين فى شؤون الشرق الاقصى . ولعل اشد المتحمسين لانكارها المستشرق غبريال فران Ferrand ، فقد اوصلته دراساته عن جولات ابن بطوطة في الصين الى الاعتقاد بأنه لم يرحل الى تلك البلاد مطلقاً وأنه قد جمع معلوماته من مصادر مختلفة . ويعتقد شيفر schefer كذلك أن اخبار ابن بطوطة عن الصين ليس فيها ما تستحق الاهتمام (١) . أما كراتشكوفسكي فيتفق مع بجيك Mzik بأن مسألة زيارة ابن بطوطة هي مسألة مستعصية على الحل ، ولا يمكن أن يتخذ فيها قرار ، وأن أمر حلها لم ينضج بعد (٢) .

ويؤيد جب قيام ابن بطوطة بزيارة الصين ، لكنه يقدم أسانيد عاطفية لدعم رأيه . فقد قال بصدق ذلك :

(إن الاعتراضات التي تحيق بصعوبة تصديق رحلة ابن بطوطة الى

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٩

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٩

الصين هي من نفس النوع التي أثيرت حول زيارته الى القسطنطينة ، وإن انكار حدوث تلك الرحلة يثير اعتراضات اعظم من تصديقهـــا . وهناك بعض النقاط المادية التي تؤيد ادعاءه بالسفر الى الصين . فقد كان هناك باعث قوي يدعوه الى السفر لا سيما أنه مرسل من سلطان دلهي ، وبذلك توفرت له تسهيلات للسفر الى الصين لا يمكن أن تتوفر للتاجر الاعتيادي . وثانياً هناك أحد المقاطع الغامضة في روايته تشير الى بعض لقاءاته في مدينة حنسا ، وهذا الجزء من رحلته يوضحه مقطع سابق يتحدث عن زيارته للشيخ جلال الدين في أسام وترتبط زيارته للصين بتلك الحكايات ارتباطاً وثيقاً . وثالثا ، إذا كان ادعاؤه كاذباً فما الذي يدعوه الى ذكر اسم تاجر من مدينة كيتا التقى به في شمال الصين واخبره أن له أخاً يعيش في سجلماسة في مراكش ، وقد التقى به فيما بعد ، علماً بأن ذلك التاجر لا بد وان يكون معروفاً لأهل مراكش ؟ ويبدو لنا على العموم بأن الرحلة التي تتحدث عن الصين هي رحلة حقيقية بالرغم من انها رويت باختصار شديد أكثر من العادة أما لأن ابن بطوطة لم يستطع أن يتذكر الاسماء التي قد تعلمها بنفس السهولة التي تذكر بها الاسماء ذات الحروف العربية والفارسية ، أو لأن تلك الرحلة قد اختصرت بشكل عظيم من قبل كاتبها ابن جزي ، والحقيقة أننا لا نرى مفراً من الاعتقاد بأنه قد وقر في ظنه أنه قام بتلك الرحلة بواسطة أحد الاولياء من صانعي المعجزات الذي قابلهم في الهند) (١) ،

والواقع ان هناك مأخذ عديدة يمكن أن يسجلها الباحث عن رحلة ابن بطوطة الى الصين وجولاته فيها . وسنحاول في الصفحات

---

(١) « جب » ، ص ١٤

التالية أن نوضح تلك المآخذ . فلو تتبعنا اساس رحلة ابن بطوطة الى الصين لوجدنا انها كانت في الاصل استجابة لرغبة سلطان دلهي ليكون ضمن وفد رسمي يحمل هدية الى ملك الصين . وقد اوضح ابن بطوطة هذه الحقيقة بقوله :

(ولما كملت لي اربعون بعث اليّ السلطان خيلاً مسرجة وجوارياً وغلماناً وثياباً ونفقة فلبست ثيابه وقصدته . . ولما وصلت الى السلطان زاد في اكرامي على ما كنت اعهد وقال لي : إنما بعثت اليك لتتوجه عني رسولاً الى ملك الصين فاني اعلم حبك في الاسفار والجولان ثم جهزني بما احتاج اليه وعين للسفر معي من يذكر بعد) (١) .

فعزمه على السفر الى الصين امر له مايبرره كما يتضح . لكن المصادفات شاءت أن يتعرض الوفد الرسمي الى كارثة بحرية عصفت بالسفن فأغرقتها وقضت على الهدية الثمينة التي بعثها سلطان الهند الى ملك الصين ، واودت بحياة معظم أعضاء الوفد وقد سلم ابن بطوطة في تلك الكارثه وخرج الى الشاطىء وهو لا يملك شيئاً . وخشي العودة الى دلهي فلبث يتجول بين مدن غربي الهند ، ثم رحل الى جزر الملايو وأقام فيها ما ينيف على عام ونصف . ثم بدا له أن يرحل من جزر الملديف لخلاف وقع بينه وبين الوزير ، وأخذ يتجول بين جزر المحيط الهندي . وقد حدثنا عن زيارته لجزيرة سرنديب ولبلاد المعبر (شاطىء كروماندل) . ثم قفز بنا فجأة الى بنغالة في شرقي الهند وتتصف جولاته في هذة المناطق عموماً باضطراب عظيم وتشوش بالغ ، سيما ما يتعلق بمنطقة بنغالة . ثم أخبرنا انه رحل من بنغالة الى جزيرة جاوة ومل جاوة . ثم انتقل من جاوة بحراً الى بلاد طوالسي بعد خمسين يوماً . وقدسبق لنا أن فصلنا اختلاف البحاثين حول

---

(١) « الرحلة » ص ٩٣ ج ٢

موضع تلك البلاد . ومن هذه البلاد انتقل الى الصين . وقد سجل سفره الى الصين على النحو التالي :

(ثم سافرنا عن البلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير واحسنه الى بلاد الصين) (١)

وقبل أن يذكر لنا الموضع الذي وصل اليه بالضبط استرسل في شرحه اوضاع الصين فقال [استمراراً للكلام السابق] :

(واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من اقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف بآب حياة ومعنى ذلك ماء الحياة ، ويسمى أيضاً نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق . . الخ)

واستمر في الادلاء بمعلومات تتعلق بالنواحي الاقتصادية والادارية بشكل خاص . فتحدث عن صناعة الفخار الصيني وعن الاقمشة الصينية وعن أهم الصناعات الصينية وعن استعمال النقود في الصين ، وعن استخدام الفحم الحجري في الوقود ، كما تحدث عن النظام الكمركي وعن طريقة معاملة التجارة وتشغل هذه المعلومات بضع صفحات من « الرحلة » ، وقد اقتحمت بلا مقدمات . ثم عاد مرة أخرى الى الحديث عن رحلته فقال : (ولنعود الى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر أول مدينة وصلنا اليها هي مدينة الزيتون) (٢) . ومن الواضح أنه كان يتجنب تحديد الطريق الذي سلكه الى الصين . فلقد قطعت معلوماته الاقتصادية والادارية المقحمة سياق الرحلة حتى يكاد المرء ينسى آخر موضع بلغه قبل الوصول الى ميناء زيتون . ويمكن القول بأن التوفيق

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٥٩

(٢) « الرحلة » ، ص ١٦٣

قد جانبه أكثر من أي جزء آخر من « رحلته » في وصف الطريق الذي سلكه الى الصين في رحلته الصينية المزعومة .

أما النقطة الثانية التي تثير الشكوك حول زيارتـه للصين فهي عمومية ملاحظاته في الجغرافية الوصفية للصين . فقد كانت ملاحظاتـه وأوصافه خالية من الدقة التي عودنا عليها في مشاهداته عن البلدان الاخرى فلقد أشار في بداية حديثه عن الصين إلى نهر اطلق عليـه اسم (آب حياة) ، ووصفه وصفاً لا ينطبق على أي نهر من أنهار الصين ، حيث قال :

(ويخترقه النهر المعروف بآب حياة ومعنى ذلك ماء الحياة ويسمى أيضاً نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبـال بقرب مدينة خان بالق (بكين) تسمى كوه بوزنه معناه جبل القرود يمر في وسط الصين مسيرة ستـة أشهر إلى أن ينتهي الى صين الصين ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة عليه النواعير الكثيرة) (١) .

وقد اعتقد بعض الكتاب أنه قصد بهذا النهر يانجتسكيان ، إلا أن وصفه للمنبع والمصب والوادي لا ينطبق على ذلك النهر .

أما حديثه عن تنقلاته بين المدن الصينية فهو بالمثل لا علاقـة له بواقع الحال ولا يتماشى مع المنطق . فهو يزعم قبل كل شيء بأنـه سافر بواسطة الطريق النهري من ميناء زيتون (أموي أو تسوان شو Tswanchow fu) حتى مدينة خان بالق (خانغو أو بكين الحالية) مقر القان ، أي من أقصى جنوبي الصين إلى أقصى شماليها ، مع أن المعروف بأن ميناء تسوان شو الحالي لا يرتبط بالنظام المائي الداخلي الذي يسود الصين . وقد أوضح ذلك بقوله :

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٩

(وسافرنا في هذا النهر [نهر السبرد] سبعة وعشرين يوماً ، وكل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشتري بها ما نحتاج إليه ونصلي الظهر ثم ننزل بالعشى إلى أخرى . وهكذا إلى أن وصلنا إلى مدينة صين كلان وهي مدينة صين الصين [كانتون] . وهنالك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه مجمع البحرين وهي من أكبر المدن . . الخ) (١) .

إن حديثه هذا عن تنقلاته في الصين بواسطة الأنهار ، قد أدى إلى اقتناع عدد من الباحثين أن جولاته في تلك البلاد مختلقة من أساسها لكن جب دافع عن وجهة نظر ابن بطوطة وقدم تبريراً لها كما أشرنا سابقاً . وقد ذكر أنه لم يكن يعرف عن الصين سوى الجزء الذي زاره منها وما استطاع أن يجمعه عنه من معلومات ، وهي معلومات لا يمكن الاعتماد عليها دائماً بطبيعة الحال . ولم تكن تلك المعلومات سوى صورة للاعتقاد الذي كان سائداً في عهده من أن نهر السبر يصل حتى زيتون فالتجار لم يكونوا يعرفون سوى الجزء الساحلي من الصين ، وهم لم يكونوا يدركون إلا بغموض نظام المياه الداخلي الذي يربط هانغ شاو و (الخنسا) ونهر يانجي بكانتون والنهر الغربي (سيانغ كيان) عن طريق رافد بيكيانغ Pei - Kiang وبالتالي اعتبروا رافد بيكيانغ Pei - Kiang يمثل النظام النهري بأجمعه (٢) . ويضيف جب إلى ذلك قوله : (ولابد لنا أيضاً أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب ، وبضمنهم بعض المصادر الصينية ، قد تحدثوا عن ميناء زيتون باعتبارها واقعة على نفس النظام المائي الذي تقع عليه مدينة الخنسا [هانغ شاو]) (٣) .

---

(١) « الرحلة » ، ص ١٦٣

(٢) « جب » ، ص ٣٦٨

(٣) « جب » ص ٣٦٨

وقد حاول كاتب آخر ـ وهو المستشرق يول Yule ـ أن يجد تفسيراً مقبولاً لتنقلات ابن بطوطة بين تسوان شو (زيتون) وصين كلان (كانتون) بواسطة النهر ، فذكر بأنه ربما صعد في طريق نهري بواسطة رافد مين Min من مدينة فوچاو ، ثم انحدر إلى المنابع العليا لرافد كان Kan حتى رافد بيكانغ Peikiang عن طريق ممر ميلينغ Mei - ling لكن هذا الطريق بالذات يشتمل على منحنيات طويلة ، والطريق المفترض الأول الذي ربما استخدم رافدي مي Mei وتانغ Tung هو أفضل إذا كان من الممكن استخدامه للمواصلات المائية (١) .

يتضح إذن أن قبول ادعاء ابن بطوطة بسفره من زيتون إلى صين كلان بواسطة نهر سبرو أمر صعب ولا يقبل منطق الحال ، إلا إذا افترضنا بأنه قد تغاضى ـ حسب اعتقاد جب ـ عن ذكر مراحل السفر البري التي تخللت رحلته النهرية باعتبارها أمراً ثانوياً .

ثم ان حديثه عن الجهات المحيطة بكانتون أمر غير مقبول جغرافياً فلقد قال : (وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين ، وبينها وبين سد يأجوج وماجوج ستون يوماً فيما ذكر لي ، ويسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا به) (٢) . والمعروف أن منطقة كانتون منطقة زراعية هامة وكثيفة السكان منذ عصور بعيدة .

ويستمر ابن بطوطة في وصف تنقلاته في الصين بواسطة نهر سبرو فيقول : (واخترت السفر في النهر فجهزوا لي مراكباً من المراكب المعدة لركوب الامراء ، وبعث الأمير معنا أصحابه، ووجه لنا الأمير والقاضي والتجار المسلمون أزواداً كثيرة . ثم سرنا في الضيافة نتغدى بقرية

---

(١) « جب » ، ص ٣٧٠

(٢) « الرحلة » ، ص ١٦٤

ونتعشى بأخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قنجنفو وهي مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكأنها غوطة دمشق . .) (١)

ويلاحظ أنه لم يشرح أي معالم للطريق بين المدينة السابقة صين كلان (كانتون) وبين مدينة قنجنفو ، بل تحدث حديثاً عاماً يكاد يخلو من أي معنى جغرافي . ومن الجدير بالذكر أن أغلب الكتاب ينفون وجود مدينة باسم قنجنفو ، لكن البعض منهم يعتقد أن المقصود بها مدينة فوجاو ، كما أن للبعض الآخر آراء اخرى حول موضعها الحالي (٢) .

ويستمر ابن بطوطة في الكلام عن سفراته فيقول : (وكانت اقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوماً وسافرت منها إلى بلاد الصين ، وعلى ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها ، فمتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة فأقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج إلا لضرورة . وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأني لقيت أهلي وأقاربي . . لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو وهي مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس للمسلمين بها إلا أربعة من أهل الدور . . وأقمنا عنده ثلاثة أيام ، ثم ودعت الفقيه وانصرفت . فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى الى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوماً إلى مدينة الخنسا واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ، ولا أدري أعربي هو أم وافق العربي ، .) (٣) .

إن مما يؤثر الاستغراب في المقطع المذكور اعلاه عدم التفات ابن

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٥

( ) « جب » ، ص ٣٧١

(٣) « الرحلة » ص ١٦٦ - ١٦٧ ج ٢

بطوطة الى المدن الواقعة على الطريق فيما بين قجنفو (فوجاو) والخنسا (هانغ تشو) خلال رحلة استغرقت عشرين يوماً سوى مدينة صغيرة اطلق عليها اسم (بيوم قطلو) . ويكاد يجمع الباحثون أن اسم (بيوم قطلو) غير موجود بين المدن الصينية ، وقد عجزوا جميعاً عن تحديد موضعها . أما جب فيعتقد أن هذا الاسم لقائد تركي تتري ، وربما سمعه ابن بطوطة أثناء تجواله في الصين فحسبه اسم مدينة (١) . ويلاحظ أيضاً أنه لم يقدم لنا وصفاً جغرافياً مفيداً للطريق وللمناظر التي مر بها بل شغل بالحديث عن امور عامة لا تمس الرحلة مساً مباشراً .

ويستمر ابن بطوطة في وصف تنقلاته بين المدن الصينية فيقول : (وسافرنا من هذه المدينة ـ الخنسا ـ وهي آخر أعمال الصين ودخلنا الى بلاد الخطا وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور ، فانه إن بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضراً غير مقيم لأنها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أر في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنبـــار الى عانة . وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا الى مدينة خان بالق وتسمى أيضا خانفو وهي حضرة القان ، والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا) (٢) .

تمثل مدينة خان بالق أو خانفو (بكين) إذن آخر مدينة وصل

---

(١) « جب » ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢

(٢) « الرحلة » ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ج ٢

اليها ابن بطوطة ، وتقع في اقصى شمال شرقي الصين . وكان المفروض أن يسجل لنا كعادته وصفا جغرافيا للمنطقة الشاسعة التي اخترقها فيما بين الخنسا (هانغ شاو) وخان بالق (بكين) ، لكنه اقتصر على القول بأنها عبارة عن مزارع متصلة . وقد اعتبر بعض الكتاب ادعاءه بخلو تلك المنطقة من المدن دليلاً على جهله بالمنطقة ويقول يول yule بأن مثل هذا التقرير يدعو الى الشك فيما إذا كان ابن بطوطة قد سافر حقاً الى ما وراء مدينة الخنسا (كنساي) لأن تقريره هذا يشمل معلومات مناقضة للحقيقة تماما (١) .

أما زعمه بخلو المنطقة من المسلمين فتناقضه معلومات وتقارير الرحالة البندقي ماركوبولو الذي أقام في بكين ما ينيف على عشرة أعوام في نهاية القرن الثالث عشر . فقد تحدث ماركوبولو حديثا مطولاً عن تأثير العرب والمسلمين في إدارة دفة الحكم في البلاد . وقد روى قصة أمير عربي اسمه أحمد كان يلي الامبراطور في نفوذه الواسع . وكانت الجالية العربية والاسلامية المقيمة في العاصمة كانبولوك (خان بالق) تتمتع بنفوذ عظيم . وقد ذكر مؤامرة حدثت ضد حكم الخان ، وكان غايتها القضاء على حكم أحمد بالذات ، وقد أدرك الامبراطور أسبابها فاستدعى سائر العرب الموجودين في العاصمة وأمرهم بتبديل عاداتهم (٢) .

إن المقاطع التي اوردناها اعلاه تمثل مجمل معلومات ابن بطوطة الجغرافية عن الصين . ولا يمكن مقارنة تلك المعلومات البسيطة بأية معلومات وردت في « الرحلة » عن أي بلد آخر توفرت له زيارته . ومما يستلفت الانتباه أيضا قلة المدن الصينية التي أورد ذكرها مع أنه عودنا على تسجيل كل مدينة يمر بها صغيرة كانت أم كبيرة . فهل من

---

(١) « جب » ، ص ٣٧٣

(٢) « ماركو بولو - مغامراته واستكشافاته » ص ٥٤ - ٥٧ .

المعقول ألا يعلق بذهنه من مدن الصين سوى خمس مدن ، اثنان منها لا يمكن التعرف عليهما ، واثنان منهما ميناءان مشهوران والخامسة عاصمة البلاد ، علما بأنه لبث يتجول في انحاء الصين قرابه خمسة أشهر ؟ ! إن جهل ابن بطوطة بمدن الصين أمر غير معقول ، ولا يمكن أن يعزى هذا الجهل الى غرابة اسماء تلك المدن أو الى ضعف ذاكرته ، فقد عودنا أن تكون ذاكرته خارقة ولا تخضع للمقاييس الاعتيادية . هذا فضلاً عن أنه عجز عن تقديم أي وصف جغرافي مفيد للبلاد .

ولو عدنا لاستعراض أوصافه للمدن الخمس المذكورة لوجدنا أنها أوصاف عامة لا تعتمد على المشاهدة بقدر اعتمادها على السماع . وفي وسعنا أن نستشير مرجعاً تاريخياً هاماً لامتحان دقة تلك الاوصاف ومدى مطابقتها للحقيقة ، ألا وهو « رحلات ماركوبولو » . وقد سبق لنا أن ذكرنا أن هذا الرحالة الأوربي كان معاصراً لابن بطوطة ، وقد سبقه بحوالي نصف قرن فى زيارة الصين وأقام فيها سنين طويلة ، وترك لنا وصفا دقيقا للمدن الصينية الهامة . قال ماركوبولو يصف مدينة خان بالق :

(سأحدثكم عن المدينة العظيمة التي تسمى كامبالو والتي تقع فى مقاطعة كاثاي Cathaya . تبلغ مساحة هذه المدينة (٢٤) ميلاً مربعاً وتنقسم الى أربعة اقسام ، يقارب كل قسم منها (٦) أميال مربعة وهي ذات سور متين جداً ، يصل ارتفاعه الى عشرين خطوة كما يتجاوز ابراجه ثلاث خطوات . أما عرض السور فيبلغ حوالي خمس خطوات

ولهذه المدينة اثنا عشر باباً ، لكل منها بناء عظيم جداً . ويقوم على كل زاوية من زوايا السور المذكور قصر عظيم أيضاً . ويقيم في تلك الابنية عدد هائل من الحراس الموكلين بحماية المدينة . وقدخزنت

في تلك الابنية جميع أنواع الأسلحة للدفاع عن المدينة وقت الضرورة . أما شوارع المدينة فهي مستقيمة ومتسعة جداً ، حتى أن المشاهد يستطيع أن يلمح نور الشمعة أو شعلة النار من أدنى طرف الشارع الى اقصاه وفي المدينة عدد عظيم من القصور والبيوت الجميلة ، ويتوسطها قصر فخم بديع ذو برج شاهق . ويشتمل البرج على جرس ضخم ، واذا ما دق هذا الجرس ثلاث دقات فلا يمكن أن يغادر أي انسان منزله سوى الحراس الموكلين بحراسة المدينة ، والمربيات اللواتي يتكفلن برعاية الأطفال الحديثي الولادة ، وكذلك الأطباء الذين يعودون المرضى . ولا يمكن لهؤلاء أن يتجولوا في الشوارع دون أن يحملوا معهم ضوءاً . ويقوم بحراسة كل بوابة من بوابات السور حوالي الف جندي ، لا خشية من الاعداء بل حماية للمدينة من اللصوص وقطاع الطرق . وتهدف هذه الحراسة التي فرضها الخان العظيم الى صيانة شعبه من التعرض لأذى أي أحد .

وللمدينة اثنى عشر ضاحية فخمة يقيم فيها القادمون من اقطار أخرى ، كما يقطنها أيضاً السادة الذين يمتون بالصلة للملك وبلاطه . . ويغادر المدينة كل يوم ما ينيف على عشرين الف عربة محملة بالحرير . ويتولى حراسة الخان العظيم كل ليلة حوالي عشرين الف فارس يمتطون صهوات جيادهم لاخوفاً من الاعداء بل اظهاراً للعظمة (١) ،

أما إبن بطوطة فقد وصف مدينة خان بالق على النحو التالي : (ثم نزلنا الى المدينة وهي اعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين والخطأ في كون البساتين داخلها انما هي كسائر البلاد والبساتين

(1) The travels , Marco polo , Translated by John Framptou , London 1937 , Adam Charler Black P . 65 - 66 .

بخارجها ومدينه السلطان في وسطها كالقصبة حسبما نذكره) (١) .

ثم وصف ابن بطوطة قصر الخان على النحو التالي :

(وقصرة في وسط المدينة المختصة بسكناه واكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب . فالباب الاول منهـا يجلس به التكتوال وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها الممالك البردارية وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل واخبرت أنهم فيما تقدم الف رجل . والباب الثاني يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة ، والباب الثالث يجلس عليه النزارية وهم أصحاب الرمح وعددهم خمسمائة . والباب الرابع يجلس عليه التغدارية وهم أصحاب السيوف والترسة . والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة . والباب السادس من ابواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الأعظم . والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف ، احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود ، والثالثة سقيفة الصينين ، ولكل طائفة منهم أمير من الصينين) (٢) .

أما ماركوبولو وصف قصر السلطان على النحو التالي : (يمتد القصر من جوار السور الشمالي الى جوار السور الجنوبي ولا يترك سوى ساحة لمرور الاشخاص ذوي المنزلة والحراسة والعسكريين . والاساس الذي قام عليه القصرير تفع عن مستوى الارض كما بني جدار من الرخام في جميع جهاته ، وهو عبارة عن شرفة يمكن مشاهدة الذين يتمشون عليها من الخارج . وعلى طول هذا الجدار الرخامي يقوم (درايزون)

---

(١) « الرحلة » ص ١٧٠ ج ٢

(٢) « الرحلة » ص ١٧٠ - ١٧١

ذو اعمدة يسمح للناس بالاقتراب منه . وتزدان جوانب القاعات الكبيرة والشقق بالتنانين المحفورة والمموهة بالذهب وبرسوم المحاربين والطيور والوحوش وبصور مناظر القتال وفي كل جانب من الجوانب الأربعة يوجد درج رخامي ينقل الصاعد من مستوى الارض الى الشرفة الرخامية المؤدية الى القصر . وفي مؤخرة القصر أبنية كبيرة فيها ممتلكات الخان الخاصة وكنوزه من الذهب والفضة والاحجار الكريمة وصحاف الفضة والذهب ويقوم على الجانب الآخر المقابل لقصر الخان قصر آخر يشابهه من جميع الوجوه ويسكنه ابنه الاكبر . وفي الجانب الشمالي وعلى مسافة مرمى سهم من سور القصر يوجد جبل اصطناعي من التراب يبلغ ارتفاعه مائة خطوة ، ومحيطه في قاعدته حوالي ميل . وهو مكسو بالاشجار الجميلة الدائمة الاخضرار . . وبسبب هذه الخضرة الدائمة فقد دعي المكان بالجبل الاخضر وعلى قمة الجبل أقيم سرادق مزخرف ذو لون أخضر أيضاً ، وإن منظر الاشجار والابنية والجبل يؤلف مشهداً بهيجاً وعجيباً . .) (١) .

ووصف ماركوبولو مدينة الخنسا (كينساي ـ هانغشاو) على النحو التالي:

(وبعد مغادرة مدينة سينغاي singuy والسفر حوالي خمسة أيام تصل الى مدينة عظيمة وشهيرة تسمى كينساي Quinsay أي مدينة السماء . وهذه المدينة هي اعظم مدن العالم وهي عاصمة مقاطعة مانجي Mangi . وأنا ماركوبولو كنت في هذه المدينة وقد تعلمت عاداتها . وقد اخبرت بان محيطها يبلغ حوالي مائة ميل ، وانها تشتمل على اثني عشر الف جسر حجري ذات اقواس شاهقة تمر تحتها السفن الضخمة . وتقوم المدينة فوق المياه مثل مدينة قنسيا . وينبغي على كل فرد من سكان هذه المدينة أن يمتهن مهنة أبيه واجداده .

---

(١) ماركو بولو ـ مغامراته واستكشافاته » ، ص ٤٩ .

وتوجد في هذه المدينة بحيرة يبلغ محيطها حوالي (٣٠) ميلا وقد شيد وسطها أجمل قصر وقعت عليه عيناي ، كما بني فيها قصران آخران تقام فيهما أعراس المدينة ، ويحتفظ فيهما بكل ما تحتاجه حفلات الاعراس .

ويتولى حراسة كل جسر من تلك الجسور الاثني عشر حارس دائم لئلا ترتكب أعمال تخريبية ، ولئلا يحدث أي تمرد . وينتصب في المدينة جبل مرتفع يعلوه برج شاهق جداً وفوقه ناقوس ويقرع هـــذا الناقوس حينما تشب النار في احدى مواضع المدينة أو حينمـا تنشب الأضطرابات . وفي المدينة أربعة عشر حماماً . .) (١) .

أما ابن بطوطة فقد وصف مدينة الخنسا (هانغ شاو) على النحو التالي :

(ووصلنا بعد سبعة عشر يوماً الى مدينة الخنسا . واسمها على نحو اسم مدينة الخنساء الشاعرة ، ولا أدري عربي هو أم وافق العربي . وهذه المدينة اكبر مدينة رأيتها على وجه الارض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل ، وهي على ماذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل واحد له بستانه وداره ، وهي منقسمة الى ست مدن سنذكرها . وعند وصولنا اليها خرج الينا قاضيها فخر الدين وشيخ الاسلام بهـا وأولاد عثمان بن عفان المصري وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والأطبال والأنفار والابواق ، وخرج أميرها في موكبه . ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور ، ومحدق بالجميع سور واحد . فأول مدينـة يسكنها حراس المدينة وأميرهم . حدثني القاضي وسواه أنهم اثنى عشر الفاً في زمام العسكرية . وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم . وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ، ويسكن بها

(1) The travels of Marco Polo ' P . 93 - 94 .

اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير . وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة ، كترتيبها في بلاد الاسلام ، وبها المساجد والمؤذنين سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا . . وعدد المسلمين كثير بهذه المدينة . وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً . فكنا في كل يوم وليلة فى دعوة جديدة . ولا يزالون يختلفون في اطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة في اقطار المدينة . وركبوا معي يوماً فدخلنا الى المدينة الرابعة وهي دار الامامة وبها سكنى الامير الكبير قرطي . . وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي من أحسن المدن الستة ، ويشقها انهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الاعظم وتأتي فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد ، وفيه السفن للنزهة ، والمشور [قصر الحكم] في وسط هذه المدينة وهو كبير جداً . ودار الامارة في وسطه يحف به من جميع الجهات . وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة والآت الحرب . أخبرني الأمير قرطي أن عددهم ألف وستمائة معلم ، كل واحد يتبعه الثلاثة والاربعة من المتعلمين وهم جميعاً عبيد القان وفي ارجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ، ويباح لهم الخروج الى أسواق المدينة دون الخروج على بابها . ويعرضون كل مائة مائة ، فان نقص احدهم طلب به أميره . .

وفي غد تلك الليلة الخامسة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من اكبر المدن يسكنها عامة الناس أسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية . ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست . . ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها

وبالغد دخلنا من باب يسمى (كشتي وانان) الى المدينة السادسة ، ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون ويدعون دودكاران (درودكران) والاصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة وجميعهم عبيد السلطان ولايسكن معهم سواهم وعددهم كثير ، وهذه المدينة على ساحل النهر الاعظم) (١) .

ووصف ماركوبولو مدينة زيتون الواقعة قرب آموي وصفاً موجزاً فقال :

(وبعد مغادرة كينساي واجتياز النهر المذكور والسفر حوالي خمسة أيام نحو سولانو solano أو نحو الشرق عن طريق الجنوب ، فانك تمر بمدن وبلدان كثيرة ذات مزايا عظيمة . وفي نهاية رحلة الخمسة أيام تقوم مدينة عظيمة ظريفة هي مدينة زيتون وهي ذات مرفأ جيد لذا تقبل عليها سفن عديدة من جميع البلدان محملة بالبضائع الكثيرة . وهذا الميناء هو أعظم ميناء في العالم ، وهناك مقابل كل سفينة تدخل ميناء الاسكندرية مائة سفينة تدخل ميناء زيتون . ويتقاضى الخان ضرائب فادحة على السفن الداخلة والخارجة . فالسفن القادمة تدفع ١٠٪ من البضاعة مكوساً ، كما تدفع عن الجواهر الكريمة والبهارات والصناعات الثمينة ٣٠٪ وعن الفلفل ٤٠٪ . وهكذا يدفع التجار عن الكمارك والتحميل وما شابهها حوالي ٥٠٪ من قيمة البضاعة) (٢) .

أما ابن بطوطة فقد وصف ميناء زيتون على النحو التالي :

(لما قطعنا البحر أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون - وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ، ولكنه اسم

---

(١) « الرحلة » ص ١٦٧ - ١٦٩ ج ٢

(٢) « الرحلة » ص ٩٨ - ٩٩

وضع عليها . وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمفار الاطلس وتعرف بالنسبة اليها ، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقيـــة ، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت بها حوالي مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وهو فور كبير من البحر يدخل البر حتى يختلط بالنهر الأعظم ، وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا ، وبهذا عظمت بلادهم . والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة) (٢) .

إن المقارنات التي أوردناها أعلاه تكشف عن دقة أوصاف ماركوبولو للمدن الصينية وعن عمومية أوصاف ابن بطوطة لها ، كما تكشف أيضاً عن انعدام التشابه بين أوصاف الرحالتين إلا ما يتعلق بالامور العامة التي قد تنطبق على أية مدينة كانت . ولا يسعنا بالطبع أن نتشكك في أوصاف ماركوبولو لأنه أقام في البلاد كما ذكرنا ما ينيف على عشرة أعوام . ولهذا فان من الطبيعي أن تتجه الشكوك نحو أوصاف ابن بطوطة وعلى هذا يمكن القول أن ابن بطوطة ربما نقل تلك الأوصاف ، أو على الأصح ما تبقى منها في ذهنـه عن التجار الذين زاروا الصين ، ولعله زوقها بعض الشيء . وهنا لابد لنا أن نقرر حقيقة معروفـة وهي أن المعلومات عن الصين كانت متوفرة في ذلك العهد لدى التجـار العرب والمسلمين . وقد أكد لنا ابن بطوطة نفسه في ثنايا « رحلته » أنه التقى بكثير من التجار العراقيين والمصريين والشوام ممن كانوا يزاولون التجارة مع الصين . ثم ان اقامة ابن بطوطة تلك السنوات في الهند قد هيأت له فرص الالتقاء بكثير من التجار الذين كانوا يقصدون الصين . ومن

---

(١) « الرحلة » ص ١٦٣ ج ٢

المعلوم أن الصلات التجارية بين الهند والصين كانت قوية جداً . وفضلاً عن ذلك كله فقد كان النفوذ العربي في الصين ـ الذي تأتى من انتشار الاسلام بين الصينيين ـ واسعاً وملموساً . وقد أشرنا الى قصة الأمير أحمد التي رواها ماركوبولو باسهاب . وقد أوضح ماركوبولو أيضاً في مواضع عديدة من « رحلته » اعتماد الأباطرة الصينيين على العرب والمسلمين . وقد قوى هذا الاعتماد من نفوذ التجار العرب الذين كانوا يفدون إلى الصين بأعداد كبيرة . كل ذلك يقودنا الى الاستنتاج بأن استقاء المعلومات عن الصين لم يكن أمراً عسيراً على ابن بطوطة ، لاسيما وانه كان كثير الاتصال بتجار من مختلف الأقطار العربية . ولا يعني هذا الاستنتاج أن معلوماته كانت مخطوءة ، لكنها كانت مقتصرة على جوانب محدودة تخص النواحي الادارية والاقتصادية ، وهي ما تيسر له سماعه من أفواه التجار . ولعل مما يؤيد اعتماد ابن بطوطة على الآخرين في جمع معلوماته عن الصين خلوها من الملاحظات الاجتماعية التي عودنا عليها في بقية أجزاء « الرحلة » وبعبارة أدق فان الملاحظات الاجتماعية كانت ثانوية ونزرة جداً مع أنها تعتبر بالنسبة للرحالة أهم الملاحظات وقد فاته أن يذكر مشاهد لا يمكن أن تغيب عن ذاكرة الرحالة ومثالها سور الصين العظيم . ثم انه وقع في تناقضات واضحة . فقد ذكر أنه حينما وصل مدينة زيتون كتب صاحب ديوانها الى القان يخبره بقدومه من جهة ملك الهند (١) . مع انه يعلم تمام العلم بأنه لم يعد يمثل ملك الهند منذ أن غرق الوفد الرسمي وانه قد قدم بشكل شخصي بعد انقضاء ما يقرب من عامين على ارسال الوفد الرسمي . والظاهر ان رحلته الى الصين لم تتجاوز مرحلة الشروع بها وانها قد قبرت مع غرق الوفد في

(١) « الرحلة » ص ١٦٣ ج ٢

المياه الهندية لكنها ظلت عالقة بذهنه .

واضافة إلى ذلك فقد وقع في بعض الأخطاء التأريخية . ومثال ذلك حديثه عن الاضطرابات التي اجتاحت الصين بسبب الخلاف بين القان الأكبر وابن عمه فيروز على السلطة ، ونقل العاصمة من خان بالق إلى قراقورم . ويقول جب أن من المعروف تأريخياً ان الخانات الكبار لم ينقلوا العاصمة إلى مدينة قراقورم إلا بعد وفاة توغون تيمور عام ١٣٧١ (كما تدل التواريخ الصينية) ، في حين ان زيارة ابن بطوطة للصين قد تمت على زعمه حوالي عام ١٣٥٦ (١) .

وقد وصف ابن بطوطة باسهاب مشهد دفن القان الأكبر بعد مقتله على يد ابن عمه . ويعلق جب على ذلك الوصف بقوله بأن من المعروف بأن المشهد الذي وصفه ابن بطوطة يمثل احتفال دفن الرئيس التتاري لا القان الأكبر ، فكيف يمكن أن يكون قد شهد دفن الامبراطور بنفسه كما يزعم ؟ (٢) .

وبعد أن استعرضنا العوامل التي تثير شكوكنا حول رحلة ابن بطوطة إلى الصين ، لابد أن نؤكد بأن تلك الشكوك لا تقلل من قيمة وأهمية المعلومات التي أوردها عن تلك البلاد ونخص منها المعلومات الاقتصادية والادارية ، فهي معلومات قيمة ودقيقة عموماً ومنزهة عن المبالغات . وقد سجل ماركوبولو في كتاباته عن الصين معلومات مشابهة . ولاريب انها معلومات أصيلة لم يسبق ابن بطوطة الى تسجيلها أحد من الرحالة العرب والمسلمين . وإذا لم يكن ابن بطوطة قد شاهدها بنفسه فمن المؤكد أنه قد نقلها عن أشخاص تيسرت لهم مشاهدة الصين ومعرفتها حق المعرفة

---

(١) « جب » ص ٣٧٣

(٢) « جب » ص ٣٧٣

فأما ما يخص المعلومات الادارية فقد تناولت جوانب متعددة . ومن أمثلة ذلك حديثه عن ديوان الوزارة على النحو التالي :

(والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة ، فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند ، وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب . وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر وعن يمينها صحيفة كتّاب الرسائل . وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتّاب الأشغال . وتقابل هذه السقائف سقائف أربع احداها تسمى ديوان الأشراف يقصد بها المشرف ، والثانية سقيفة ديوان المستخرج وأميرها من كبار الأمراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الامراء من اقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الامراء الكبار ومعه الفقهاء والكتّاب فمن لحقته مظلمة استغاث بهم ، والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الاخباريين) (١) .

وسجل لنا ابن بطوطة وضع المسلمين وما يتمتعون به من حرية دينية وامتيازات سياسية ، وذكر أنه في كل من بلاد الصين شيخ للاسلام تكون امور المسلمين كلها راجعة إليه وقاضي يقضي بينهم (٢) .

وأشار إلى الضمان الاجتماعي الذي كان مطبقاً في الصين فذكر أنه توجد في مدينة صين كلان (كانتون) كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقصد عليها الساكنون بهـا ، وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة . وكذلك فيما بين الأبواب كلها . وفي داخلها المارستان الممرضى والمطبخة لطبخ الأغذية

---

(١) « الرحلة » ص ١٧٠ ج ٢

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٤

وفيها الأطباء والخدام . وللمشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا مال لهم (١) .

وفي موضع ثان من « الرحلة » أشار إلى نوع آخر من الضمان الاجتماعي ، فذكر بأن القان يعتق عبيده إذا بلغوا سن الخمسين ويتكفل الانفاق عليهم . كما تتكفل الدولة أيضاً بالانفاق على كل من بلغ هذه السن أو نحوها . أما من يبلغ الستين فانه يعد كالصبي ولا تجري عليه الأحكام (٢) .

وتحدث ابن بطوطة عن صيانة الأمن ببلاد الصين وعن المحافظة على أرواح الغرباء فقال :

(وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين ، فان الواحد يظل منفرداً مسيرة تسعة شهور وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندق عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجالة . فاذا كان بعد المغرب أو العشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه الكاتب لكتابة أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم . فاذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه معدّ كل واحد باسمه وكتب به تفصيلاً وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه ، وان لم يفعل طالبه بهم . وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق) (٣) .

وفي موضع آخر بين ابن بطوطة اسلوباً حكيماً من أساليب الأمن

---

(١) « الرحلة » ص ١٦٤

(٢) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢

التي كانت تطبق في البلاد وذلك بتصوير كل شخص غريب يدخل البلاد ليكون معروفاً لدى سلطان الأمن، فاذا ما فعل ما يوجب فراره ارسلت صورته إلى البلاد وبحث عنه، فأينما وجد شبه تلك الصورة أُخذ (١) وقد أشاد ابن بطوطة ببراعتهم البالغة في التصوير.

وتحدث أيضاً عن اهتمام الدولة بالكمارك وتنظيمها تنظيماً دقيقاً ومما ذكره في ذلك:

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك [مركب] من جنوكهم السفر صعد إليه صاحب البحر وكتابه، وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر. فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا إليه وقابلوا ما قيدوه بأشخاص، فان فقدوا أحداً مما قيدوه طلبوا صاحب الجنك، فأما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه وإلا أُخذ فيه. فاذا فرغوا من فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها، ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن) (٢).

وأما معلوماته الاقتصادية فقد شملت الحديث عن الزراعة والصناعة والتجارة. ففي ميدان الزراعة اوضح أهمية نهر السبر (يانجتسكيان) في الزراعة فذكر أن المزارع والبساتين والاسواق تكتنف جميع ضفافه وعليها النواعير حتى ليفوق نيل مصر عمارة. وقد بين أن الصين غنية بفواكهها الممتازة لا سيما الأجاص الذي يفوق الأجاص العثماني والبطيخ

(١) « الرحلة »، ص ١٦١

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٠ - ١٦١

الذي يناظر بطيخ خوارزم واصفهان ، وانها غنية بالسكر والاعناب ، وأن جميع فواكه البلاد العربية تنبت فيها. وقد ذكر أن القمح يزرع فيها بوفرة وهو من أحسن انواع القمح ، كما يزرع فيها أيضاً العدس والحمص (١) .

وتحدث عن ثروة الصين الحيوانية فذكر أنها تتميز بشكل خاص بدجاجها وديوكها الضخمة ، إلا أن الأغنام فيها قليلة جداً . وقد استسلم لشطحات خيالية فذكر بأن الديك في الصين على قدر النعامة وأن بيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الأوز في بلاده (٢) .

واستعرض ابن بطوطة في أحاديثه عن الصناعة أهم الصناعات الصينية وابدى اعجابه الشديد ببراعتهم في شتى انواع الصناعات لا سيما صناعة الفخار الصيني . وقد شرح صناعة الفخار على النحو التالي :

(وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينه الزيتون وبصين كلان وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم وسنذكر ذلك . ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها فيعود الجميع تراباً ثم يخمرونه . فالجيد منه ما خمر شهراً كاملاً ولا يزاد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمناً ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم) (٣) .

وتحدث عن الانسجة الحريرة وذكر أنها عندهم كثيرة جداً لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤونة ولذلك كثر وقد أكد بأن الثوب الواحد من القطن يباع عندهم بالأثواب الكثيرة

---

(١) « الرحلة » ص ١٥٩

(٢) « الرحلة » ص ١٦١

(٣) « الرحلة » ص ١٥٩

من الحرير ، وأن الحرير لباس الفقراء ولولا التجار لما كانت له قيمة (١)

واستلفت نظره أيضاً صناعة الأواني الخشبية لاسيما في مدينة الخنسا (هانغ شو) . وذكر بأن الصناع يصنعون في هذه المدينة أطباقاً يسمونها الدست وهي من القصب وقد الصقت قطعة ابدع الصاق ودهنت بصبغ احمر مشرق . وتكون هذه الاطباق عشرة واحداً في جوف الآخر وهي لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاءاً يغطيها جميعها ، ومن عجائبها أن تقع من العلوّ فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول . وتجلب من هنالك الى الهند وخراسان وسواها (٢) .

وفي صدد حديثه عن التجارة سجل ابن بطوطة ملاحظة قيمة عن طريقة الصيني في التعامل النقدي التجاري ، وتعتبر تلك الطريقة من أقدم طرق التعامل النقدي في القديم . فقد قال :

(واهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها (بالشت) وهي بمعنى الدينار عندنا . وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار السكة ـ عندنا فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من السلطان . وقد وكل بتلك الدار من كبار الامراء ، وإذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه ولا يلتفت اليه حتى يضرفه

---

(١) « الرحلة » ص ١٦٠

(٢) المصدر السابق ص ١٦٩

بالبالشت ويشتري) (١) .

أما ملاحظاته عن الاحوال الاجتماعية في الصين فهي كما ذكرنا قليلة القيمة ونزرة للغاية ، ولا تتناسب قيمتها مع قيمة ملاحظاتـــه الاقتصادية والادارية . وقد اتبع سردها نفس الطريقة التي انتهجها في سرد المعلومات الاقتصادية والادارية فأوردها جملة واحدة ولم ترد كملاحظات متفرقة في ثنايا « الرحلة » وقد وردت على النحو التالي :

(وأهل الصين يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تتري من ذرية تنكيزخان . وفي كل مدينه من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكانها ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعيات وسواهـا وهم معظمون محترمون . وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في اسواقهم . وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس . وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى امواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة وجميع أهل الصين انما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ويقولون هو الرجل الثالثة . . وعاداتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره . ومن كان له خمس قطع منها جعل في اصبعـــه خاتماً ، ومن كانت له عشرة جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشر سمّوة الستي). (٢) .

تلك هي بجمل ملاحظات ابن بطوطة الاجتماعية عن الصين ، وهي ملاحظات عابرة لا يمكن أن تصدر عن رحالة ظل يتجول في البلاد

---

(١) « الرحلة » ص ١٦٠

(٢) « الرحلة » ص ١٦٠

بضعة شهور ويمكن أن تتجلى ضحالتها بمقارنتها بملاحظات أبي زيد السيرافي . قال أبو زيد مقارناً بين أهل الصين والهند :

(وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يدفن إلا في اليوم الذي مثله من قابل ، يجعلونه في تابوت ويخلونه في منازلهم ويجعلون عليه النورة فتمص ماءه ويبقى والملوك يجعلون في الصبر والكافور . ويبكون على موتاهم ثلاث سنين ، ومن لم يبك ضرب بالخشب ، كذلك النساء والرجال . ويقولون : « إنه لم يحزنك ميتك ؟ ! » ويدفنون في ضريح كضريح العرب ولا يقطعون عنه الطعام . ويزعمون أنه يأكل ويشرب .

وأهل الصين ينصفون في المعاملات والديون فاذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتاباً ، وكتب الذي عليه الدين كتاباً وعلمه بين اصبعه الوسطى والسبابة ، ثم جمع الكتابان فطويا جميعاً ، ثم كتب على فصلهما ، ثم فرق فأعطي الذي عليه الدين كتابه باقراره .

ولهم حجر منصوب طوله عشرة اذرع مكتوب فيه نقراً في الحجر ذكر الادوية والادواء ، داء كذا دواؤه كذا . فان كان الرجل فقيراً أعطي ثمن الدواء من بيت المال . ،

ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤسهم وفي كل مدينة كتاب ومعلم الفقراء واولادهم من بيت المال يأكلون . وليس عليهم خراج في ضياعهم وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم وضياعهم . وإذا ولد لأحد ذكر كتب اسمه عند السلطان ، فاذا بلغ ثماني عشر سنة أخذت منه الجزية . فاذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية واجري عليه من بيت المال . ويقولون أخذنا منه شاباً ونجري عليه شيخاً) (١)

---

(١) « أخبار الهند والصين » لأبي زيد السيرافي ، ص ١٦ - ٢١ ، راجع أيضاً الكتاب نفسه ص ٢٢ - ٢٦ بصدد المقارنة بين أهل الصين والهند .

يتضح لنا إذن أن ابن بطوطة لم يمدنا بملاحظات اجتماعية قمية عن سكان الصين وخصوصاً إذا ما قورنت بملاحظات غيره من الرحالة الذين زاروا الصين بالفعل ، ولعل مرجع ذلك الى نسيانه للمعلومات التي جمعها من التجار . ومما لاريب فيه أنه لو تيسرت له زيارة الصين فعلا لأمدنا - كعادته - بأخبار كثيرة ، لاسيما وان زيارته للصين كانت آخر مرحلة من مراحل جولاته في العالم القديم قبل عودته الى الوطن . ولا يمكن أن تغيب مشاهداته في تلك البلاد عن ذاكرته .

(٤)

افريقيا الغربية

لعل جولة ابن بطوطة في الصحراء العربية الكبرى وافريقيا الغربية من أدق وافضل ما اشتملت عليه « رحلته » ، كما انها في اكثر اجزاء « الرحلة » خلواً من المبالغات . وقد امتازت بوضوح خط سيرها بالرغم من اختلاف الكتابة حول مواضع بعض المدن ، والتي تعتبر في الوقت الحاضر مدناً تاريخية منقرضة . ويمكن أن نعلل دقة « الرحلة الافريقية » بكونها اخر رحلاته ، وبكونه قد شرع في تدوينها عقب عودته بشهور قليلة ، فكانت معلوماتها ماتزال طرية في ذهنة . وقد حاول ان يروي مشاهداته بحياد تام مما جنبها شطحات الخيال . أما معلوماتها فهي بمجموعها دقيقة ، كما انها اصيلة وقيمة ، ولم يرد لها مثيل فيما كتبه الادريسي أو البكري عن تلك الجهات . وقد اثبتت تحقيقات الرحالة الاوربين في اواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ان معلوماته عن الصحراء العربية الكبرى وعن غربي افريقيا صحيحة ودقيقة . ويمكن القول ان ابرز أخطائه في هذه الرحلة حديثه عن النيجر ، وهو خطأ وقع فيه بعض الجغرافيين المسلمين من قبله ، وشاركهم بعض الرحالة الغربين من بعدهم ، ألا وهو اعتبار نهر النيجر فرعاً من فروع نهر النيل وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً بين الرحالة الغربيين حتى أثبت

منجو پارل عام ١٧٩٥ انعدام الصلة بين النهريين .

ولعل ابن بطوطة اقتبس هذه الفكرة عن الادريسي ، وقد حدد ابن بطوطة اتصال نهر النيجر بنهر النيل على النحو التالي :

(ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو والنيل ينحدر منها الى كابرة ثم الى زاغة . ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو وسنذكرهما ، ثم الى بلدة مولي من بلاد الليمين وهي آخر عمالة مالى ثم الى يوفي وهي من اكبر بلاد السودان ، وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولايدخلها الابيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول اليهم ؛ ثم ينحدر الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهي اكبر بلادهم ، ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة اسوان في صعيد مصر) (١) .

ومن الجدير بالذكر ان حديث ابن بطوطة هذا قد اوقع بعض دارسي « الرحلة » في الخطأ ، فقد اعتقدوا انه اتبع الطريق النهري لزيارة السودان الشرقي ثم عاد مرة اخرى عن طريق الصحراء الكبرى الى المغرب . فقد ذكر محمود الشرقاوي في كتابـــه (رحلة مع ابن بطوطة) ما يلي :

(هذا هو الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في رحلتـه إلى بلاد السودان ومنه نعرف انه عبر الصحراء الكبرى إلى افريقيا الغربية فنزل الى نهر النيجر حيث تقع عليه مدينة تنبكتو [وقد خلط بينه وبين نهر النيل] ثم سار على مركب صغير منحوت من خشبة واحدة إلى بحيرة تشاو ثم شق السودان إلى دنقلة فالشلال فالسودان شمالاً) (٢) .

---

(١) « الرحلة » ص ١٩٦ ، ج ٢

(٢) الشرقاوي ، ص ٣٧٥

ان هذا الاستنتاج محظور بالطبع ، وان ابن بطوطة نفسه لم يصرح به . وقد وقع في هذا الخطأ أيضاً الشيخ محمد فخر الدين الذي وضع الخرائط لكتاب « مهذب رحلة ابن بطوطة » فقد رسم للرحلة الافريقية طريقاً يخترق الصحراء الكبرى فيما بين السودان الغربي ومصر (١) .

وفيما عدا هذا الخطأ الجغرافي الذي وقع فيه ابن بطوطة ، فان معلوماته وأوصافه الجغرافية للمناطق التي اخترقها خلال رحلته الافريقية هي من أفضل ما ورد فى « الرحلة » من أوصاف جغرافية وقد لخص لنا بدقة وبراعة الأوضاع الطوبوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية للصحراء الكبرى ولافريقيا المدارية الغربية ، وحقق فيها مستوى عالياً في الكتابة الجغرافية . ولعل أجمل ما كتب في هذا الجزء من « رحلته » ما يتعلق بطريقه اختراق الصحراء والمشقات التى تواجهها القوافل وقد أشار أيضاً إلى أهمية الدليل في اختراق الصحراء ، ووصفه على النحو التالي :

(التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى ايوالاتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون لمقائهم بالماء مسيرة أربع ، ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن كتب الى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك .

وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم . وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فان كان التكشيف منفرداً لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر إنما هي رمال تسفيها الريح فترمي جبالاً من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت الى سواه . والدليل هنالك من

---

(١) « مهذب رحلة ابن بطوطة » ـ الخارطة الافريقية .

كثر تردده وكان له قلب ذكي) (١) .

ومن الجدير بالذكر أن الرحالة يتناقلون دائما نفس الاساطير عن الصحاري وما فيها من شياطين تلعب بعقول عابريها . وقد أشار ماركوبولو الى مثل تلك الحكايات في حديثه عن صحراء غربي الصين (٢) .

ولرحلة ابن بطوطة الافريقية أهمية تاريخية وانثروبولوجية . فأما أهميتها التأريخية فتكمن في كونها سجلاً قيماً مبنياً على تجربة شخصية لاحوال مملكة مالي الاسلامية في عهد السلطان منسي سليمان . فقد اسهب ابن بطوطة في وصف بلاد مالي وما يجري فيه من مراسيم واحتفالات وقد استغرقت أوصافه تلك صفحات عديدة . وقد أبرز في أحاديثه حقيقة هامة وهي سيادة الدكتاتورية المطلقة في تلك المملكة الفتية بالرغم من أنها ديكتاتورية تستند الى العدل الذي يتمثل بشخص السلطان سليمان نفسه . وقد بالغ في الحديث عن سيادة الامن والاطمئنان ضمن حدود تلك المملكة ، حتى أن المسافر لم يكن يخشى من أخطار اللصوص كما أن المظلوم كان يستطيع انتزاع حقه حتى من السلطان نفسه أو من ممثليه الاداريين . ولقد افاض ابن بطوطة في وصف تعظيم الناس للسلطان منسي ومما ذكره في ذلك .

(والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم واشدهم تذللاً له ويحلفون باسمه فيقولون منسي كي . فاذا دعي بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرها نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً خلقه ونزع عمامته وجعل شاشية وسخاً ودخل رافعاً ثيابه وسراويله الى نصف ساقيه ، وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرفقيه ضرباً شديداً ووقف كالراكع يسمع

---

(١) الرحلة » ص ١٩٢ - ١٩٣ ج ٢

(٢) ماركو بولو - مغامراته واستكشافاته » ص ٢٨

وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء . وكنت اعجب منهم كيف لا تعمى اعينهم . وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمامتهم على رؤسهم وانصتوا الى الكلام . وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر افعاله في خدمته ويقول فعلت كذا فيصدقه من علم وتصديقهم أن ينزع احدهم وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى . فاذا قال له السلطان صدقت أو شكره نزع ثيابه وترّب وذلك عندهم من الأدب) (١) .

وأما أهمية « الرحلة » الافريقية من الناحية الانثروبولوجية فتمكن في تراثها بالملاحظات الاجتماعية والاقتصادية عن قبائل الطوارق والقبائل الزنجية التي تقطن أفريقيا الغربية . ففي الجانب الاقتصادي تبرز حقيقة واضحة في ملاحظات ابن بطوطة وهي اخضاع العرب للصحراء الكبرى واستخدامها طريقاً يصل أفريقيا الشمالية العربية بأفريقيا الغربيـــة الزنجية . وكانت التجارة نشطة على امتداد تلك الطرق الطويلة التي تربط مصر واقطار المغرب العربي بافريقيا الغربية المدارية . وكان الطريق البري يخترق الصحراء الكبرى قادماً من بلاد النيجر يتفرع الى فرعين رئيسين يطلق على احدهما اسم طرتق غات وهو يتجه نحو مصر ، ويطلق على الآخر اسم طريق توات وهو طريق بلدان المغرب (٢) .

واوضح لنا ابن بطوطة انواع البضاعة التي تنتقل على هذا الطريق فذكر انها تشمل على الانسجة والمعادن ولا سيما العبيد . كذلك أوضح طريقة التجارة المتبعة في أفريقيا الغربية المدارية فذكر بأن المسافر في

---

(١) « الرحلة » ص ٢٠٠ ج ٢

(٢) المصدر السابق ص ٢١٠

تلك البلاد لا يحمل زاداً ولا ادماً ولا ديناراً ولا درهماً وانما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسمونـــه الناس (النظم) وبعض السلع العطرية لاسيما القرنفل والمستكي . فاذا وصل القرية جاء نساء السودان بالحبوب واللبن والدجاج والأرز ودقيق اللوبياء فيشتري منه ما أحب من ذلك . (١) ويتعامل السكان أيضاً في مناطق اخرى بالودع لاسيما في مالي وكوكو . وفي موضع آخر ذكر ابن بطوطة أن سكان السودان الغربي يتعاملون بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة وهم يقطعونه قطعاً ويتبايعون به . وقد أكد على أهمية الملح في قرية تغازي بشكل خاص التي تقع وراء سجلماسة بخمس وعشرين يوماً . وقد قال في ذلك : ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها انما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر سجلماسة ومن أنلي المجلوب من السودان . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منه الملح ويباع الحمل بايوالاتن بعشرة مثاقيل من الذهب الى ثمانية وبمدينـة مالي بثلاثين مثقالاً الى عشرين ، وربما انتهى الى أربعين مثقالاً) (٢) .

وهكذا رسم لنا ابن بطوطة صورة اقتصادية متكاملة لكل منطقة يمر بها في أفريقيا الغربية موضحاً طريقة تعاملها الاقتصادي وما تتبادله من بضائع وما تنبته من مزروعات أو تصنعه من المصنوعات .

أما ملاحظاته الانثروبولوجيه فأهمها بلا ريب مـــا يتعلق بقبائل

---

(١) « الرحلة » ص ١٦٩

(٢) « الرحلة » ص ١٩١ - ١٩٢

الطوارق وبنظامها الأمي . ويعتبر ابن بطوطة أول الرحالة الذين كشفوا عن النظام الأمي الذي تتبعه تلك القبائل لاسيما في منطقة ايوالاتن والجهات المجاورة ، وهو النظام الذي يجعل المرأة على قدم المساواة مع الرجل إن لم تكن اعظم شأناً منه ، ويجعل النسب والوراثة متعلقين بالأم وعائلتها وكانت مدينة ايوالاتن أول مدينة لاحظ فيها ابن بطوطة سيادة هذا النظام الاجتماعي الذي صوره على النحو التالي :

(وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ . وماؤهم من احساء بها ولحم الضأن كثير بها . وثياب أهلها حسان مصرية . ولنسائها الجمال الفائق وهن اعظم شأنا من الرجال وشأن هؤلاء القوم عجيب وامرهم غريب . فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب احدهم لأبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث إلا ابناء اخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار المليبار من الهنود . وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن . وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يتحجبن مع مواظبتهن على الصلوات . ومن أراد التزوج منهن تزوج لنهكن لا يسافرن مع الزوج ، ولو أرادت احدهن ذلك لمنعها اهلها . والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والاصحاب من الرجال الأجانب . وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ، ويدخل احدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك) (١) .

أما ما يتعلق بالقبائل الزنجية التي تقطن أفريقيا الغربية المدارية والاستوائية فلم يسجل ابن بطوطة عن حياتها الاجتماعية سوى ملاحظات عابرة . فقد ذكر مثلاً أن الخدام والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ، كما أن النساء يدخلن على السلطان عرايا

---

(١) « الرحلة » ص ١٩٤

غير مستترات ، وكذلك تفعل بناته (١) . وذكر أيضا لبسهم للثياب البيض النظيفة واكلهم للجيف والكلاب والحمير .

وأشار الى بلاد تقع وراء مملكة مالي نحو الداخل وذكر أن سكانها يأكلون بني آدم . ومن عادة هؤلاء القوم أن يجعلوا فى آذانهم اقراطا كباراً وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون بملاحف الحرير ويكثر الذهب فى بلادهم (٢) .

وأخيراً فلابد من أن نؤكد ثانية بأن رحلة ابن بطوطة لافريقية بالرغم من ايجازها الشديد ـ قد اشتملت على معلومات قيمة عن الصحراء العربية الكبرى وعن افريقيا الغربية المداريه ، وهذه المعلومات تفوق ما ورد فى كتب الرحالة والجغرافيين الأوائل. وإذا كان الادريسي والبكري قد كتبا عن الصحراء العربية الكبرى باسهاب وتفصيل ، فان تلك الكتابات لم يشتمل على ملاحظات انثروبولوجيـــة واقتصادية بل اقتصرت على ذكر مدن تلك المنطقة وتعداد ما بينها من مراحل ، كما اشتملت على وصف مفصل لبعض المواضع ، مما يجعل رحلة ابن بطوطة الافريقية متفوقة عليها فى ميدان الجغرافية الاجتماعية والاقتصادية .

(١) المصدر السابق ص ٢٠٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٥

الخاتمة

بعد أن استعرضنا شخصية ابن بطوطة ورحلاته ، وما أورده فيها من ملاحظات أصبح من اليسير علينا أن نقيّم « رحلته » المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

ولقد توضح لنا بأن ثمة صفتين قد غلبتا على طبع ابن بطوطة وتحكمنا في حياته وهما روح المغامرة وحب السفر ونزعة التديّن والورع ولقد قادته الصفة الاولى إلى الطواف في بلدان عديدة والى قطع المسافات الطويله ، ولم يكن له من هدف سوى اشباع تلك الرغبة الجامحة . فقد لاحظنا مثلاً أنه لبث شهوراً طويلة يتجول بين جزر المحيط الهندي ، ويقطع الهند شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً دون هدف واضح . وقد كان بهذا الاعتبار يمثل الرحالة القديم المثالي الذي لا يهدف إلى تحقيق غرض علمي معين ، كما لا يبغي كسب مغانم تجارية معينة . لهذا فاننا نعتقد ان ابن بطوطة لم يلجأ في يوم من الأيام إلى تسجيل أية ملاحظات ذات صفة علمية أثناء رحلاته . ولعل هذه الناحية تكشف لنا عن العفوية والسطحية التي تتصف بهما ملاحظاته عموماً . فلم ترد في « رحلته » ملاحظات تنم عن تروٍ وتفكير ومقارنة إلا نادراً والواقع أن ملاحظاته هي من النوع الذي يعلق بالذاكرة نتيجة المشاهدة ، وربما كان أفضل تلخيص « للرحلة » هو ذلك الذي سجله ابن جزي في المقدمة حيث قال : (يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار) (١) .

ولقد استتبع عدم لجوء ابن بطوطة إلى تسجيل ملاحظاته في حينها إلى فقدان « الرحلة » لكثير من المقومات الجغرافية الضرورية . فلم يكن

---

(١) « الرحلة » ص ٤ ، ج ١

في كثير من الاحيان يعني بذكر الاتجاهات أثناء سفراته ، بل إنه كان يقفز في بعض المواضع قفزات غريبة من مدينة إلى اخرى لهذا أصبح من الصعب رسم خارطة واضحة لخط سيره في كثير من البلدان. كذلك اتسم وصف المدن لديه بسطحية وعمومية واضحة بحيث لا يمكن للمرء أن يتمثل الموضع الجغرافي ، بل ولا يمكن الاستشهاد به . والحقيقة أن أغلب أوصافه للمدن متشابهة ومتكررة ، ونادراً ما تكشف عن سمة جغرافية ، متفردة . وفضلاً عن ذلك فقد حرّف نطق عدد غير قليل من المدن نيجة النسيان ، لاسيما ما يتعلق بالبلدان الأعجمية ، مما حيّر الباحثين في صحة وجودها أو في مواضعها الحقيقية . ولعل أهم مشكلة تواجه الباحث في « رحلة ابن بطوطة » هو عدم انطباق أسماء كثير من المدن المذكورة على المدن الحالية . ويشارك ابن بطوطة في هذه السمة ماركو پولو في رحلاته المعروفة ، فان أبرز عيوبها الجغرافية عدم دقة أوصاف المدن وأسمائها ، وعدم دقة خط تنقلاته بين تلك المدن مما أوقع الباحثين أيضاً في حيرة من أمرهم . وهذا أمر طبيعي فلم يسجل ماركو پالو ملاحظاته عن البلدان التي زارها في حينها بل استعادها من الذاكرة بعد سنين طويلة ، وقد أملاها على أحد زملائه في السجن وهو روستيشلّو البيزوي ، شأن ابن بطوطة الذي أملى رحلاته على ابن جزي لكننا إذا قارنا الجوانب الجغرافية في « رحلة ابن بطوطة » بمثيلاتها في « رحلة ابن جبير » مثلاً من حيث أوصاف المدن وخط السير لوجدنا ابن جبير متفوقاً عليه ويعود ذلك إلى قيام ابن جبير بتسجيل ملاحظاته ومشاهداته يوماً بيوم مما أكسبها الدقة والتميز .

أما الصفة الثانية التي تحكمت في حياة ابن بطوطة وهي نزعة الورع والتدين فلا ريب انها قد طبعت « رحلته » بطابعها الخاص كلياً

فلا تكاد تقرأ أية صفحة من صفحات « الرحلة » تخلو من الحديث عن رجال الدين أو من الحكايات ذات الصبغة الدينية . وقد يرد البعض على مثل هذا الادعاء بالقول بأن الظرف الذي أملى فيه ابن بطوطة « رحلته » ظرف يعني بأمور الدين ورجاله أكثر من أي شيء آخر ، وهو قول غير بعيد عن الصحة . إلا أن ذلك لا يقتضي بالضرورة تكريس « الرحلة » لشؤون الدين ورجاله ، فهي لم تكن رحلة دينية وان كان غرضها الأول حج بيت الله ، وقد انتفى ذلك الهدف بمرور الزمن . بل اننا نرى ان رحلة مشابهة كان غرضها الأول حج بيت الله الحرام وهي « رحلة ابن جبير » لم تنصرف ذلك الانصراف إلى تقصي أخبار رجال الدين والأولياء والزهاد ، ورواية الأساطير عنهم كما حفلت بذكرها « رحلة ابن بطوطة » . ولقد أدت بابن بطوطه نزعته الدينية إلى اهمال النواحي الجغرافية ، فوردت ملاحظاته الجغرافية بصورة ثانوية ومبتسرة ، سوى حالات قليلة ، بينما أفاضت « الرحلة » في تناول النواحي الدينية وان لم تكتسب معلوماتها تلك أهمية خاصة . بيد أننا لا نود أن نحمّل نزعة ابن بطوطة الدينية ما في « الرحلة » من تصوير جغرافي ، فالحسّ الجغرافي لدى ابن بطوطة كان ضعيفاً أصلاً . ولقد كانت تفوته معالم جغرافية بارزة في بعض المدن لم تكن تنطبع في ذاكرته ولم تكن تستلفت انتباهه

أما ما يتعلق بحكاياته فقد لاحظنا أنها كانت معقولة عموماً وتنم عن الصدق . ولا يعني ذلك أنها كانت مجردة من المبالغة دائماً ، لكن درجة الاختلاق فيها لم تكن عالية . وإذا قارنا حكاياته بحكايات الرحالة الآخرين لوجدناها عموماً أقل مبالغة . ففي أحد مواضع رحلات ماركو بولو مثلاً يؤكد بأنه قد قام بقياس ريشة طير الرخ فوجد أنها

تبلغ (٩٠) شبراً من أشباره (١) . أما المسعودى فيذكر في كتابه (أخبار الزمان) قائمة طويلة بأسماء الطيور والأسماك والحيوانات الغريبة التي لا وجود لها (٢) . وهناك عدد آخر من الرحالة والجغرافيين العرب الذين تحفل كتبهم بالمبالغات ومع ذلك فقد تعرضت بعض حكايات ابن بطوطه إلى الشك والارتياب الذي يبلغ حد التكذيب . ولم تراود الشكوك معاصريه فحسب ، بل راودت عدداً غير قليل من دارسي « رحلته » في الوقت الحاضر أيضاً . وقد أثارت شكوكهم أجزاء معينة من الرحلة ، لاسيما حكاياته عن ملك الهند محمد طغرل شاه ومشاهداته في الصين والقسطنطينية . فالمستشرق فران Ferrand مقتنع تماماً أنه لم يصل الى الصين . والمستشرق يول Yule يؤكد بأنه لم يدخل القسطنطينية أبداً . ويؤيدهما في هذين الرأين آخرون . لكن عدداً آخر من المستشرقين قد دافعوا عنه وبرروا ما يبدو من خلط أو غرابة في حكاياته عن هذين البلدين . فقد أكد جب أنه روى ما اعتقده حقيقياً ، إلا أن بعد الشقة الزمنيـــة وخضوعه للعاطفة الدينية قد أديا به إلى خلط الحقيقة بالخيال في بعض المواضع والحكايات فلم يميز بين ما شاهده حقيقة وبين ما سمعه سماعاً (٣) . كذلك أكد كراتشكوفسكي أن حكاياته بوجه عام جديرة بالثقة (٤) بل ان بعض المستشرقين تحمس

---

(١) « الارتياد والكشف الجغرافي » تأليف هـ . ج . وود وترجمة الدكتور شاكر خصباك ، منشورات دار المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٦٧ ص ٤٤ .

(٢) « أخبار الزمـــان » تصنيف المؤرخ أبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي ، منشورات دار الأندلس ، بيروت ١٩٦٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٥٠ ـ ٧١ .

(٣) « جب » ص ١٢

(٤) كراتشكوفسكي ص ٤٢٨

له تحمساً عظيماً كالمستشرق الايطالي دوزي Dozy فأطلق عليه لقب « الرحالة الأمين » (١) . ومهما بلغ تفاوت آراء المستشرقين حول مدى صدقه فلابد أن نعترف بأنه استسلم للخرافات في بعض حكاياته استسلاماً مطلقاً وبدرجة غير مقبولة . وأبرز مثل على ذلك حكاية الفرجية وحكاية الرجل الصيني المعمر وحكاية الشجرة المقدسة وغيرها من الحكايات (٢)

وإذا ضربنا صفحاً عما ما اشتملته « الرحلة » من عيوب جغرافية أو مبالغات أو حكايات مختلفة ، فانها تظل ذات قيمة كبرى بما تحفل به من معلومات متنوعة عن أجزاء واسعة من العالم القديم . فقد تميزت بشمولية عظيمة تكاد تفتقد في أي مؤلف من مؤلفات الرحالة القدماء وقد مكنت تلك الشمولية ابن بطوطة أن يدلي بأحكامه عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لكل بلد عن خبرة ومعرفة بالاوضاع السائدة في بقية بلدان العالم القديم . فقد علمنا أنه زار بلدان شمالي افريقيا ومصر والسودان الغربي والاندلس وبلاد الشام وفلسطين وجزيرة العرب والعراق وشرقي افريقيا وآسيا الصغرى والقرم وحوض الفولغا الادنى وتركستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية . ومما لا ريب فيه أن تلك الرحلات الواسعة قد اكسبته فهماً خاصاً لاحوال الشعوب كما اكسبته معرفة باقتصادها هذا بالاضافة إلى معاصرته لكثير من الاحداث التأريخية للبلدان التي زارها ومعرفته المباشرة بحكامها . لذلك يمكن اعتبار « رحلته ابن بطوطة » من افضل كتب الرحلات العربية القديمة كذلك تعتبر « الرحلة » ذات اهمية عظيمة لدارسي الجغرافية التاريخية ولعلماء الانثروبولوجيا . فلقد حفلت بالاوصاف المسهبة والدقيقة للأنظمة

---

(١) « دائرة المعارف » ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ٣٦٩

(٢) راجع الفصل الأول .

الاجتماعية والسياسية لبلدان جنوب شرقي آسيا ، ولا سيما الهند وجزر الهند الشرقية والصين ، وكذلك لاقطار آسيا الوسطى والغربية كتركستان وبلاد الاناضول ، وكذلك لجهات افريقيا الغربية مما يمكن اعتباره سجلاً ممتازاً للأحوال السائدة في البلدان المذكورة في ذلك العصر . ويمكن القول أيضاً أن المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي وردت في « الرحلة » عن الهند وتركستان وجزر الملديف وجهات افريقيا الغربية معلومات أصيلة كلياً ، ولم يسبق ابن بطوطة إليها أي رحالة مسلم آخر .

ولابد من التأكيد أخيراً بأن « رحلة ابن بطوطة » ليست مؤلفاً ذا قيمة جغرافية وتأريخية وأنثروبولوجية فحسب ، بل هي في الوقت نفسه كتاب أدبي قيم غني بالحكايات الممتعة والعبر النافذة .

مصادر البحث

المراجع العربية :

ابن بطوطـــة : رحلة ابن بطوطة . المكتبة التجارية لمصطفى محمد بالقاهرة

ابن جبـــير : رحلة ابن جبير . (تحقيق الدكتور حسين نصار) منشورات مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٥٥

ابن فضلان : رسالة ابن فضلان ، حققها الدكتور سامي الدهان مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٩

ابن رستـــه : الاعلاق النفيسة . منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام ١٨٩١

ابن الفقيـــه : مختصر كتاب البلدان . منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام ١٨٨٥

ابن حوقل النصيبي : صورة الأرض . ليدن ١٩٣٨

ابن خلدون : مقدمة العلامة ابن خلدون . المكتبة التجارية الكبرى لمصطفى محمد بالقاهرة

ابو اسحاق الاصطخري كتاب الأقاليم . منشورات مكتبة المثنى عن عن طبعة ليدن باشراف ميلر

أبي الحسن المسعودي : أخبار الزمان . منشورات دار الأندلس بيروت ١٩٦٦

أبي زيد السيرافي : أخبار الهند والصين .

ابراهيم العدوي : ابن بطوطة في العالم الاسلامي ـ سلسلة اقرأ العدد ١٤٤

أغناطيوس كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح هاشم) . منشورات الجامعة العربية بالقاهرة ج ١

أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك : مهذب رحلة ابن بطوطة منشورات وزارة المعارف المصرية ، القاهرة ١٩٣٣

أنيس المقدسي : دائرة المعارف . بيروت ١٩٥٨

حسين فوزي : حديث السندباد القديم . لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٣

رتشارد وولش : ماركو بولو ـ مغامراته واستكشافاته (ترجمة المقدم حسين الياس) منشورات مكتبة النهضة ببغداد

زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٤٥

الشريف الادريسي : وصف الهند وما جاورها من البلاد ، (من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) منشورات الجامعة الاسلامية في عليكرة بالهند ١٩٥٤

شوقي ضيف : الرحلات . دار المعارف ١٩٥٦

عبد الله كنون : ابن بطوطة . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥

فؤاد بدوي : ابن بطوطة . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٣

مصطفى الشهابي : الجغرافيون العرب ـ سلسلة إقرأ ، العدد ٢٣٠

محمود الشرقاوي : رحلة مع ابن بطوطة . منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨

نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافية (ترجمة فتحي عثمان) منشورات دار القلم بالقاهرة

نقولا زيادة : الرحالة العرب

هـ . ج . وود : الارتياد والكشف الجغرافي (ترجمه شاكر خصباك) ، منشورات المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٦

ياقوت الحموي : معجم البلدان

المراجع الانجليزية :

polo , Marco , The Travels of Marco polo , translated by John Frampton , Adam charles Blaeh , London 1937 .

Gibb , H . A . R . , ' Ibn Battuta - travelt in Asia and A frica . Routledge & Kegan , london 1953 (3 rd impression) .

Incicleopieia Britanica , - Ibn Battuta .

Sharaf , T , ' A short history of geographical discovery ' , Alexaneria 1961 .

Page , J . W . ,
primitive races of to - day , London 1938 .

الفهرست

مقدمة	٥
الباب الأول	١٧
شخصية ابن بطوطة	١٩
جولات ابن بطوطة	٤٧
الباب الثاني	١٣٥
كتابة « الرحلة »	١٣٧
ثمار « الرحلة »	١٦٧
خاتمـــة	٢٨٥

كتب للمؤلف

الكتب الادبية

صراع - (مجموعة قصص)	القاهرة ١٩٤٨
عهد جديد - (مجموعه قصص)	القاهرة ١٩٥١
حياة قاسية - (مجموعة قصص)	بغـداد ١٩٥٩
حكايات من بلدتنا - (مجموعة قصص)	بيروت ١٩٦٧
بيت الزوجية - (مسرحية)	بغـداد ١٩٦٢
الغرباء - (مسرحية)	القاهرة ١٩٦٥
الشيء - (مسرحية)	بيروت ١٩٦٦
الحقد الاسود - (قصة طويلة)	بيروت ١٩٦٦
آنطون تشيخوف - (دراسة وترجمة)	بغـداد ١٩٥٤

الكتب العلمية

الكرد والمسألة الكرديه	بغـداد ١٩٥٩
جغرافية العراق (مع آخرين)	بغـداد ١٩٦١
اعلام الجغرافية المدنية (ترجمة)	الاسكندرية ١٩٦٤
المدخل فى دراسة الجغرافية (ترجمة)	الاسكندرية ١٩٦٤
نمو السكان فى لواء السليمانية (بالانجليزيه)	بغداد ١٩٦٠

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغـداد ٢٧٣ لسنة ١٩٧١
٢٥ ـ ١٠٠٠ ـ ٢٨ / ٨ / ١٩٧١
مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف

IBN BATTUTA

AND

HIS TRAVELS

BY

SHAKIR KHESBAK (BA., PH.D.)

UNIVERSITY OF BAGHDAD

مطبعة الآداب ـ النجف

سنة ١٩٧١ م

الثمن ٦٠٠ فلساً

او ما يعادلها